

الحجاج بن يوسف

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة السادسة من روايات تاريخ الاسلام

تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها ومقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك ابن مروان . ويتخلل ذلك وصف مكة والمدينة وعادات أهاليهما وأخلاقهم وسائر أحوالهم

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

(الطبعة السادسة)

مطبعة الهلال

سنة ١٩٢٣ بمصر

مقدمة

الطبعة الثانية

هذه هي الحلقة السادسة من روايات تاريخ الاسلام التي أخـذنا على عاتقنا تأليفها ونشرها بين قراء هذا اللسان . وقـد ظهر منها الى الآن ثلاث عشرة حلقة ونحن في الرابعة عشرة وهي رواية « عبـد الرحمن الناصر » تنشر تباعاً مع اهلة السنة الثامنة عشرة . وتاريخ الاسلام عبارة عن تاريخ الشرق الحديث أو هو تاريخ العالم كله بعد عصرالرومان والفرس فيجدر بأبناء الشرق درسه والاعتبار به

وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته والاستزادة منه . وخصوصاً لاننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لاهي عليه كما فعل بعض كتبة الافرنج وفيهم من جعل غرضه الاول تأليف الرواية وانما جاء بالحقائق التاريخية لالباس الرواية ثوب الحقيقة فيجره ذلك الى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء

وأما نحن فالعمدة في رواياتنا على التاريخ وانما نأتي بحوادث الرواية تشويقاً للمطالعين . فنبقى الحوادث التاريخية على حالها وندمج في خلالها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها فيصح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والاشخاص . الا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة ــ بل هو يزيدها بياناً ووضوحاً بما يتخللها من وصف العادات والاخلاق

وقد طبعت هذه الرواية طبعتها الاولى سنة ١٩٠٢ ونفدت نسخها فأعدنا طبعها سنة ١٩٠٩ . فنطلب اليه تعالى أن يأخذ بيدنا لاتمام هـذه السلسلة وهو حسبنا ونعم الوكيل

وقد طبعت ثالثة في سنة ١٩٢٠ ورابعة سنة ١٩٢٢ وخامسة سنة ١٩٢٩

الفصل الاول

بعد مقتل الحسين

انتهينا في رواية « غادة كربلاء » الى حيث قتل الحسين بن علي وأهله في كربلاء بجوار الكوفة وما كان من الوقائع بعد ذلك الى وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ولما مات يزيد كان عبد الله بن الزبير لايزال في مكة يدعو الى نفسه وقد خلا له الجو بعد موت الحسين . وكان يزيد قد بعث لقتاله جنداً تحت قيادة الحصين بن نمير فجاء الخبر بوفاة يزيد وهم في الحصار . ولم يكن من أبناء يزيد من يصلح للخلافة فرأى الحصين ان الامر لا يستتب إلا بمبايعة عبد الله بن الزبير . فطلب اليه ان يحجب الدماء ويقدم معه الى الشام ليبايعه فأبى عبد الله . فارتحل الحصين الى الشام بمن معه ودانت الحجاز لابن الزبير

وأما في الشام فانهم بايعوا بعد موت يزيد ابنه معاوية (الثاني) فلم يعش الا أياماً ثم اختلفوا على من يبايعون بعده . وكان في جملة أمراء بني أمية مروان بن عبد الحكم . وكان أميراً للمدينة على عهد يزيد فلما مات يزيد رحل مروان الى الشام فبايعوه لانه شيخ طاعن في السن فتزوج أم خالد ابن يزيد ليكتسب حزب بني يزيد ويصغر نفس خالد عن طلب الخلافة . ولكن امرأته هذه خنقته سنة ٦٥ هـ لسبب سيأتي ذكره وهو لم يحكم إلا تسعة أشهر وبضعة عشر يوما . فولوا مكانه ابنه عبد الملك بن مروان وفي أيام هذا الخليفة زهت دولة بني أمية وتأيد سلطانها

وأما ما كان من أهل الكوفة فانهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه ورجعوا الى رشدهم وقاموا يطالبون ابن زياد وأصحابه بدمه وسموا أنفسهم التوابين

وفي سنة ٦٦ هـ ظهر في الكوفة رجل اسمه المختار بن أبي عبيد قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس الى بيعة ابن الزبير فحارب الامويين وقتل قتلة الحسين وفيهم عبيد الله بن زياد وشمر بن ذي الجوشن وخولى الاصبحي

وعمر بن سعد وغيرهم . فلما ذاق النصر بدل دعوته وصار يدعو الى محمد ابن الحنفية أخى الحسين من أبيه وزعم ان جبريل يظهر له . واتخذ كرسياً وقال ان فيه سراً مثل سر تابوت العهد عند اليهود

فلما استفحل أمر المختار فى الكوفة ودان له العراق وأصبحت الخلافة يتنازعها ثلاثة ــ عبد الملك في الشام ومصر والمختار في العراق وابن الزبير في الحجاز . غضب عبد الله بن الزبير على المختار لنقضه بيعته فبعث اليه أخاه مصعب بن الزبير فحاربه وقتله فدانت العراق لعبد الله ولم يبق لبني أمية غير الشام ومصر . فخاف عبد الملك على سلطانه فجند جنداً وقدم الى العراق فحارب مصعباً وقتله سنة ٧١ ﻫ واسترجع العراق . وبعث جنداً الى الحجاز لقتال ابن الزبير فملك المدينة ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفى في جند لفتح مكة فحاصرها وطلب الى عبد الله ان يسلم فأبى . فدخلت سنة ٧٣ وابن الزبير محصور في مكة وقد قل زاده وفارقه رجاله

الفصل الثانى

عزة الميلاء فى المدينة

المدينة ويقال لها يثرب هى مدينة الرسول وفيها قبره ومسجده . وكان يحيط بها سور وخندق وهى واقعة في منبسط من الارض تكتنفها الآجام والغياض . وقد عمرت في صدر الاسلام حتى كانت أيام يزيد بن معاوية فهاجرها كثير من أهلها (١) لكثرة الفتن والحروب فى أيامه ولكنها ما زالت آهلة وفيها أهل البيت وتتخلل أبنيتها البساتين والحدائق وأكثر مغارسها من النخل (٢)

وكان من أهل المدينة في أواسط القرن الاول للهجرة مغنية يقال لها عزة الميلاء وكانت مولاة للانصار . وهي أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز . وقد سميت الميلاء لتمايلها في مشيتها من سمنها . وكان العود

(١) صفوة الاعتبار (٢) مراصد الاطلاع ج ٣

حديث العهد عند العرب فأجادت ضربه حتى ضرب المثل بها . وكانت تحسن الضرب بالمزاهر والمعازف وسائر آلات الطرب وكانت جميلة الوجه ظريفة اللسان كريمة الخلق سخية النفس لا يقدم قادم الى المدينة الا التمس أن يراها ويسمع غناءها

وكان العرب يومئذ لا يعدون الغناء من الصنائع اللائقة بأهل الشرف (١) ولكن عزة كانت مع ذلك ذات دين حسن وهيبة ووقار اذا جلست جلوساً عاماً فكأن الطير على رؤوس أهل مجلسها من تكلم أو تحرك نقر رأسه (٢)

وكانت دار عزة في طرف المدينة من جهة الشمال مما يلي طريق الشام في بستان من النخيل تتخلله أشجار الفاكهة من البرتقال والتفاح ويكتنف البستان والدار سور قليل الارتفاع له باب بمصراع واحد في وسطه خوخة . وفي بعض جوانب البستان عريش مبني من سعف النخل أشبه بقبو طويل تبيت فيه الدواب . والبيت عبارة عن باحة كبيرة يكتنفهـا من الجانبين غرفتان من كل جانب وفي الصدر قاعة واسعة تجلس فيها عزة لمقابلة الزوار وبين يدي باحة الدار نخلات متقاربه تظلل تلك الباحة في اثناء النهار

ففي يوم من أيام ربيع الآخر سنة ٧٣ للهجرة (وهو يوافق شهر اغسطس سنة ٦٩٣ م) (٣) قضت عزة الميلاء نهارها في بيتها وكان يوماً شديد الحر والحر ثقيل هناك نظراً للرطوبة المتكاثفة مما يتصاعد من الابخرة عن المستنقعات والاشجار . فلما دنت الشمس من الغروب دخلت الى مخدعها فاستخرجت قارورة من الطيب فتطيبت وبدلت ثيابها فالتحفت ملاءة معصفرة لونهـا اصفر زاه وكشفت النقاب عن رأسها لشدة الحر مع خلو المكان من الرجال وأرادت أن تتناول عشاءها على سطح البيت تحت السماء .

وكانت يومئذ في نحو الخمسين من عمرها وقد تزايد سمنهـا وذهبت استدارة وجهها وارتخى خداها واستطالا الى اسفل الذقن بما يشبه ذقناً

(١) الاغاني ج ١ (٢) الاغاني ج ١٦ (٣) التقويم العام

ثانياً . وثقل بدنها حتى لم يكن في المدينة دابة تحملها (١) ولا غرابة في سمنها وهي قلما تنتقل من بيتها والناس يفدون عليها لسماع غنائها أو ضرب عودها ويحملون اليها الاموال والهدايا من الحلى والجواهر حتى ملأت معصميها بالاساور والدمالج وملأت عنقها بالعقود وضفرت شعرها بسلاسل الذهب والدنانير وعلقت في أذنيهـا قرطين كبيرين يناسبان حجم أذنيها لانها كانت كبيرتهما مع تناسب التكاسير وكذلك آذان أهل الغناء والموسيقى في الغالب (٢)

وكان الرجل من اهل الوجاهة اذا أراد التزوج بفتاة لا يعرفها استشار عزة بها ووسطها في خطبتها أو استطلاع جمالها وصحتها (٣)

وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ولم تعمل عملا لشدة الحر وعندها فتاة من نزالة المدينة اسمها « سمية » كانت تحبها وتأنس بها وكانت الفتاة ترتاح الى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها في امرها وقد جاءتها يومئذ وعليها ثوب احمر يكسوها كلها . وكانت معتدلة القامة صحيحة الجسم اذا نظرت الى تقاطيع وجهها أفراداً لا ترى جمالا باهراً ولكن في عينيهـا ما يدل على الذكاء والحب وحول ثغرها ابتسامة تأخذ بالعقول حتى كانت وهي في معظم اضطرابها قلما تبدو الكآبة على وجهها وانما تظهر الكآبة عليه بمظهر الهيبة . وفي ذقنها اندفاع قليل الى الامام مع بروز وهو دليل الانعطاف وفي أنفها ذلف قليل يزيدها هيبة . وكانت سمية في نحو الثالثة والعشرين من عمرها

الفصل الثالث

ضواحي المدينة

فلما أرادت عزة الصعود الى السطح أمرت جارية لها أن تفرش عليه البساط وتعد المائدة وأمسكت ضيفتها بيدها وقالت لها وهي كأنها تشاغلها

(١) الاغاني ج ٢لم (٢) ع الفراسة الحديث (٣) الاغاني ج ١٠

عن همومها « هلم بنا الى السطح ياسمية واتركي الهواجس عنك وتعالى لاريك يثرب وضواحيها عن سطح بيتي فانها من أجمل مايكون ولا تعجلي في الذهاب الى بيتكم لان والدك لا أظنه عاد اليه »

فمشت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها وأرادت نسيان مايجول في خاطرها من دواعى الهموم وصعدتا على سلم من خشب كان يهتز كلما نقلت عزة قدماً عليه حتي وصلتا الى السطح والجارية قدأعدت المائدة . فجلست عزة وأجلست سمية الى جانبها وقد لاحظت انها لاتزال مضطربة البال بما في نفسها . فارادت أن تصرف ذهنها الى شيء آخر فلم تر خيراً من أن توجه التفاتها الى مايحيط بالمدينة من بساتين النخيل وما بينها من برك الماء والمستنقعات فقالت لها « التفتي يابنية الى هذه البساتين الواسعة وراء سور المدينة فان نظرك لا يقف في آخرها إلا على التلال البعيدة وخصوصاً على هذا الجبل وهو جبل أحد الذي جرت فيه الواقعة الشهيرة بين النبي صلعم وقريش . وذكر هذه الواقعة يؤلمني لان الغلبة كانت للقرشيين وقتل من المسلمين سبعون رجلا وأصيب النبي بجراح وقتل عمه حمزة » (١)

فقالت سمية « وهل شهدت تلك الواقعة ؟ »

قالت « كلا لأنها حدثت منذ سبعين سنة فكيف أشهدها » ثم عادت عزة الى اتمام كلامها عن تلك المناظر فقالت « واني ليعجبني مناظر المياه حوالى غروب الشمس انظري الى هذه البحيرة فان ماءها ساكن كأنه صفيحة من الفضة اللامعة وظلال النخيل تتراءي على شواطئها مقلوبة كأنها مردة من الجان غائصون في الماء »

وكانت الشمس لما دنت من المغيب قد أرسلت أشعتها منحرفة على تلك المغارس فاستطالت ظلال النخيل وما زالت تستطيل وتضعف حتى اختلطت وصارت عتمة

وأما سمية فكانت تساير عزة في ماتقول وبصرها ثابت فى تلك البحيرة بالرغم عنها والبصر اذا اطلق سراحه يطلب النور . فلما غابت الشمس كان

(١) ابن هشام ج ٢

سطح البحيرة لازال يلمع بانعكاس الشفق عنه اظلال النخيل فيه واضحة وضوح الخطوط السود على الصفيحة البيضاء . وبعد قليل لم يعد يظهر للرائى غير سطوح المياه وما يبدو فيها من ظلال الاشجار وأما اليبس وما عليه فلم يكن يتميز

واشتغلت عزة وسمية عن الطعام والكلام بالتأمل في ذلك المنظر البديع وشغلت آذانهما بنقيق الضفادع يتخلله صياح الادياك في الدار

الفصل الرابع

طويس المغني

تحولت عزة ودعت سمية لمشاركتها في الاكل وجعلت تقطع من لحم الدجاج وتناولها وهي تأكل وعيناها مشتغلتان بتلك المناظر ثم عادت عزة الى محادثتها فقالت لها « مالى أراك صامتة يا سمية هل تفكرين بوالدك وتخافين اذا غبت عنه ينقم عليك لا تخافي فانه اذا علم انك عند عزة لا يعاتبك »

وتوقعت عزة بعد الفراغ من قولها أن تسمع من سمية جوابا فاذا هى لاتزال ثابتة النظر في تلك البحيرة وآنست في وجهها بغتة وقد أبطلت المضغ واللقمة لا تزال في فمها وهي تتفرس في البحيرة وقد قطبت حاجبيها وحددت بصرها فأعادت عزة السؤال عليها . فاجابتها سمية وقد عادت الى المضغ وهي تشير بيدها الى البحيرة وتقول « كأنى أرى النخيل تنتقل في الماء ... ما هذا .. ؟ ماذا أرى ؟ »

فالتفتت عزة وفي يدها لقمة كانت أعدتها لسمية ونظرت في البحيرة فرأت ظلالا تتحرك في الماء بين ظلال النخيل ولكنها لم تر الاشباح على الجرف لان الظلام حجبها ولكن انعكاس الشفق على سطح الماء أبداها فقالت « انك ترين ظل شبح سائر بجانب البحيرة ... » وتفرست عزة قليلا ثم قالت « ان الذي نراه ظل شبحين أظنهما فارسين مارين بين

النخيل على حافة الجرف ... لا بل هما جملان وعليهما رجلان ... أليس كذلك ؟ »

قالت سمية « بلى هما جملان ويخيل لى أنهما ماشيان على سطح الماء من الاسفل »

فضحكت عزة وقالت « انك ترين ظليهما يا بنية .. وأرى الآن شبحاً ثالثاً أظنه جملا ثالثاً » . ولم يمض قليل حتى توارت الاشباح فقالت عزة « لا يشتغل بالك ليس ماترين إلا أناساً أظنهم قادمين إلى المدينة من دمشق وماهذه أول مرة رأيت مثل هذا المنظر ... عودى إلى طعامك فقد برد الهواء وانفثأت حمأة القيظ ومتى فرغنا من الطعام أسمعك صوتاً تلقنته من استاذتي رائقه » [1]

فعادتا الى الاكل وهما لا تتكلمان ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى تكاثف الظلام واحتاجتا الى الضوء . فصفقت عزة فجاء رجل في نحو الستين من عمره والجمال لا يزال بادياً فيه وهو نظيف الثوب حسن الهندام فلما رأته سمية غطت وجهها . فضحكت عزة وقالت « أتحتجبين من مخنث » ولم تكن سمية قد عرفته في الظلام

وكان في المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء المخنثين كانوا يخالطون النساء واكثرهم يحب الغناء ويحسنه ؛ وكان من أراد خطبة امرأة سأل عنها أحد المخنثين فلا يزال يصف ما يعجبه ثم يتوسط بينه وبين من تعجبه منهن حتى يتزوجها . وكان أكثر هؤلاء المخنثين يترددون على عزة ويتقربون اليها بالخدمة والمنادمة ليستفيدوا منها الاصوات

فلما وقف ذلك المخنث بين يديها قالت « ما جاء بك يا طويس ؟ .. »

فلما سمعت سمية اسم طويس قالت « أطويس هذا ؟ »

قالت « هو بعينه .. ولا يصعب عليك أنه جاءنا على حين غفلة فان ذلك دأبه معنا . . . ياطويس قل للجارية تضيء لنا الشموع فاننا ننزل بعد قليل »

---

(١) الاغاني ج ١٦

قال « افعل ذلك على شرط واحد »

قالت « وما هو؟ »

قال « تغنين لى شعراً على الهزج »

قالت « أتطلب أن أغني لك الهزج وأنت أهزج الناس (١) لو سألتني أن أغني من الثقيل أو الرمل لكان خيراً »

قال « لا أبالى أي صوت وانما اقترح عليك شعراً تغنينه »

قالت « أفعل ان شاء الله . ولكني أخاف من وجهك لانك على ما يقال مشئوم »

قال « وأكثر من مشئوم فان أمى كانت تمشي بالتمائم بين نساء الانصار ثم ولدتنى ليلة قبض النبي (صلعم) وفطمت ليلة مات أبو بكر واحتلمت ليلة قتل عمر وزففت الى أهلي ليلة قتل عثمان وولد لى يوم قتل على »

فضحكت عزة لخفة روحه وقالت له « أرجو أن لا يتكامل شؤمك علينا الليلة .. فامض أعزك الله وافعل ما قلته لك »

الفصل الخامس

طارق مجهول

فنزل طويس وبعد قليل نزلت عزة وسمية ودخلتا القاعة التي تستقبل عزة الاضياف فيها . ومشت الى صدرها وهي تتوكأ على أوراكها حتى جلست على مقعد والارض مفروشة بالطنافس وحولها الوسائد وقدأوقدت فيها الشموع . وجلست سمية بجانب عزة وعادت الى هواجسها . وأما طويس فانه تناول دفاً مربعاً كان معلقاً بالحائط في جملة الاعواد والمزاهر والدفوف المعلقة هناك ورماه في حجر عزة

فقالت عزة « ويلك ماذا تريد »

قال « بابي أنت وأمى . . اريد ان أسمع غناءك »

(١) الاغانى ٤

قالت « تمهل ياطويس ريثما استريح »

وفيما هي تكلمه سمعت هدير جمال بقرب باب البستان فقالت « انظر ياطويس من جاءنا الليلة . . اني اخشى أن يكون شؤمك وصل الينا »

قالت سمية « وأي شؤم تخافين ونحن في أمان »

قالت وقد خفضت صوتها « لا أظننا في أمان وأميرنا اليوم يأكل المخ ويأكل فوقه التمر على منبر رسول الله (صلعم) [1] . . . اذهب ياطويس وأخبرنا من القادم »

فهزول طويس الى نعليه وأسرع في لبسهما ومشى وهو يتظاهر بالمجون في مشيته حتى قطع البستان وانتهى الى باب الدار وفتح خوخة الباب وأطل رأسه فرأى جملين بجانبهما رجلان أحدهما طويل وقد تلثم بالكوفية والتف بالعباءة والآخر قصير غير ملثم يشبه أن يكون خادما . فقال لهما « من أنتما وماذا تريدان »

فاجابه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل وقال « أليس هذا بيت عزة الميلاء؟ »

قال « بلى وماذ تريد منها ؟ »

قال « أريد الدخول اليها »

قال « ومن أنت ؟ ألا انتسبت؟ »

قال « لا . . . لا انتسب »

قال « أتريد الدخول وأنت ملثم كما أرى ؟ »

قال « نعم »

قال « دعني استأذن لك » وعاد طويس الى عزة وأخبرها بما رآه .

فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام وقالت لعزة « دعيني انصرف الى ابي فقد طال مكثي عندك اليوم ولا سيما واني أرى رجالا قادمين اليك ولا يليق بي البقاء معهم على هذه الحال »

قالت « لك الخيار فانصرفي يابنية ولا تطيلي الغياب علي . اذهبي

---

(١) ابن الاثير ج ٤

من الطريق القريب الذى تعرفينه واخرجي من الباب الخلفى » فودعتها وانصرفت

فلما انصرفت جعل طويس يشيعها ببصره حتى توارت عنه ثم التفت الى عزة وأشار بضم أنامله وزم شفتيه الى انها جميلة . فاومأت اليه أن يصمت ثم قالت « اخرج الى الطارق واطلب اليه أن يريك وجهه أو يذكر لك اسمه »

فذهب طويس وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة ان صاحبنا من أهل البادية ويهوى الغناء وقد جاء لسماع عزة الميلاء فسألته عن اسمه فأبى أن يخبرني به ولما ألححت عليه قال انه لا يقول اسمه ولكنه يقول لك انه قائل هذين البيتين

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى ان نخونه وانت لاخرى صاحب وخايل

الفصل السادس

ليلى الاخيلية

فلما سمعت عزة قول طويس بغتت وتبسمت ولولا ثقل بدنها لو ثبت الى الباب لاستقبال ذلك الضيف . فقال لها طويس « وما بغتك ياعزة ؟ »

قالت « ألا تعرف قائل هذا الشعر ؟ »

قال « كلا ... ومن هو ؟ »

قالت « لو اني سمعت لفظ قائله لعرفته ولو كان في غير هذا الشعر . . ألم تنتبه انه يلفظ حرف المضارعة مكسوراً مثل أهل بهرا [1] ؟ »

قال « أظنني لحظت ذلك فيه ... واذا كان يكسره ؟ »

قالت « ويلك هذه ليلى الاخيلية الشاعرة وهذا الشعر شعرها وهي تكسر حرف المضارعة في لفظها أيضاً »

(١) الدميري ج ٢

فقال طويس « اذا كانت هذه هي ليلى فقد تم حظنا لاني اسمع بشعرها وحديثها مع توبة بن لحمير الذي كان يهواها .. فهل ادعوها ؟ »

قالت « كيف لا .. وهي صديقتي وينذر أن تنزل المدن الا لحاجة ماسة لأنها من أهل البادية »

فاسرع طويس وهو يهرول في مشيته حتى اتى الباب ففتحه ورحب بليلي وجعل ينظر الى قامتها ويلاحظ مشيتها وهي ملتفة بالعباءة وطولها يندر في النساء . ولكنه لم يتمكن من رؤية وجهها لانها كانت لاتزال ملثمة فدخلت البستان وأشارت إلى خادمها أن يدخل الجملين الى العريش ومشت وهي تخطر في مشيتها وطويس يمشي وراءها ويتأمل قامتها وحسن مشيتها واللثام محيط برأسها ووجهها جميعاً

فلما أقبلت على القاعة نهضت عزة وتقدمت لاستقبالها عند الباب وهي تقول « مرحباً بليلي .. أهلا بك ياحبيبة .. لقد بالغت في الاختفاء حتى أسأنا معاملتك وأخرناك » قالت ذلك وتناولت وسادة عن البساط وثنتها وأجلستها عليها

قالت وصوتها جهوري لا يكاد يشبه أصوات النساء « لا بأس عليك وإن لم يكن ذلك ذنبي لأني كنت أحسبك تعرفينني من صوتي ولهجة كلامي »

وكان طويس واقفاً بالباب يتشوق لرؤية وجه ليلى ولكنها ما زالت ملثمة لاتلتفت الى طويس كأنها تتوقع خروجه ليخلو لها المكان . فادركت عزة مافي نفسها فقالت « لا تحتجبي ياليلى من هذا الرجل فانه من المخنثين وأزيدك تعريفاً به انه طويس المغني »

فضحكت ليلى ونظرت الى طويس وأزاحت اللثام وهي تقول « أهذا هو طويس المشهور بالشؤم ... ؟ لقد تم سرورنا بلقياه »

فلما أزاحت النقاب بان تحته وجه يتدفق هيبة وعينان دعجاوان وثغر حسن[1] وآثار الصحة بادية على وجهها من سكنى البر . فانبهر طويس من

(١) الاغاني ج ١٠

رؤيتها ولما رأى استئناسها به سر وقال وهو يمشي نحو البساط الذي كانت هي جالسة عليه « ان سروري تم بلقياك أيتها الشاعرة البارعة . وقد كنت أعجب لما أسمعه من شغف توبة فيك وما ينشده من الاشعار بذكرك وأنت زوجة سواه ــ فلما رأيت هــذا الوجه علمت السر الذي دعاه الى ذلك »

فلما سمعت ليلى اسم توبة علا وجهها الاحمرار وكأنها خجلت وطأطأت رأسها حياء ثم رفعت بصرها اليه وقالت « وهل سمعت شيئاً من قوله »

قال « سمعت كثيراً ولـكنني اذكر هذه الابيات فقط :

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت ... على ودونى جنـدل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة اوزقى ... اليها صدى من جانب القبر صائح
واغبط من ليلى بمالا أناله ... ألا كل ما قرت به العين صالح

ولم يتم كلامه حتى تبدل لون وجهها بالاصفرار . وأدركت عزة ذلك فيها فاحبت مداعبتها ولـكنها قبل الشروع بالمداعبة دعتها الى الطعام والغسل فقالت انها لا تحتاج الى شيء وانها انما جاءت لزيارتها ساعة لتسمع حديثها وتطرب بغنائها ثم تنصرف

فقالت عزة « ألعلك قادمة من الشام »

قالت « نعم وقد وصلت المدينة الساعة وكان معي رفيق خليته في مكان وجئت اليك على أن أعود اليه عاجلا »

ففطنت عزة للاشباح التى رأتها سمية على شاطىء تلك البحيرة فقالت « أظنني رأيت اشباحكم عند الغروب بين النخيل »

قالت « كنا ثلاثه وصلنا عند الغروب الى ضاحية المدينة على جمالنا »

الفصل السابع

حكاية ليلى مع توبة

فتأكدت عزة أنها هي بعينها فعادت الى العبث بها فقالت « أتحبين توبة ؟ »

فقالت ليلى « لم أفهم معنى سؤالك »

قالت « سؤالى بسيط . اعرف انك تحبين توبة واسمع أنه شاب جميل الخلقة شجاع وانه يحبك . فكيف تزوج سواك وتزوجت أنت سواه ؟ »

فقالت ليلى وقد تغيرت سحنتها وتزايد احمرار وجهها « دعينا يا عزة من هذا الحديث واسمعينا صوتاً يروح النفس وينسينا تعب الطريق »

فلم تشأ عزة ان تلح عليها وعمدت الى الحيلة فقالت « صدقت ان تلك الذكرى تؤلمك . هات الدف يا طويس »

فناولها طويس دفاً فنقرت عزة عليه وغنت :

وكنت اذا ماجئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

على دماء البدن ان كان بعلها يرى لى ذنباً غير اني ازورها

ولم تتم هذين البيتين حتى تململت ليلى وامتقع لونها وقالت « ما هذا الغناء يا عزة انى لا أزال أراك تسأليني عن سبب تركي توبة »

فضحكت عزة وتجاهلت وهي تقول « وما علاقة هذا الشعر بك ؟ . أظن توبة هو الذى قاله فيك ؟ »

قالت « اراك تتجاهلين وأحسبك ما زلت تريدين سماع حديثي مع توبة . فها اني أقصه عليك وان كان ذكره يؤلمني : اعلمي يا اخية ان عاداتنا نحن معاشر البدو غير عادات الحضر أهل المدن امثالكم . فان الرجل منكم اذا أحب فتاة تزوجها : وأحسن ما يكون الزواج على حب . وأما نحن فاذا عرف أهل الفتاة ان شاباً يحبها وتحبه منعوه منها وهكذا وقع لى مع توبة

فانه كان يحبني ويقول في الشعر فخطبني الى أبي فأبى أن يزوجني به وزوجني برجل من بني الادلع هو زوجي الى الآن ولم يكتفوا بذلك ولكنهم هدروا دم توبة ومكثوا له في الموضع الذي كان يلقاني فيه حتى اذا جاءني هموا بقتله . وكنت اذا جاءني قبل ذلك اتبرقع واحتجب منه على عادتنا . ففكرت في طريقة احذره بها من غدرهم بحيث لا يشعرون فلم أرخيراً من أن اغير عادتي معه فلما جاءني في بذلك اليوم خرجت اليه سافرة وجلست في طريقه . فلما رآني على تلك الحال فطن لما اردت وعلم المكيدة فركض فرسه فنجا ونظم في ذلك قصيدته التي مطلعها :

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريرها

« ومنها البيتان اللذان غنيتهما ــ وهي طويلة »

وكانت عزة قد سمعت هذه القصة من قبل ولكنها ارادت ان تسمعها لطويس . فلما فرغت ليلى من حديثها قالت عزة « انى لم أكن اجهل حديثك هذا ولا غيره ولو لا ذلك ما عرفتك من البيتين اللذين بعثت بهما الى دليلا عليك . فبالله الا ذكرت لى سبب قولك ذينك البيتين فانهما يدلان على انفة وعفة تندران في المدن »

قالت « صدقت . . فاعلمي يا عزة ان العفة والحب النقي انما يكونان في أهل البادية وبنو عذرة أهل وادي القرى على مقربة من هذه المدينة مشهورون بهما . ولكن ذلك غير مقصور عليهم وان كان غالباً فيهم . قلت لك ان توبة كان يحبني واحبه ولم أسمع منه ما يدعو الى ريبة ولكني اجتمعت به مرة بعد ان تزوجت وتزوج فقال لى كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الامر فقلت له

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها فليس اليها ماحييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لاخرى صاحب وخليل

« ولم أعد أسمع منه ريبة قط »

فضحك طويس وقهقه حتى كاد يستلقى ثم قال « ما أشبه هذه العفة بعفة مخنثي المدينة والله ان البداوة حلوة ولكني لا أحبها . . »

فقالت له ليلى « اذا شاقك ذلك فعليك بوادي القرى انه قريب منكم وفيه بنو عذرة الذين تضرب بعفتهم الامثال وفيهم جميل بثينة وكثير عزة وغيرها »

فضحكت عزة واكتفت بالرجوع الى الغناء جواباً على ذلك . فعادت الي الدف فطربت ليلى وطرب طويس . ثم استبدلت الدف بالعود فضربت عليه الحانا شجية وكان العود حديث العهد عند العرب يومئذ لأنهم أخذوه عن الفرس بعد الاسلام

وكانت ليلى في اثناء الغناء تطرق وتستغرق في التأمل كأنها تفكر في أمر ذى بال فلما فرغت عزة من غنائها قالت ليلى « لقد اطربتنا ياعزة بغنائك وعندي أمر أحب أن أسره اليك فهل تسمحين بخلوة »

الفصل الثامن

رملة بنت الزبير

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعاً وأغلق الباب وراءه . فلما خلتا جرجرت ليلى نفسها حتى دنت من عزة وجلست بجانبها وقالت لها بصوت يقرب أن يكون همساً « أتعرفين رملة بنت الزبير ؟ »

قالت عزة « كيف لا أعرفها وهي أخت عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرمين وهو محصور في الكعبة الآن »

قالت « هل هو محصور . ؟ ومن حصره ؟ »

قالت عزة « ألا فاعلمى أنه أقام في الحرمين يدعو الناس الى نفسه منذ توفي معاوية وتولى الخلافة ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ . ولم يقو أمره إلا بعد مقتل الحسين وموت يزيد وهو الآن ينكر الخلافة على عبد الملك بن مروان خليفة بني أمية بدمشق »

قالت ليلى « اني أعلم ذلك وأعلم أيضا أن أهل الحجاز بايعوه وان الامويين ينوون قتاله ورده الى بيعتهم »

قالت « ألم تسمعي بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفي من الحجاز بامر عبد الملك لقتال عبد الله في مكة ؟ »

قالت « اظنني سمعت شيئاً من ذلك قبل خروجي من الشام »

قالت عزة « وقد جاء الحجاج وأنت تسمعين بشدة بطشه واستبداده وحاصر عبد الله بن الزبير في مكة وضيق عليه وقد خرجت المدينة من سلطانه وعاملنا الآن من قبل عبد الملك بن مروان »

فاطرقت ليلى وصمتت وكأن خاطراً طرأ عليها فارجعها عما كانت تهم به فادركت عزة فيها ذلك فقالت لها «مالى أراك صامتة ..؟ قولى ما في نفسك»

قالت « جئت المدينة في مهمة تتعلق برملة بنت الزبير ولكن حال اخيها يحول دون الغرض من السؤال عنها .. هل هي معه في مكة .. ؟ »

قالت « نعم هي معه هناك وأظنهم في أشد الضيق من الحصار وقد قل زادهم ولا ندرى مايأول اليه أمرهم »

فتأففت ليلى وتذمرت ثم جعلت تحك وراء اذنها وتنظر الى البساط بين يديها كأنها تتفرس في نقوشه وهى لا تتكلم »

فقالت عزة « قولي يا أخية ما في نفسك فقد اقلقت خاطري بسكوتك ما الذي تريدينه من رملة وأخيها . ؟ »

قالت « لا أخفي عنك ان اميراً من أكبر امراء بني أمية انتدبني للبحث عن رملة واستطلاع احوالها لانه يريد خطبتها فلم أجد من يصف لي جمالها سواك لانك عاشرتها وعرفتها فماذا تقولين ؟ »

قالت « على الخبير وقعت . أما رملة فانها من أحسن النساء خلقاً وعقلا ودراية . ولكنني أعجب لاقدام أمير من بني امية على خطبتها والحرب قائمة بين الامويين وبين اخيها كما تعلمين »

فامسكت ليلى عن الكلام قليلا ثم قالت « أخشى ان اصرح بالاسماء فاكون قد بحت بسر اؤتمنت عليه »

قالت « لاتخافي من ذلك فاني مستودع أسرار اهل المدينة . . . واني أعاهدك على كتمان ما تقولينه »

قالت ان الامير الذي يبغي خطبتها احسن امراء بنى أمية علماً وشعراً وفصاحة وعارضة وله ولع خاص بعلم الـكيمياء وهو ابن خليفة وحفيد خليفة . . » (١)

فقطعت عزة كلامها قائلة « قد عرفته . . انه خالد بن يزيد . . أليس هو . . ؟ »

قالت « هو بعينه فما قولك ؟ . . »

فاطرقت عزة هنيهة ثم قالت « قد ادركت سر الامر وعلمت السبب الذي سوغ لخالد خطبة رملة وهي من أعداء بني أميةوان كان هو أمويا . . »

قالت « اما وقد فهمت سر الامر فاكتميه عن كل أحد . وهذه هدية من خالد بعث بها اليك » قالت ذلك ومدت يدها الى كمها واستخرجت عقداً من اللؤلؤ دفعته اليها . فتناولته عزة وأثنت على فضلها وقالت « هل عولت على خطبة رملة لخالد . . ومن يخطبها له ؟ »

قالت « ليس لى ان اصرح لك باكثر من ذلك . ولـكننى اطلب اليك كتمان ما ذكرته حتى يأتى اجله فيظهر »

فقالت عزة « للسر عندي بئر عميقة طيبي نفساً وقرى عيناً »

ثم تحفزت ليلى للقيام فامسكتها عزة ودعتها للبقاء عندها . فاعتذرت ان بعض الناس ينتظرها في مكان ولا بد لها من موافاته لامر لا يحسن تأجيله فاطاعتها فخرجت فلقيت طويس في البستان فودعته وانطلقت

وكانت ليلي الاخيلية شاعرة بارعة كما تقدم وكانت تفـد على الملوك والامراء تمدحهم وتنال منهم الرعاية والجائزة . وكانت قد وفدت على عبد الملك بن مروان في ذلك العام فامتدحته ثم سارت الى خالد فعهد اليها في البحث عن رملة واستيصافها من عزة . وبعث معها شاباً من خاصته اسمه حسن كان في جملة من جاء مع عبد الملك بن مروانعند عودته من العراق الى الشام بعد مقتل معصب بن الزبير واخراج العراق من سلطة عبد الله بن الزبير

---

(١) الاغاني ج ١٦

وكان حسن في جملة رجال مصعب القائلين بقوله الداعين الى دعوة أخيه في العراق وحارب معه في قتاله المختار بن عبيد الثقفي فابلى بلاء حسناً حتى قتل المختار وخلص العراق لمصعب . فلما جاء عبد الملك لحرب مصعب دافع حسن عنه جهده حتى قتل ابوه ووقع هو في أسر عبد الملك ورافقه الى الشام . فلقي هناك خالداً فاحبه خالد وجعله من بطانته وكان يثق به ويبوح له بما في نفسه على عبد الملك بن مروان لانه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها لانه ابن الخليفة يزيد بن معاوية وبين والدته ووالدة عبد الملك حكاية سيأتي ذكرها

وكان خالد قد سمع برملة بنت الزبير واحب خطبتها . فلما جاءته ليلى سألها عنها فقالت انها لم ترها فكلفها أن تستفهم عنها عزة الميلاء في المدينة وكتب الى اخيها عبد الله بن الزبير يخطبها منه وسلم الكتاب الى حسن وارسله مع ليلى وأوصاه اذا امرته ليلى بالذهاب الى مكة أن يذهب ويدفع الكتاب الى عبد الله بن الزبير ويبذل جهده في اقناعه وكان حسن يحب خالداً حباً شديداً فعزم على أن يبذل ما في وسعه لتنفيذ مرامه وكان لحسن في المدينة وطر يحن الى قضائه قلبه فكان له به دافع آخر للمسير فاسرع مع ليلى حتى وصلا المدينة في مساء ذلك اليوم كما قدمنا فعرج هو الى منزل يمكث فيه ريثما تعود.

أما ليلى فلما عادت من منزل عزة أمرت الخادم أن يذهب بالجمال الى منزل سكينة بنت الحسين على ان توافيه الى هناك وسارت لمقابلة حسن في الملتقى . فلقيته في انتظارها على مثل الجمر فاخبرته بما دار بينها وبين عزة وأوعزت اليه ان يسافر الى مكة بالمهمة التي جاء من اجلها ودعت له بالتوفيق

الفصل التاسع

حسن

فلما خلا حسن بنفسه عاد لما يتقد في قلبه من الوجد . وكان يحب فتاة عرفها منذ أعوام وأنقذها من الموت هي ووالدها في العراق في اثناء محاربتهم المختار بن عبيد وقد عاهدها على الحب وهو يعلم انها تقيم في المدينة ولكنه لا يعرف منزلها ففكر في أمرها طويلا فلم ير خيراً من أن يستطلع عزة فانها أخبر نساء المدينة بنسائها . فسار تواً الى عزة وكانت لا تزال جالسة وقد خرج طويس من عندها فاستغربت قدومه اليها في اواخر الليل

وكان حسن طويل القامة حسن الخلقة وفي وجهه دلائل المروءة وصدق المودة وعيناه تتقدان ذكاء وحدة . فلما اقبل على عزة استقبلته باشة ولم تستهجن قدومه لما تعودته من كثرة الوفود عليها من سائر البلاد

فاعتذر حسن عن جسارته ثم قال « اني قادم اليك في امر اقلقني وحرمني المنام وليس لى من يفرج كربي سواك »

قالت « قل ما بدا لك »

قال « اني احب فتاة من أهل المدينة ولكنني لا أعرف منزلها ولا أدرى هل هي مقيمة هنا أم سافرت الى بلد آخر »

قالت « ما اسمها »

قال « اسمها سمية بنت عرفجة الثقفي »

فبهتت عزة عند سماعها ذلك الاسم وجعلت تتفرس في وجهه كأنها تستطلع حقيقته وقالت « من أين عرفتها وكيف أحببتها وأنت بعيد عن المدينة ؟ »

قال « قولى لى أولا هل هي في المدينة وهل تعرفينها جيداً ؟ »

قالت « أعرفها كما أعرف نفسي وهي مقيمة هنا وكانت عندي في هذا المساء فقل لى من أين تعرفها ؟ »

قال « اني من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معه الى العراق لحاربه المختار بن عبيد الثقفي . وكان المختار هذا بعد قتل الحسين قد قام يدعو الناس الى الاخذ بثأره وتظاهر بمبايعة عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرم الآن . فقتل المختار قتلة الحسين جميعهم بمساعدة التوابين وهم أهل الكوفة الذين خانوا الحسين وأمسكوا عن نصرته فلما قتل ندموا وقاموا يطالبون بدمه »

قالت « نعم اذكر ذلك ولكن المختار هذا كان يدعو الناس الى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من أبيه وليس لعبد الله بن الزبير »

قال « لا بل كان يدعو الى عبد الله في بادىء الرأي فلما فاز في حروبه طمع بالامر لنفسه وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية ولا أشك أن محمداً لم يكلفه بذلك لانه زعم أشياء لا يرضى بها محمد »

قالت « اظنك تعني الكرسي الذي زعم أنه كرسي علي وصار يحمله معه في حربه ويزعم أن جبريل يظهر له ويكلمه » (١)

قال « نعم ذلك اعنى ولكنه لم يفلح لان عبد الله بن الزبير لما سمع بما فعله المختار بعث اليه مصعباً ومعه جند فحاربوه وقتلوه وسمروا يده فى مسجد الكوفة وكنت أنا في جملة رجال مصعب ففي يوم المعركة بعد أن تم لنا النصر وامعنا في رجال المختار قتلا ونهباً لقيت عرفجة والد سمية طريحاً على الارض بين يدي بعض رجالنا وقد هموا بقتله ثم رأيت سمية ابنته (قال ذلك وتنهد) قد خرجت من الخباء وشعرها محلول على كتفيها فوقع بصرها على بصري فلما نظرتها تحرك قلبي نحوها تحركاً غريباً وسمعتها تستنجدني لانقاذ والدها من القتل . فصحت في الرجال فابعدتهم عنه وخلصته وأوصلته الى مأمنه فقبل يدي وشكرني وقال انه لا يقدر على مكافأتي . فقلت لا ألتمس مكافأة منك الا أن تزوجني ابنتك هذه فقال هي جارية بين يديك . فتواعدنا على أن آتي المدينة واتزوجها . وأتممت امر خلاصه فاخرجتهما من الكوفة وبعثت معهما من اوصلهما الى هنا وبقيت أنا هناك وشغلت بامور كثيرة لا محل لذكرها فلم استطع المجيء الا اليوم »

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل العاشر

كشف السر

وكان حسن يتكلم وعزة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحـديث . فلما وصل الى هذا الحد قطعت كلامه قائلة « ألعلك حسن . . ؟ »

قال « نعم . . وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت « عرفته منها .. أبشرك وأهنئك بهذه الفتاة فانها زينـة فتيات المدينة وليس أحد يعرف مكنونات قلبها غيري . وقد طالما ذكرت اسمك لي سراً واطلعتني على خصالك وأثنت على أفضالك . وكن واثقاً أنها لا تزال على ودك ولو جئتنا في هذا المساء لوجدتها هنا »

قال « وهل من سبيل لرؤيتها ولك على ما يرضيك ؟ »

فاطرقت عزة هنيهة ثم قالت « لم يكن على أهون من مرضاتك لولا ان والدها ضنين بها لا يأذن بخروجها من البيت لاي سبب كان وهي اذا جاءتني انما تجيء خلسة وربما أذن والدها بمجيئها الى أحياناً . أما اذا عرف انها جاءت لمثل ما تريده أنت فانه يغضب وربما أساءها وكدرها وقـد يكدرني والرجل ذو نفوذ لدى أمير هذه المدينة فاذا لم يؤذني رأساً وشى بي واتهمني تهماً يكدر على عيشي بها »

فلبث حسن مدة يفكر في امره وقد اقتنع بالمشقة التي تحول دون مجيء سمية لـكنه لعظم شوقه استسهل كل عسير على أنه لم يعد يرى سبيلا للالحاح على عزة باستقدامها فصبر نفسه الى صباح الغيرة اذ يذهب لزيارة والدها وهو يمهد فيه الميل له والرضى به فلما عول على ذلك نهض فودع عزة واستدل منها على بيت عرفجة فدلته ودعت له بالسلامة واعتذرت عن رفضها التماسه فعذرها وخرج الى بيته

وبات حسن تلك الليلة على مثل الجمر وأفاق قبل الفجر وأخذ يتأهب للذهاب الى بيت عرفجة وقد اشتد هيامه وخفق قلبه وجعل يفكر في لقياها

وشق عليه أنه لا يستطيع مخاطبتها بين يدى والدها ولا يقدر على بث شكواه لها . وأشهى ما يلتذ به المحبون التشاكي بعد الفراق . فعلل نفسه بما قد يأتي به القدر من سوانح الفرص وخرج والشمس قد أطلت من وراء المنازل والناس يذهبون ويجيئون في الطرق وهو لا يلتفت الى أحد لعظم ماقام في خاطره من أمر تلك الملاقاة بعد ذلك الغياب الطويل حتى ان صورة سمية كادت تذهب من ذهنه لطول البعاد وتستقر في مكانها صورة أخرى غير صورتها وان كانت تشبهها . وأما عرفجة فلم يكن يذكر إلا صورته ساعة اضطرابه يوم أنقذه من القتل في الكوفة

الفصل الحادي عشر

عرفجة

وظل حسن ماشياً وهو غارق في بحار الهواجس حتى أشرف على بيت عرفجة وهو بالقرب من بيت سكينة بنت الحسين ولكنه أضيق منه وأقل قيمة . ووصل الى باب الدار فرآه مفتوحاً فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم فأطل على باحة تحيط بها ثلاث غرف وفي بعض جوانب الباحة نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء أحمر زاه وليس على رأسها نقاب وقد جلست أمام النخلة وأسندت ظهرها اليها ووجهها الى جانب الدار بحيث لا يقع بصرها على الداخل من الباب . ولم ير حسن من وجهها الا صفحة خدها وجانب عينها وفمها . وحالما وقع بصره عليها علم أنها سمية مع أنه رأى في وجهها تغييراً عما رسم في ذهنه من صورتها ولكن قلبه دله على تزيلته فندم لدخوله بغتة واستحرم أن ينظر اليها أو يدخل بلا استئذان . ولكن الشوق أعمى بصيرته فوقف مبهوتاً وقلبه يخفق وأصبح بين عاملين متضادين الشوق يدفعه الي التملي من رؤيتها والحياء يدعوه الى الرجوع وقرع الباب ثم غلب عليه الحياء وخاف ان يقع نظرها عليه فتخجل وربما اصابها سوء من تأثير البغتة فيقع في الندم فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقة

من الحديد كانت معلقة في خوخته ولبث ينتظر من يدعوه للدخول أو من يأتي لاستقباله . فسمع وهو في الانتظار حركة مشى في الباحة فعلم أن سمية تمشي الى احدى الغرف للاستتار . وظل هو واقفاً مدة فلم يأته أحد فأعاد القرع مثنى وثلاث . وبعد هنيهة سمع وقع أقدام قادمة نحو الباب عرف من شدتها وسرعتها أنها أقدام رجل . ثم جاءه رجل في نحو الخمسين من عمره قصير القامة نحيف البدن يكاد جلده يلصق بعظمه لخفة عضله أشمط شعر اللحية خفيفه وعلى رأسه عمامة صغيرة وعلى كتفيه مطرف التف به وكأن خديه حفرتان ووجنتيه اكمتان وأنفه كتلة بارزة في منتصف وجهه وله عينان غائرتان . ولو أحسن حسن التفرس فيه لتبين من اختلاج أجفانه وعدم تثبيت نظره فيه أنه من أهل الرياء والخبث

فلما وقع نظر حسن على الرجل عرف أنه عرفجة والد خطيبته فهش له وهو يتوقع أن يعرفه ويرحب به . وأما عرفجة فلبث برهة ينظر الى وجه حسن وهو يتجاهله . فلما رأى حسن منه ذلك حمله منه محمل السهو فضحك وتقدم وألقى التحية فرد عرفجة التحية ولم يتغير وجهه بما يدل على بغتة أو استغراب . ولكنه سعل سعلة رجل ينبه أهل بيته الى قادم غريب فقال حسن « أظنك لم تعرفني يا عماه »

فلما سمع عرفجة كلامه ابتسم بغير أن تبدو في سحنته ملامح الابتسام وألقى نفسه عليه وجعل يقبله ويرحب به ويقول « أهلا بك يا بني ياحسن من أين أتيت ؟ » وامسكه بيده ودخل به الى الدار وسار تواً الى غرفة هناك يستقبل بها الزائرين . فاستأنس حسن بذلك الترحاب بعد أن كاد يتميز غيظاً مخافة أن يعود من سفرته بخفي حنين . وابتدره عرفجة بالسؤال عن حاله وعن سبب غيابه وسأله اذا كان في حاجة الى طعام . فاعتذر عن الطعام ولكنه أخبره عن قدومه المدينة للقياه . فجعل عرفجة يتملقه بالكلام اللطيف ليستطلع ما في قلبه . فاستخلصه حسن ففتح له قلبه واطلعه على شدة شوقه لسمية . وكان يخاطبه ويراقب ما يبدو من استحسانه واستهجانه فلم يجد فيه الا انعطافاً وترحاباً . ومما قاله عرفجة ان سمية في خير وانها ما زالت

تذكر فضله عليهما فازداد حسن استئناساً وتوقع أن يدعو سمية لتراه فلم يدعها فظنه أجل ذلك الى ما بعد الاستراحة . واستغرقا في الحديث فى شؤون مختلفة حتى تطرقا الى سبب قدومه المدينة فاخبره حسن انه انما جاء بمهمة من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير . ثم قال « ألم يئن لى أن أبلغ أمنيتي التي وعدت نفسي بها منذ أعوام »

قال عرفجة « وما هي يا بنى »

قال « هي سمية خطيبتي »

قال « هي جاريتك وطوع ارادتك ولكنك تقول إنك ذاهب الى مكة فتى عدت من مهمتك كانت هي لك . وأما الآن فانها ليست هنا وقد ذهبت ومتى عادت اخبرتها بقدومك ولا أشك أنها تسر بلقياك فاذهب الآن في مهمتك ومتى عدت نكتب كتابك وتكون كما تشاء »

الفصل الثاني عشر

القباء الصوف

فتعجب حسن لانكار عرفجة وجود سمية في المنزل ولكنه التمس له عذراً وشكر الله أنه رآها ولو خلسة . على أنه كان وهو يخاطب عرفجة يتوقع أن يسمع خطوات سمية أو يلمح طرف ثوبها وهي مارة أو يسمع كلامها فلم يكن يرى الا بعض الجوارى يخطرن بالدار لقضاء بعض حاجات المنزل

وسكت كلاهما لحظة وكل يفكر في شأنه وشتان بين الفكرين . ثم عاد عرفجة الى الكلام فقال « ومتى عزمت على المسير الى مكة يا بني ؟ »

قال « اني عازم اليها في القريب العاجل وربما خرجت الليلة »

قال « وهذا الذي أراه فان سرعة ذهابك يقرب زمن زواجك فنفرح بك ونتشرف بمصاهرتك »

فسر حسن بما سمعه ولم يفقه لما كان يبدو في عيني عرفجة وفي حركاته

من دلائل الخبث والغدر ـ ولا يعد ذلك سذاجة من حسن وانما هي سلامة القلب وصدق النية وكبر النفس لاترى الانسان غير الطيب . وزد على ذلك أن حسنا لم يأت بين يدي عرفجة إلا مايستوجب الجزاء الحسن ولم يطلب منه إلا ماهو حق له . فلم يخطر في باله أن عرفجة يتردد في اجابة طلبه فاقتنع بسرعة المسير فقال « أرى أن أخرج من المدينة الليلة »

قال « وهل تعرف الطريق ؟ ومن أي باب تخرج ؟ »

قال « نعم يامولاي اني خارج من الباب المطل على قباء »

قال « اجعل خروجك نحو الغروب من الباب المؤدى الى مكة فانه أسهل مسلكا ولكنني أخاف عليك من برد الليل فهل احتطت لذلك ؟ »

قال « عندي عباءة التف بها اذا برد الليل »

قال وهو يبتسم وكأنه اهتدى الى سبيل لتنفيذ مرامه « لا أرى أن تخرج من المدينة وأنت ملتف بعباءة ومن كان مثلك من ذوى الوجاهة لا يليق أن يمر في الاسواق ملتفاً بعباءة فاسمح لى أن أقدم لك قباء يليق بمقامك » قال ذلك وصفق فجاءه غلام فقال « هات القباء الاخضر المعلق في الحجرة »

فعاد الغلام وعلى يديه قباء من صوف فتناوله عرفجة ودفعه اليه وقال له « اليك هذا القباء فالبسه وانت خارج على ناقتك في هذا المساء فانه أوقى لك من البرد »

فتناول القباء وأثنى على فضله وهو لايرى حاجة اليه ولكنه لم ير من اللياقة أن يرده فاخذه وقد ازداد ثقة فيه وفي حسن قصده . ولحظ في حركاته ميلا الى الانصراف فنهض فقبل يده وودعه وخرج وقلبه لايزال في تلك الدار وقد شق عليه أن يخرج منها وهو لم يخاطب حبيبته . ولكنه علل نفسه بساعة اللقاء بعد رجوعه من مكة وسار تواً الى السوق ليبتاع بعض النبال استعداداً للدفاع في أثناء الطريق ولكنه لم يكن يعرف أين يبيعون النبال فرأى غلاما رث الثياب على رأسه قفة يلتقط نوى التمر[1]

(١) الاغاني

ويضعه فيها . وهي أحقر مهن أهل المدينة فان افقر الناس عندهم يشتغل بالتقاط النوى للوقود أو نحوه . فناداه حسن « يا غلام » فقال « لبيك يامولاي » . فقال « ألا تعرف رجلا يبري النبال في هذا الجوار »

قال « أعرف كثيرين وهل تريد النبال المريشة أو التي بلا ريش »

قال « اني أفضل المريش منها »

قال « تعال معي فادلك على أحسن من يبريها في هذه المدينة »

الفصل الثالث عشر

سليمان

فسار حسن في أثره حتى انتهى الى الطرف الآخر من المدينة فاقبل به الى حانوت امامه دكة وفي صدر الحانوت رجل من أهل يثرب بين يديه القسي والنبال وفيها المبري بعضها من الخشب والبعض الآخر من القنا ونحوه . فدفع الى الغلام درهماً وصرفه وتقدم الى الحانوت والقباء على ذراعه فلما رآه الرجل عرف من لباسه أنه من أهل الشام فرحب به وأجلسه على الدكة . فجلس حسن ووضع القباء بجانبه وأخذ يقلب السهام فيها الريش المربع والمثلث وذوالجناح الايمن او الايسر[١] وجعل ينتقي مايريده منها ثم قال للرجل «هل تبيع الجعاب (جمع جعبة)»

قال « كلا يامولاي وانما هي من صنع الجعاب وجاري هذا جعاب يصنع الكنانة والجعبة من الجلد أو من الخشب على اشكال فاذا شئت بعثت اليه فيأتيك باصنافها »

فقال «أنا اذهب اليه بعد الفراغ من انتقاء النبال» ثم انتقى ما احتاج اليه منها ودفع الثمن وسأل الرجل عن حانوت الجعاب ونهض وقد نسي القباء عند النبال وسار والنبال يسير أمامه حتى أوصله الى حانوت أوسع من حانوته فيه جلود وأخشاب وجعاب معلقة . فرجع النبال وتقدم حسن حتى انتهى

(١) ترتيب الدول

الى باب الحانوت . فرأى الجماب يخاطب شاباً يظهر من لباسه أنه من أهل الوجاهة وهو يساومه على جبة أراد ابتياعها فوقف حسن ينتظر فراغ الرجل من تلك البيعة ولكنه حالما وقع بصره على ذلك الشاب استأنس برؤيته وتذكر انه يعرفه . فجعل يتأمله ويتفهم كلامه وهو يستحث ذاكرته لعله يذكره والشاب مشتغل بالمساومة . ثم التفت الشاب الى حسن وحالما وقع بصره عليه بغت وتفرس في سحنته ولم يطل النظر اليه حتى ابتسم وصاح فيه « حسن » فقال حسن للحال « نعم وانت .. سليمان ؟ » قال « نعم » وتعانقا وسلما سلاماً حاراً وجلسا على مقعد من حجر بجانب الحانوت وقد نسيا الجماب وصاحبها فقال سليمان «من أين أنت قادم ياأخي ومتى قدمت ؟ »

قال « انى قادم من دمشق وقد وصلت المدينة فى مساء أمس »

قال « وهل تنوي الاقامة هنا ؟ »

قال « كلا اني عازم على السفر الليلة »

قال « لا لا . . لاتسافر لأني مشتاق الى رؤيتك وقد مضى علي بضع سنوات وأنا أفكر فيك وأتذكر أياماً قضيناها في الكوفة معاً وكانت أياماً سعيدة ولو انها ممزوجة بالحرب والقتل »

قال حسن «لاريب أنها كانت سعيدة عليكم لانكم فزتم بالامر الذي قمتم له وقتلتم قتلة الامام الحسين شر قتلة . . أظنك لاتنسى منظر عبيد الله بن زياد وهو مضرج بدمه في ساحة الحرب »

قال « لا أنسى منظره ولا أقدر على نسيانه فاني أتذكره كلما شممت رائحة المسك لانى حالما فرغنا من الواقعة وقالوا قتل ابن زياد سرت لمشاهدته فما اقبلت على الجثة الا شممت رائحة المسك قوية [1] لانه كان كثير التضمخ بالمسك .. ولكنني لم أفرح بمقتل ابن زياد بمقدار فرحي بمقتل ذلك الابرص الذي قطع رأس الحسين بيده ... »

قال حسن « أظنك تعني شمر بن ذى الجوشن قبحه الله . . »

(١) ابن الاثير ج ٤

قال « هو اعني . . فقد رأيت هـذا الخبيث في معركة أخرى مقتولا وعليه بردة وقد عرفته من بياض برصه »

فقال حسن « انها لذكرى حسنة ولـكننا لا نستطيع الخوض في هذا الموضوع ونحن على قارعة الطريق »

قال سليمان « دعنا نذهب معاً الى مكان نقضي فيه بقية هذا اليوم فاني أحسبه من أسعد أيامى لانه يذكرني بايام النصر وان كنا الآن في.. وقطع كلامه لئلا يسمعه أحد »

ثم نهضا فابتاع حسن جبة وضع النبال فيها وسار وقد شغل بصديقه عن الافتكار بالقباء وهو لم يتعود حمله

الفصل الرابع عشر

المرافقة

وكان سليمان هذا صديقاً لحسن عرفه منذ الصبا . وأقام سليمان مع أبيه في الكوفة في جملة دعاة الحسين . فلما قدم الحسين الكوفة في أهله كان هو وأبوه من جملة الذين تخلفوا عن نصرته . فلما قتل الحسين في سهل كربلاء وقتل أهله معه أصبح سليمان وأبوه من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن نصرة الحسين وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه ولما جاء المختار بن أبي عبيد الثقفي الى الكوفة يدعو الناس الى بيعة عبد الله بن الزبير انضم التوابون في جملتهم فقتلوا قتلة الحسين . ولما طمع المختار بالامر وارسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً لمحاربته وكان حسن مع مصعب فلما غلب مصعب على المختار وقتله تفرقت رجاله فانحاز بعضهم الى مصعب وفى جملتهم سليمان وأبوه وقد ائتلف قلبا حسن وسليمان كثيراً . وكان سليمان يعجب باخلاق حسن . فلما جاء عبد الملك بن مروان وحارب مصعباً بالكوفة وقتله وتفرق رجاله فسار حسن مع مع عبد الملك كما تقدم وجاء سليمان وأبوه الى المدينة فاقاما فيها

فلما تلاقى حسن وسليمان فى المدينة على هذه الصورة لم يصدق سليمان انه لقى صديقه حسناً فانعطف اليه وأحب البقاء معه . فلما مشيا دعاه سليمان الى منزله وقال له « ان أبي يسر بلقياك » فتذكر حسن أبا سليمان فقال « فاتني أن اسأل عن أبيك كيف هو وما الذى يعمله الآن ؟ »

قال « إنه في خدمة طارق بن عمر عامل هذه المدينة من قبل عبدالملك بن مروان »

قال « وهل هو يخدمه عن رضى ؟ »

قال « أراه راضياً بخدمته وكثيراً ما أظهرت عدم رضائي بخدمة هؤلاء القوم الذين قتلوا حسيناً . وكنا في الامس نجرد السيوف عليهم ونطالبهم بدم المقتولين فكيف نخدمهم الآن . . ؟ ولكنني رأيته راضياً فسكت عنه . ولعل له عذراً »

وكانا يتكلمان وهما ماشيان حتى وصلا الى بيت سليمان ولم يكن أبوه في البيت فمكثا هناك وتناولا الغداء معاً وسر كل منهما بلقاء صديقه . فلما كان العصر نهض حسن واعتذر باضطراره الى الذهاب لوداع ليلى الاخيلية في بيت سكينة بنت الحسين وفى باطن سره انه ربما استطاع مشاهدة سميه لان بيتها بجانب بيت سكينة

فامسكه سليمان وتوسل اليه أن يؤجل سفره الى الغد فاعتذر فقال له سليمان « اذا لم يكن بد من سفرك فانى أرافقك في أوائل الطريق لانك اذا خرجت من المدينة عند الغروب لا تسير الليل كله . فاذا رضيت برفقتى فاني أصاحبك الى العقيق فنمكث هناك ساعة أتملى من حديثك ثم نفترق »

قال حسن « كيف أرضى بذلك وفيه راحتى وحسن حظى »

قال « اذا أين نلتقي ؟ »

قال حسن « نلتقى بباب المدينة المؤدى الى مكة ونخرج من هناك معاً »

قال « وهل تعرف الطريق الى الباب ؟ »

قال « نعم اعرفه فانه على مقربة من حانوت النبال الذي اشتريت هذه النبال منه اليوم »

ولما ذكر النبال تذكر القباء فبغت وقال « وقد نسيت عنده القباء وأخاف اذا أردت الذهاب اليه أن تفوت الفرصة لمشاهدة ليلى »

فابتدره سليمان قائلا « دع هذا الي فانا أمر بالنبال وآخذ القباء منه واحفظه لك الى الملتقى »

فشكره حسن وودعه وخرجا فسار كل فى طريقه

الفصل الخامس عشر

سمية ووالدها

لايليق بنا التجاوز الى ما وراء هذا الحد ولا نبسط للقاريء حال سمية وقد دخل حبيبها بيتها بعد غيابه بضع سنوات وقد خرج منه ولم يرها ولا خاطبها · كانت سمية جالسة بالباحة كما قدمنا ولا ندري لما قرع حسن الباب هل دق قلبها وهل حدثتها نفسها ان الطارق حبيبها — أو هي تذمرت من ذلك القادم لانه كدر عليها مقامها في الخلاء فاضطرت عند سماع القرع أن تنزوي فى أقرب الغرف ونفسها لا تزال عالقة بالاطلاع على من هو القارع لانها لم تجد في الدقة مايشبه دقات زوارهم فى ذلك الجوار · وكثيراً ماتدل الدقة على صاحبها ويعلم أهل البيت قدوم صديقهم من قرعة الباب . ثم إن ميل سمية الى استطلاع حقيقة القادم لم يكن عن تطفل أو فضول وانما هو من نتائج التحجب — والانسان انما يتطلع الى مايمنع من الاطلاع عليه . وكان عرفجة من أكثر الآباء تضييقاً على بناتهم في أمر الحجاب . على أن ذلك لم يكن يمنعها عن التطلع الى القادمين من شقوق النوافذ أو ثقوب الابواب

واتفق في ذلك الصباح انه لم يكن فى البيت أحدمن الرجال غيرعرفجة

وكان مشغولا في حجرة خصوصية له لا يدخلها أحد غيره وفيها محفة من خشب مقفلة لا يفتحها سواه . فاذا دخل تلك الحجرة أقفل بابها ولا يدرى أهل البيت ماذا يفعل هناك . فيقضى فيها ساعة أو بعض الساعة ثم يخرج ويقفل الباب وراءه . وكثيراً ما احبت سمية استطلاع أمر تلك المحفة ومشاهدة مافي داخلها فلم توفق الى ذلك . لان المحفة من خشب متين لا منافذ للبصر فيه . فلما قرع حسن الباب كان عرفجة هناك فأبطأ في فتح الباب كما رأيت

فلما فتح الباب ودخل وهو يخاطب حسناً ويرحب به كانت سمية تنظر من ثقب في باب غرفتها يطل على حجرة والدها فوقع بصرها عليه وهو يخلع حذاءه بباب الحجرة وهي أول مرة رأته فيها بعد ذلك الغياب الطويل ولم تكد تتثبته حتى شعرت بهزة قوية وخفق قلبها خفوقاً شديداً ولكنها ظنت نفسها مخطئة فتفرست فيه جيداً فاذا هو حسن بعينه ورأت أباها يخاطبه ويرحب به وقد فهمت ذلك من اشارته وملامحه لانها لم تكن تفهم الكلام لبعد المسافة وخصوصاً بعد ان دخلا واقفلا الباب . ولكنها لم تحرم من جارية تتنصت من جانب تلك الغرفة وتعود اليها بما سمعته . والجوارى اكثر الناس رغبة في نقل الاحاديث وخصوصاً اذا كانت من هذا القبيل . فكانت تلك الجارية تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان او الباحة فتقف هناك بحيث تسمع ما يدور وربما سمعت بعضه فتكمل الحديث من عندها وتعود الى سمية به . فاطلعت سمية بذلك على ما دار بينهما حرفياً . فساءها إباء والدها عليه ان يريه اياها ولو من وراء حجاب ولكنها سرت أنها رأته واطمأن بالها انه لايزال على حبها . ولما اخبرتها الجارية انه جاء يطلبها من أبيها زاد اضطرابها واصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فثنت وسادة كانت بجانبها وجلست عليها وعيناها على شق الباب . على انها مازالت ترجو أن يعود حسن الى طلب رؤيتها فيأذن له والدها لكنها ما لبثت ان علمت انه غير الحديث وعول على الخروج من المدينة في تلك الليلة وعرفجة حبب اليه الاسراع في ذلك واعطاه القباء . واستغربت إلحاحه عليه بأخذ

القباء وهي تعلم بحاله . على ان ذلك اكدها رضاءه عن تلك الخطبة فانبسطت نفسها وتعللت بقرب اللقاء بعد الرجوع من مكة

فلما خرج حسن وتبعه عرفجة لوداعه طارت عيناها شعاعاً الى حسن ولكنه ما لبث ان غاب عن مرسل بصرها من ذلك الثقب . فلما رأت والدها راجعاً خرجت من الغرفة لملاقاته وقد توردت وجنتاها من عظم التأثر وبانت دلائل الحب في وجهها . فلما رآها عرفجة في تلك الحال انقبضت نفسه وتظاهر انه في شاغل عن الحديث معها

أما هي فلم تكن تصبر عن استطلاع افكاره ولكنها امسكت عن الكلام تهيباً لانها كانت تخافه كثيراً وتخشى غضبه وقد قاست منه الامور الصعاب على انها كانت تحسن الظن به فتحولت الى حجرتها وهي منقبضة النفس ودخل عرفجة حجرة أخرى وقد لحظ ما في نفس ابنته ولم يفته اطلاعها على ما دار بينه وبين حسن . فبعث اليها فجاءت وليس في المكان سواهما . فوقفت وقلبها يخفق وهي لا تستطيع التطلع الى ابيها ولا تدرى ما يريد منها . فأشار اليها فجلست على وسادة بالقرب منه وهي تتشاغل باطراف جدائلها المرسلة . وكانت تضفر شعرها عادة في طرة اشتهرت في المدينة يومئذ بالطرة السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين لانها اول من ضفرها على تلك الصورة (١)

لبثت سمية برهة وهي تتشاغل بذلك ووالدها ينظر اليها ويتأمل حركاتها فلم يزدد الا وثوقاً بتعلقها بذلك الشاب وهو لايحب ان يتقرب منه بوجه من الوجوه ولكنه لم يذكر ذلك لسمية صريحاً . على انه كثيراً ما حاول أن يزوجها بسواه فلم تقبل . وكان لما طال غياب حسن عن المدينة ظنته مات أو قتل او انه عدل عنها واشتغل بغيرها . فلمارآه في ذلك الصباح وتحقق أنه مازال حياً بغت واستعاذ بالله ولكنه عمد الى الخبث والرياء فتغلب على عواطفه وبش له واستدناه منه واظهر له ما اظهره من اللطف والانس على أمل أن يفتك به غيلة . فلما رأى سمية في ذلك الاضطراب

(١) القاموس

قال لها « أراك يا سمية مضطربة .. ما الذي دعاك الى هذا الاضطراب ؟ »

قالت وهي لا تزال مطرقة وقد صعد الدم الى وجهها فزاد احمراره « وأى اضطراب تعني »

قال « اعني ما يبدو في وجهك من الاحمرار على أثر الاصفرار وكأنى أسمع دقات قلبك . . . . فماذا هـذا ؟ » قال ذلك بنغمة واطئة رفقاً بها واحتيالا فى استطلاع سرها وقد كان يحب رضاءها ولـكنه لا يريد أن تعمل عملا تستقل به عنه . وكان أهل المدينة يتحدثون بجمال سمية ولطفها وكان والدها يريد أن يتجر بذلك الجمال فيزوجها بعامل أو امير فيكتسب بزواجها منصباً أو مالا . وكانت له مطالب أخرى ترجع كلهـا الى الطمع وحب الاثرة مع خبث الطوية . وحب الاثرة مع سلامة الطوية قلما يضر بالناس إذ ليس في البشر من لا يحب ذاته ويفضلهـا على سائر الناس فاذا صحبها خبث النية وسوء الخلق فانها تكون وبالا على الناس لان محبها لا يبالى بمـا قد يضحيه من الانفس أو الاعراض فى سبيـل نيل اغراضه . وكان عرفجة ذا مطامع كبيرة جداً وكان ذلك شأن كثيرين فى ذلك العهد على أثر تزعزع اركان الخلافة وانقسام الناس وكثرة الدعاة وتعدد الدعوات . فـكان هـذا يدعو الى بيعة عبد الملك وذاك الى بيعة محمد بن الحنفية وذلك الى بيعة عبد الله بن الزبير فضلا عن دعاة آخرين في البـلاد الاخرى . فاصبح الامر فوضى وربما خطر لعرفجة أن يدعو الى أحـد هؤلاء أو غيرهم ولو أتيح له أن يدعو الناس الى نفسه لفعل ولـكنه لم يكن يطمع بذلك وهو من ثقيف وكانوا محتقرين بجانب القرشيين . وكان الحجاج والمختار بن أبي عبيدة ثقفيين أيضاً فلمـا أراد المختار ان يستأثر بالملك تظاهر بالدعوة الى محمد بن الحنفية كما قدمنا

الفصل السادس عشر

الاستبداد

أما سمية فلما سمعت سؤال والدها ولم تر فيه نغمة الجفاء أجابت وهي تكاد تذوب خجلا « أتسألني ياسيدي وأنت أعلم الناس بسبب ذلك »

فقال وهو يغتصب الضحك اغتصاباً « أظنك تحبين هذا الشاب .. »

قالت « لا أقول اني أحبه ولكنني أعلم فضله علينا لانه أنقذنا من الموت . وقد اشترط شرطاً وعدناه به أفلا تقوم بالوعد . . ؟ »

وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر وهي تنظر في وجه والدها لانها اغفلت أمر الحب وطالبته بحق شرعي عليه وكانت تتوقع أن يكون جوابه الاذعان الصريح . ولكنها رأته ابتسم ابتسام الاستخفاف ثم هز رأسه وجعل يده عند أسفل لحيته يلاعب أطراف شعرها بأنامله وهو يقول« ماشاء الله ! .. وأي فضل تعنين ياسمية . . . ؟ »

قالت « ألم ينقذنا هذا الرجل من القتل ونحن في الكوفة . ألم أخرج اليه بحلولة الشعر وأطلب نجاتك فاسرع هو في انقاذك . . ؟ ولا أراك تنكر ذلك عليه الى الآن » قالت ذلك وهي تنظر الى وجهه بطرف عينيها وتتوقع اذعانه فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان الشر في عينيه وكان بيده مفتاح الحجرة فرمى به الى الارض من شدة الغيظ وقال « لا أقدر على هذا سماع الكلام .. ان الذي يدعي علينا مثل هذا الفضل يجب أن يموت»

فلما سمعت سمية ذكر الموت اقشعر بدنها وامتقع لونها ونظرت الى والدها والدموع ملء عينيها كأنها تستعطفه بالحنو الوالدي وهي لا تصدق انه يعني مايقول. ولكنها مالبثت أن رأته نهض وجعل يتمشى في أرض الحجرة ولحيته ترقص أمام عنقه وعيناه محملقتان وأنامله ترتجف . فتهيبت وأطرقت ودموعها تتساقط على ثيابها وهي هادئة لاتحرك ساكناً ولسان حالها يقول « ويلك يا ظالم »

أما هو فبعد أن تمشى هنيهة عاد فوقف أمامها وقال لها «لو كنت تحبين والدك ما رضيت ان يكون لمثل هذا الغلام فضل علينا . كيف نعيش ولهذا الغلام منة علينا .. ؟ وتقولين ذلك جهاراً . ؟ لاشك أنك تحبينه اكثر مما تحبينني »

فقالت والبكاء يخنق صوتها « كيف تقول ذلك يا ابتاه وأنت تعلم قلبي وتعلم اني لا أحب أحداً سواك . وأما هـذا الشاب فان له علينا فضلا لا ينكر - هل نسيت الخطر الذي كنا فيه وكيف أنقذنا وعنى بايصالنا الى هذا المكان . . ؟ وانت الذي وعـدته بي . . . فاذا كنت انا أحبه فانما تكون انت دعوتني الى ذلك و . . . »

فقطع عرفجة كلامها وقال « الى هذا الحد بلغت وقاحتك حتى تقولى لى أنك تحبينه وتعيدي ذكر فضله . . وذكر هذا الفضل وحده يدعوني الى قتله »

فاقشعر بدن سمية واضطربت جوارحها فجثت عند قدمي عرفجة والدمع يتساقط من خديها ويمتزج بالعرق المتصبب من جبينها وقالت « وارحمتاه ياسيدى . . بالله لا تذكر القتل . . دعه لا تقتـله ولا غرض لى به . . فانا لا أخرج عن طاعتك فى أمر من الامور . . لاتذكر القتـل لانه يقطع قلبي . . . افعـل بى ما تشاء فانى طوع لك . . . اشفق على دموعى وارحمني . . . »

فلما سمع تذللها ظنها ارعوت عن محبته فامسكها وانهضها ومسح دموعها بيديه وقال لها « خففي عنك يابنية وكونى حكيمة عاقلة وانبذي أمر هذا الغلام من ذهنك وارجعي الى أبيك واعلمي انى لا أفعل الاما يأول الى سعادتك وراحتك »

قال ذلك واجلسها على الوسادة وجلس هو الى جانبها فاتكأت على صدره فتحقق انها أذعنت لامره واستسلمت له فـلم يعد الى ذكر حسن ولـكنه اغتنم هذه الفرصة وقال لها « يظهر أنك كنت في جهالة عمياء . . والحمد لله أنك فقهت ما أنويه لك . كيف تعيشين مع رجـل تعلمين أنه

ذو فضل على أبيك . . أليس ذلك منتهى الذل والضعف . . ؟ كيف أقدر على حفظ منزلتي بين الناس وفي الدنيا رجل يقول انه أنقذني من الموت . . وله على فضل ؟ ... »

فظلت سمية صامتة مخافة أن يعود والدها الى ذكر القتل أو نحوه ولكنها استغربت اعظامه الاقرار بالفضل لاهله . وقد فاتها ان من الناس من يتعمدون الايقاع بالمحسنين اليهم لان مجرد تصورهم فضلهم يهيج حسدهم حتى يقودهم إلى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة . وأمثال هؤلاء قليلون والحمد لله ـ وكان عرفجة واحداً منهم ولم يحمله على قتل حسن الاسابق فضله عليه ـ وتلك غاية الدناءة والخسة

ولم تر سمية خيراً من السكوت على ما سمعته ورأته ولكن ذلك لم يغير شيئاً من عواطفها بل هي زادت تعلقاً بحسن وتعلق ذهنها بحياته خوفاً عليه من والدها فعولت على السعي في تحذيره . كانت تفكر في ذلك وهي متكئة على صدر والدها وقد بلت قميصه بدموعها فانهضها وقبلها وقال لها « قومي يا سمية وارجعي الى رشدك فاني سأزوجك باعظم رجل يتحدث به المسلمون الآن لتعلمي انى انما اسأتك باقوالى لاحسن اليك بافعالى »

الفصل السابع عشر

المناجاة

فنهضت ومشت وهى صامتة تمسح عينيها بكمها حتى أتت حجرتها فدخلت واقفلت الباب وأوصدته واستلقت على فراشها وقد تمثل لها عظم الارتباك المحيط بها والخطر الذي يهدد خطيبها فأظلمت الدنيا في عينيها فاستغرقت في البكاء واطلقت لدمعها العنان ثم استرجعت وفكرت في أمرها ومركزها بالنظر الى رأى والدها وما تعرضت له من الامر العظيم بسبب حبها لحسن فجعلت تناجي نفسها قائلة « كيف تعلقت بهذا الرجل الغريب وفي تعلقى به خطر على حياتي وحياته . ؟ أليس هذا والدي الذي رباني

وكفلني ولا يريد لى الا الخير والسعادة . كيف أعصاه وأطيع هواي . .
أليس من التعقل لى أن انصاع لوالدى . . ؟ نعم . . لا . . لا . . لا .
حسن حبيبي . ولكن ماذا يَربطني به . . ؟ الحب . . ما معنى الحب . . ؟
ان هذا الحب سبب عذابي وعذاب والدي وعذاب حبيبي . لا . الحب
عذابه عذب . آه ما أحلى الحب وما أشرف عواطف المحبين . . كيف
يعيش الناس بدون الحب وما الفائدة من الحياة بلا محبة ؟ . . اني لا أرى
في العيش لذة الالما أفكر بحسن . . حسن . . آه ما الطف هذا الاسم . .
ولكن كثيراً ما كنت أسمعه قبل ان أعرف الحب فلا ألتذ بلفظه كما ألتذ
الآن . فانا انما أتلذذ بالحب . آه ما أحلاه وما أحلى لفظه بفمي وذكره
بفكري وما أحلى صورته في عينى . ثم مسحت دموعها ولبثت هادئة
برهة وهى تفكر في والدها وقالت « ولكن والدي رباني بعد وفاة أمي
وحده ولم يتزوج من أجلي وهو يحبني ويريد سعادتي فكيف أغضبه . ؟ »

ثم قالت « ولكن والدى خرج في معاملته عن حقوق الوالدية . .
أنكر لهذا الرجل فضلا كبيراً له علينا . بل أراد قتله من أجل ذلك
الفضل . أراد قتله . قتل حسن حبيبي ؟ . ان والدي ظالم والظالم لا
يحبه الله فكيف احبه انا . وحسن شهم واستهلك في سبيل نجاتنا ويكفى
أنه يحبني وأحبه حباً عذرياً نقياً لا عيب فيه . يا الهى ما هذا الحب . ؟
إذا كنت ترى اني أخطيء فيما اقول فانزع حب هذا الشاب من قلبى .
لا . . لا تنزعه . . أو انزعه يا الهي . . أو كما تشاء . . آه لا أرى هذا
كله الا مما يزيدني تعلقا وهياماً . الله هو الذي اراد أن يحب أحدنا الآخر
والحب الذي يكون خالياً من الدنس وغايته شريفة انما هو من عند الله »

قضت سمية ساعة في مثل هذه الهواجس . ثم تذكرت ما سمعته من
تهديد والدها فخافت أن يتمكن من حسن وهوغافل فرأت من واجباتها
بأن توصيه أن يكون من والدها على حذر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا

وحدثتها نفسها ان تفر معه الى مكة ولكن تعقلها وآدابها زجراها عن
ذلك ولكنها أصبحت بعدما لاقت من حبه لا تصبر عن رؤيته لتشكو له

ما في قلبها ويتعاهدا على الاتحاد والصبر . فتذكرت عزمه على الخروج من المدينة في تلك الليلة وعلمت انه خارج حوالى الغروب من الباب المؤدي الى مكة فعزمت على اغتنام الفرصة باشتغال والدها فتخرج نحو الغروب وتقف له في الطريق وتخاطبه

أما عرفجة فقد كان بينه وبين طارق بن عمرو عامل المدينة يومئذ صداقة ودسائس وكان طارق يكرم عرفجة لانه ثقفي من قبيلة الحجاج وكان الحجاج قد أوصاه به خيراً لانه ثقفي فقط ولكن الحجاج قد عرف سمية وطلب الاقتران بها فوعده عرفجة بذلك ولكنه استمهله ريثما يسترضيها ولم يشأ الحجاج أن يحملها أبوها على ذلك بالكره مخافة ان تشكوه الى الخليفة عبد الملك بن مروان فيأمره بالتخلي عنها كما اتفق له مع عبد الله بن جعفر لما خطب الحجاج بنته أم كلثوم على مال كثير ثم أمره عبد الملك مروان بطلاقها . وجلية الخبر ان الحجاج خطب الى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على الفي الف في السر وخمسمائة الف فى العلانية فاجابه الى ذلك وحملها اليه فاقامت عنده ثمانية أشهر ثم خرج عبد الله بن جعفر الى عبد الملك بن مروان وافداً ونزل بدمشق فاتاه الوليد بن عبد الملك (ابن الخليفة) على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد « لكنك أنت لا مرحباً بك ولا أهلا » قال عبد الله « مهلا يا ابن أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك » قال « بلى والله وبشر منها » قال « وفيم ذلك » قال لانك عمدت الى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها على عبد ثقيف يتفخذها » قال «وفي هذا عتبت علي ياابن أخي ؟» قال « نعم » فقال عبد الله « والله ما أحق الناس ان لا يلومني في هذا الا انت وأبوك لان من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي وأنت وأباك منعتماني وفدكما حتى ركبني الدين . أما والله لو ان عبداً حبشياً مجدعا اعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه انما فديت بها رقبتي » فما راجعه الوليد كلمة حتى عطف حنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال له عبد الملك « مالك يا أبا العباس » قال

« انك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ اساء بني عبد مناف » وقص عليه الخبر . فادركت عبد الملك غيرة فكتب الى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل (١) . فخاف اذا فعل مثل ذلك بسمية ان تشكوه الى عبد الملك بواسطة سكينة لعلمه أنها تحب سمية ولها منزلة وكرامة عند عبد الملك

الفصل الثاني عشر

الرسول الى سمية

وأما حسن فانه ودع رفيقه وسار ماشياً وخادمه يقود ناقته وراءه . وتوجه نحو بيت سكينة وقبل ان يصل اشرف على بيت عرفجة وأول ماوقع بصره على نخيله اختلج قلبه في صدره ووقف كأن شيئاً استوقفه بالرغم عنه وتصور انه شاخص الى مكة وهي محصورة فلا يدري متى يعود منها ولا ما يمكن حدوثه في غيابه . وكيف يسافر وهو لم ير سمية . ثم تمثلت له سمية كما رآها في صباح ذلك اليوم قاعدة الى جذع النخلة حاسرة رأسها ولم ير غير جانب وجهها . فلما تصور ذلك زاد هيامه واضطربت جوارحه وظل برهة كأنه فاقد رشده لعظم ما اكتنفه من الهواجس . ولم ينتبه لنفسه حتى خاطبه خادمه . وهو رجل من ثقيف اسمه عبد الله وأصله من الطائف وكان في جملة خدم المختار بن أبي عبيدة في أثناء حربه في العراق فلما قتل المختار سار في جملة الاسرى الى الشام ثم دخل في خدمة حسن عند ماسمع بعزمه الى المدينة رغبة منه في الاقتراب من اهله في الطائف . وكان عبدالله يعرف عرفجة لانه من قبيلته ولم يكن يحترمه ولا يثق باقواله ولكنه لم يكن يعلم بما بين حسن وسمية . فلما رأى سيده واقفاً مبهوتاً استغرب ذلك منه فخاطبه قائلا « ما بال مولاي ؟ هل يفكر في أمر نسيه فاقضيه ؟ »

فانتبه حسن لنفسه واستحى من خادمه ولكنه تذكر للحال ما بين

(١) المستطرف ج ٢

هذا الخادم وعرفجة من رابطة القبيلة فلاح له أن يستخدمه في ذلك لعله يأتي بفائدة فقال له « أتعرف عرفجة يا . . »

فاجاب عبد الله وهو لم يصبر الى اتمام السؤال وقال « كيف لا اعرفه وهو والد سمية »

فلما طرق ذلك الاسم اذن حسن خفق قلبه ولو انتبه عبد الله لوجه سيده لرأى الاضطراب ظاهراً في محياه ولكنه لم يكن يتفرس في وجهه لفرط احترامه له . أما حسن فقال « وهل تعرف سمية ؟ . . وكيف عرفتها ؟ »

فضحك عبد الله وقال « كيف لا اعرفها وهى من قبيلتي »

قال « وهب انها من قبيلتك فهل تعرف كل بنات قبيلتك ؟ »

قال « كلا ولكن سمية مشهورة بجمالها وتعقلها ولطفها وقد اتفق لى انى رأيتها غير مرة يوم كنا في العراق »

فسر حسن بهذه المصادفة وأراد ان يستخدم عبد الله في البحث عن سمية أو مخابرتها فقال « اذاً اسمع ياعبد الله . . اريد منك أن تسير الى سمية في مهمة هل تذهب ؟ »

قال « كيف تأمرني ولا اطيع . . »

قال « ولكن يجب ان تفهم الغرض من تلك المهمة بدون ان اقول شيئاً عنها »

فتبسم عبد الله وأطرق خجلا وقال « لا احتاج الى زيادة ايضاح فان سمية مولاتي وأنت مولاي . . »

فاعجب بلطف تعبيره وقال له « بورك فيك يا عبد الله فاعلم اني قدمت في هذا الصباح الى عرفجة وقضيت معه ساعة ولم اتمكن من مشاهدة سمية لانها كانت مشغولة ونحن الآن سائرون الى مكة ولا ندري متى نعود فهل اخرج من المدينة قبل أن أراها .. ؟ »

قال « كلا بل يجب أن تراها وتخاطبها .. هل اسألها موعداً للقاء ؟ »

قال « لا تستعجل ياعبد الله . فاني أخاف أن يغضب والدها اذا اطلع

على ذلك لأني سمعت بصرامته في تحجبها فلا يليق بي أن أراها خلسة عنه وخصوصا بعد أن خطبتها منه »

فارسل عبد الله بصره الى بيت عرفجة وقال « اذا هي خطيبتك .. ولكن لا بأس من رؤيتها اذا لم يعلم والدها . . اتأذن لي بالدخول الى هذا البيت والاستفهام عن عرفجة فاحتال بايصال موعدك اليها ؟ . . أين تتقابلان ؟ »

فاستعظم حسن الاقدام على هذا الامر ولكن رغبته في رؤية سمية هونت عليه ذلك فقال « أني ذاهب الى منزل سكينة وأنا اعلم ان سمية كثيرة التردد اليه وسكينة تحبها وتحترمها فاذا قلت لها أن توافيني الى هناك الآن يكفى »

قال « سمعاً وطاعة » وتحول والجمل معه وهو يقول « سأحمل اليك الجواب في منزل سكينة ان شاء الله »

الفصل الثامن عشر

اشعب الطماع

أما حسن فمشى حتى وصل منزل سكينة بنت الحسين فرأى بجانب الباب زريبة تربت فيها دوابها ودواب من يقدم اليها من الوفود لان منزلها كان مقصد الشعراء والادباء واهل الوجاهة من قريش وغيرهم (١) وكان حسن قد سمع جعجعة الجمال وجلبة الخدم قبل وصوله الى الدار فلما وصل رأى كثيراً من الدواب وأكثرها للاضياف ورأي بينها جمل ليلى الاخيلية

فلما انتهى الى باب الدار أو هو باب البستان دخل ولم يستأذن لان الناس يدخلون منه الى دار الاضياف ويخرجون بلا استئذان ومشى في باحة كبيرة أشبه ببستان كبير رأى في بعض جوانبه غرفا عديدة في صف

(١) الاغاني ج ١٨

واحد عرف انها دار الاضياف ورأى في صدر البستان بيتاً متقن البناء على بابه الخدم عرف انه مسكن سكينة فتحول الى دار الاضياف لعله يرى ليلى هناك فيقيم معها ريثما تأتي سمية فتكون له وسيلة في مقابلتها فوصل دار الاضياف فوجد الخدم مشتغلين في اعداد الاطعمة من الذبائح ونحوها وقد سره اشتغالهم عنه لكي يتمكن من البحث عن ليلى فطاف الغرف غرفة غرفة فلم يجد أحداً يعرفه فظل ماشيا وهو يسمع ضجة من جهة مسكن سكينة بعضها من الخدم في الخارج والبعض الآخر من الداخل . وكان يتخلل الضجة قهقهة وقوقأة مثل قوقأة الدجاج فمشى الى مكان الضحك فاذا هو في غرفة بجانب باب المسكن وببابها بضعة رجال لم يعرفهم فدنا منهم والقى التحية فردوا السلام وأبصارهم شاخصة الى داخل الغرفة فاطل حسن من فوق أكتافهم فرأى هناك رجلا قصيراً دميما قليل اللحم أزرق اللون أحول البصر أقرع الرأس اثط اللحية وقد جلس القرفصاء على أكمة من التبن الممزوج بالزبل (١) كان يحضن بيضا وهو يقوقيء كما تقوقيء الدجاجة فاستغرب حسن ذلك ونظر الى أحد الوقوف نظرة الاستفهام فاستغرب الرجل نظرته وقال له « ألا تعرف هذا الرجل ؟ »

قال « لا .. ومن هو ؟ »

قال « اشعب الطماع الذى اتخذته سكينة بنت الحسين نديما يمازحها »

قال حسن « اسمع اسمه واعرف بعض اخباره المضحكة ولكن منظره اضحك من اخباره . . ما الذى اقعده هذا المقعد وهو يقوقيء كأنه يحضن بيضا ؟ »

قال الرجل « بل هو يحضن بيضاً حقيقة عقاباً له على ذنب ارتكبه بين يدي سكينة مولاته فأمرته أن يقعد على هذا البيض حتى يفقس (٢) وقد مضى عليه أيام وهو على هذه الحال . . »

فشغل حسن بذلك المنظر عن قلقه في انتظار خادمه وأراد أن يشغل

(١) الاغاني ج ١٤ (٢) الاغاني ج ١٤

نفسه هنيهة أخرى فقال « يا أشعب ما الذي أجلسك هذا المجلس »
قال « اجلستني إياه مولاتي سكينة فهى فيكم من يخيجني من هذا الحبس
أى « اجلستنى إياه مولاتي سكينة فهل فيكم من يخرجنى من هذا الحبس »
لان اشعب كان في لسانه لثغة (١) تتميا لجماله ! !
فقال حسن « ومن ترى يقدر على التوسط لك في هذا الامر »
قال « كاني رأيت ليلي الاخيلية داخلة دار مولاتى اليوم فاذا كانت
هي هنا فلا أرى اقدر منها على التوسط باخراجي من هذا المكان لان
سكينة تحب الشعراء وخصوصاً بنات جنسها »
قال حسن « هان الامر فلك على ان اوسط ليلى في العفو عنك »

الفصل العشرون

مجلس سكينة

ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتاً يناديه فالتفت فرأى خادمه
عبد الله واقفاً على بضع خطوات منه فقال حسن « ما وراءك »
فدنا عبد الله منه وقال « دخلت البيت وسألت عن عرفجة فقيل لى
أنه خرج في الصباح ولم يعد بعد ولا يعرف أحد مقره »
فابتدره حسن قائلا « وسمية ؟ »
فقال « وسألت عن سمية فقالوا لى انها ذهبت الى سكينة من برهة
قصيرة فسررت بذلك وأتيت لاخبرك فهل رأيتها هنا ؟ »
قال « لا لم أرها ولعلها في البيت مع النساء وكيف اصل اليها . . بورك
فيك يا عبد الله فامكث أنت بالباب مع الخدم والجمل معك حتى اخرج أو
احتاج اليك في شيء »
قال « سمعاً وطاعة » وخرج
وعاد حسن وقد شغل عن اشعب ونجاته بالبحث عن سمية ولما تصور

(١) الاغاني ج ١٧

انه سيتمكن من مقابلتها خفق قلبه . فلم ير وسيلة الى ذلك الا ليلى فجاء باب القاعة التي تستقبل سكينة فيها ضيوفها فرأى عليه رجلا واقفاً وقوف الحاجب فقال له حسن « هل في مجلس بنت الحسين احد ؟ »

قال الرجل « ان مجلسها غاص بالناس وفيهم جماعة من الشعراء والشاعرات »

قال « وهل فيهم ليلى الاخيلية؟ »

قال « نعم »

قال « قل لليلى ان حسناً بالباب يدعوك اليه »

فدخل الرجل ثم عاد وليلى معه فلما رأت حسناً رحبت به فمشى بها الى خلوة وقال لها « اني مسافر الليلة وقد جئت لوداعك »

قالت « رافقتك السلامة ووفقك الله في مهمتك »

قال « ولكني اعرض عليك امراً ارجو مساعدتك فيه الآن وهو لا يتعبك »

قالت « وما هو ؟ »

قال « اتعرفين سمية بنت عرفجة »

قالت « نعم أعرفها وقد رأيتها من برهة وجيزة جالسة بجانب سكينة تخاطبها وسكينة تلاطفها لانها تحبها كثيراً . وأنت ما شأنك معها ؟ »

قال « شأني معها شأن الخطيب وخطيبته فهل هي لا تزال هناك ؟ »

قالت « لقد سرني انك خطبتها فانها زينة بنات المدينة . واما الآن فاظنها باقية لأني لم ارها خرجت . وعلى كل حال تعال معي فندخل القاعة فتمكث أنت مع الجلوس من الرجال وادخل انا الى مجلس النساء وراء الستار حيث تقيم سكينة وصاحباتها فابحث عن سمية »

فقطع كلامها وقال « فاتقدم اليك أن تجمعيني بها ساعة لايرانا فيها أحد سواك لأني خطبتها منذ ثلاثة أعوام وجئت المدينة بالامس وها اني خارج الآن ولم أشاهدها او اخاطبها »

قالت « لك علي ذلك »

قال « ولكن فليكن عاجلا لان الغروب قد دنا وانا مسافر عند الغروب »

قالت « ألا تؤجل سفرك الى الغد ؟ »

قال « كنت اود ولكنني وعدت صديقاً لي أن نسير معاً وسيوافيني نحو الغروب الى باب المدينة . فاصنعي معروفاً وعجلي . ثم انى اوصيك باشعب الطماع فانه يحضن بيضاً هنا عقاباً له على ذنب ارتكبه وقد وعدته انى أخاطبك بالتوسط له لدى مولاته سكينة فلا تنسيه »

فضحكت وقالت « قبحه الله ما اكثر مجونه ولكنه وافق سكينة لانها تحب المازحة وقد حكت لي عن سبب حبسه هذه المرة وانها تعودت على معاقبته مثل ذلك العقاب من قبل فانه حضن بيضا مرة حتى فقس وخرجت فراريجه فملأت الدار وسكينة تسميهن بنات أشعب . (١) انى ذاهبة وسأكلمها بشأنه . ولكن تعال معى واجلس مع الجالسين فاذا لقيت سمية أومأت اليك فتخرج »

الفصل الحادي والعشرون

مجلس الشعراء

فدخلت ودخل هو فى أثرها بعد أن خلع نعليه بالباب ووضعهما في ناحية يعرفها . . ثم أطل على القاعة فاذا هي واسعة وقد فرشت ارضها بالطنافس الثمينة وحولها الوسائد المزركشة وفي صدرها ستارة عليها صور أشجار وطيور ملونة جلست خلفها سكينة ونساؤها بحيث ترى ضيوفها ولا يرونها

ورأى في القاعة جماعة قد تصدر منهم خمسة عليهم لباس البدو وجلسوا في صدر القاعة فقال حسن « ومن هؤلاء المتصدرون ؟ »

(١) الاغاني ج ١٤

قالت ليلى « هم الشعراء . . الا تعرف احداً منهم ؟ »

قال « اظنني اعرف احدهم الجالس على الوسادة المثنية فقد عرفته من ضخامة بدنه وعبوسة وجهه وغلظه (١) أليس هو الفرزدق ؟ »

قالت « بلى هو بعينه . الا تعجب من اجتماعه هو وجرير في مجلس واحد مع ما اشتهر بينهما من المهاجاة ؟ »

قال « وأين جرير ؟ »

قالت « هو ذاك الذي قد كف شعره وادهن ومتى تكلم سمعت لكلامه غنة يخرج بها الكلام من انفه كأن فيه نوناً » (٢)

قال «ومن هوذلك الرجل القصيرالدميم العظيمالهامة معاحمراره» (٣)

قالت « هو كثير عزة العاشق المشهور »

قال « اعاذ الله عزة من منظره فانه قبيح . ومن هو ذاك الشاب الجميل الطويل بين المنكبين الحسن البزة (٤) . وكأنه جالس القرفصاء ؟ »

قالت « ذلك هو جميل بثينة احد عشاق بني عذرة . ألا تراه حزيناً ؟ فانه علق بحب بثينة ولما اشتهر حبه لها منعه اهلها منها »

قال « ومن هو ذلك الاسود . ؟ اني لاستغرب منظره ويندر الشعر في السود فمن هو ؟ »

فضحكت وقالت « هو نصيب (٥) الشاعرالفحل . واما سواده فمن امه لانها أمة واما أبوه فمن قضاعة فها قد عرفت الشعراء وستسمع حديثهم وحديث سكينة معهم . اجلس على تلك الوسادة والتفت الىهذه الناحية كل برهة لعلي ابعث اليك بالخروج ؟ »

فدخل وهو يخاف فوات الوقت ولكنه لم ير حيلة فجلس في جملة الجالسين . ولم يكد يستقر به المكان حتى سمع لغطاً من وراء الستار فاستبشر بكلام دار بين ليلى وسكينة أو بينها وبين سمية . ثم رأى جارية وضيئة خرجت وقالت « أيكم الفرزدق »

(١) الاغاني ج ١٩ (٢) الاغاني ج ٧ (٣) الاغاني ج ١١
(٤) الاغانى (٥) الاغاني ج ١

وكان حسن يتوقع أن تناديه فلما سمعها تنادى الفرزدق التفت اليه فرآه يقول « ها أنا ذا »

قالت « أنت القائل

هما دلتاني من ثمانين قامة   كما انحط باز اقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي بالارض قالتا   أحي فيرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الامراس لا يشعروا بنا   وأقلت في اعجاز ليل ابادره »

قال « نعم »

قالت « فما دعاك الى افشاء السر ؟ خذ هذه الالف دينار والحق بأهلك » فاخذها وانصرف . ثم دخلت الجارية على مولاتها وخرجت فقالت « أيكم جرير » قال « ها أنا ذا »

قالت « أنت القائل

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا   حين الزيارة فارجعى بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه   برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا   لوصلت ذاك وكان غير ذمام
اني اواصل من أردت وصاله   بحبال لا صلف ولا لوام »

قال « نعم »

قالت « أو لا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ انت عفيف وفيك ضعف خذ هذه الالف والحق باهلك » فاخذها وانصرف ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت « أيكم كثير » قال كثير « انا »

قالت أنت القائل

واعجبني يا عز منك خلائق   كرام اذا عد الخلائق اربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا   ودفعك أسباب المنى حين يطمع
وانك لا تدرين صبا مطلته   ايشتد ان لاقاك أو يتضرع
وانك ان واصلت علمت بالذي   لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع »

قال « نعم »

قالت « قد مليحت وشكلت خذ هذه الالف واذهب لاهلك » ثم

دخلت وخرجت وقالت « أيكم نصيب » قال نصيب « انا »
قالت « أنت القائل

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النشأ الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها اذا ظلمت فليس لها انتصار »

قال « نعم »

قالت « ربيتنا صغاراً ومدحتنا كباراً خذ هذه الالف دينار والحق باهلك » فاخذها وانصرف ثم دخلت وخرجت فقالت لجميل – مولاتي تقريك السلام وتقول لك « مازلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك

ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة بوادي القرى انى اذا لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

فجعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الالف دينار والحق باهلك[1] » فاخذها وانصرف

وكان حسن ينظر ويسمع ولا يستغرب مثل ذلك المجلس كما قد يستغرب به أهل هذا الزمان لان اهتمام النساء بالشعر والادب وجلوسهن لمثل تلك المطارحة كان شائعاً في تلك الايام ونبغ من النساء شاعرات ماهرات منهن ليلى الاخيلية وغيرها – وانما استغرب حسن اهتمام سكينة على رفعة مقامها بمباحثة الشعراء في ما قالوه ونظموه . على أنه كان يسمع ويرى وهو قلق البال لتأخر ليلى عنه ولم يكن يدرى كيف يستدعيها أو يستعجلها فرأى أن يسمعها صوته فانتحل امراً يجيز له الكلام – ذلك انه رأى على الستار الحاجز بين مجلسى الرجال والنساء صور طيور وأشجار وكانت أمثال هذه الانسجة الملونة كثيرة الشيوع في المدينة للاستار والوسائد والاغطية . ولكن بعضهم كان يحرم استخدامها عملا ببعض الحديث . وكان حسن اول ما وقع نظره على الستار ساعة دخوله الغرفة قد اكبر أمره فرأى له حينئذ مسوغاً للكلام . فلما رأى الجارية فرغت من مخاطبة الشعراء ورأى الشعراء قد خرجوا وهمت هي بالرجوع

(١) الدر المنثور

وقف حتى اقبل عليها وقال « تمهلي يا بنية »

فوقفت والتفتت اليه فقال لها « لقد باحثت هؤلاء الشعراء وافحمتهم فانصرفوا فهل اسألك سؤالا ؟ »

قالت « قل ماتشاء »

قال « أرى على ستاركم صوراً وقد قال رسول الله (صلعم) ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون »

فاشارت الجارية اليه أن يتمهل ودخلت الى سيدتها وحسن ينتظرها . فلما عادت قالت له « وما يضرنا وما نحن من المصورين »

قال « ولكنكم اتخذتم تلك الصور استاراً . ولو كانت تلك صور اشجار فقط لهان أمرها (١) ولكنها صور ذات ارواح وقد قال رسول الله « صلعم » ان الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة » ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتاً جهورياً من وراء الستار يقول « ولكنه « صلعم » قال أيضاً ـ الا رقماً في ثوب ـ » (٢) فعلم حسن انه صوت ليلى فسكت وعادت الجارية الى مكانها . ولبث هو على مثل الجمر لا يدري ماذا يعمل ولا ماذا يقول . والتفت الى الخلاء من نافذة عالية فرأى الشمس قد مالت الى الغروب فازداد قلقه مخافة ان يطول انتظار صاحبه سليمان بباب المدينة

الفصل الثانى والعشرون

الفشل

وفيما هو يفكر في ذلك سمع لغطاً وراء الستار عقبه ضحك كثير وصوت يقول « قد اطلقنا سراحه اذهبي يا بنانة واخرجيه قبحه الله ما اخبثه » فعلم حسن أنه صوت سكينة ولكنه ظنها تريد اخراجه هو فاضطرب . ثم مالبث ان رأى ليلي خارجة وهي تشير اليه ان يتبعها فسار في أثرها حتى خرجا من القاعة فدنت منه وقالت « لا تخف انها لم تأمر باخراجك ولكنها امرته

---

(١) مشكاة المصابيح (٢) البخارى ج ٤

باخراج اشعب الطاع لاني أوصيتها به عملا باشارتك »
فقطع حسن كلامها قائلا « بورك فيك . . أين سمية .. ؟ »
قالت « ليست هنا .. كانت في هذا المجلس وخرجت قبل ان اراك »
فاستعاذ حسن بالله وانقبضت نفسه ثم قال « هل أنت على يقين مما تقولين ؟ »
قالت « بحثت كثيراً وتحققت خروجها فلعلها خرجت الى بيت أبيها لانها لا تستطيع الغياب طويلا عنه »
وهما يتكلمان رأيا اشعب مهرولا وهو في ما وصفناه من قصر القامة وقلة اللحم وقرع الرأس وحول البصر حتى اقبل على حسن وهم به كأنه يريد ان يقبل يده وطفق يقول « جزاك الله عني خيراً فقد انقذتني من عذاب طويل لان البيض لم اكن ارجو أن يفقس قبل بضعة ايام فاطلب اليه تعالى ان يقدرني على مكافأتك . هل استطيع خدمتك في شيء ؟ »
قال حسن « اني لم افعل ما يستحق هـذا الثناء فادع لي أن الاقي ضائعي » ثم التفت الى ليلى كأنه يريد الرجوع الى الموضوع فتنحى اشعب قليلافقال حسن « استودعك الله ياليلى وارجوان اراك في خير » ثم التفت الى اشعب وودعه فقالت ليلى « اتوسل الى الله ان ينصرك في امرك .. »
واحب حسن الاختصار في الكلام للاستعجال في الخروج لعله يلاقي سمية في الطريق أو في البيت أو في مكان آخر . فخرج فلقي خادمه عبدالله في انتظاره ومعه الجمل فركب والشمس قد آذنت بالزوال وبان الشفق فاستحث جمله حتى دنا من حائط عرفجة فاحس بشيء استوقفه بغتة وماهو الا عامل الحب اوقفه بجانب بيت الحبيب . فلم يتمالك ان نادى عبـد الله فوقف عبد الله بين يديه وهو يقول « هل اسأل عن سمية لعلها عادت »
فاستحسن حسن نباهة خادمه وشعوره معه وابتسم ولم يجب فاسرع عبد الله الى البيت ثم عاد وهو يقول « انها لم تعد ياسيدي »
فارتبك حسن في امره وخاف ان تكون سمية باقية في بيت سكينة ولم ترها ليلي او انها رأتها وأخفت امرها لغرض لها .وتكاثرت عليه الهواجس

وتراكمت الظنون ـ والمحب سيء الظن كلما اشتد حبه كثرت هواجسه وزاد سوء ظنه بحبيبه واكثره من قبل الغيرة . فاذا رأى حبيبه يخاطب احداً مهما يكن من شأنه أو مقامه او قرابته تبادر الى ذهنه انه يغازله او يساره في امر. واذا أبطأ عليه الزيارة سبق الى فهمه انه في موعد مع آخر او انه لا يحبه او يحب سواه . وقد يخيل له ان اهل الحبيب كلهم ضده وانهم يمنعونه منه فاذا تخاطبوا همساً او قصروا معه في شأن خيل له انهم يريدون به سوءا او هم ينصبون له احبولة ـ فالمحب كثير الهواجس سيء الظنون

فلا تلم حسناً اذا ساء الظن بليلى وحسبها تآمرت على اخفاء سمية عنه قضى حسن برهة في هذه الهواجس وهو على جمله ثم انتبه فاذا بالظلام يتكاثف وتذكر صديقه سليمان فاجفل وشق عليه تأخره عن الموعد مع ما ابداه الرجل من الرغبة في مرافقته بعد ان بالغ في اكرامه والتقرب منه فاستحث جمله وطلب باب المدينة وقد يئس من مشاهدة سمية وعلل نفسه بلقائها عند رجوعه من مكة

الفصل الثالث والعشرون

اللقاء بغتة

مشى حسن بضع دقائق فاشرف على باب المدينة ومن ورائه المستنقعات والتلال وغابات النخيل وقد بعد عن منازل الناس وهو ساكت . وفيما هو ينظر الى ما وراء الباب اذا هو بشبح وقف له في الطريق وهو ينادي « حسن » فالتفت حسن وقلبه يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على اذنه ولا غرو فانه صوت الحبيب . فلما سمعه امسك زمام جمله ونظر الى الشبح فاذا هو امرأة فحدثه قلبه انها سمية فوثب عن الجمل حتى وقف بين يديها وتنحى عبد الله وقد اخذ بزمام الجمل وتشاغل باصلاح الرجل

اما حسن فانه نادى « سمية ؟ »

قالت « نعم . . ومن هذا الذي معك ؟ »

قال « هو خادم امين لاتخافي منه . . . ما الذي جاء بك الى هـذا المـكان في هذا الليل . . سمية ؟ . . أأنت سمية حقيقة ! . . ما الطف هذا اللقاء ما اسعد هذه الساعة . . سمية . . حبيبتي . . قولي ما بالك ! . . »

فتنهدت واسندت كتفها الى حائط هناك وتشاغلت باصلاح نقابها ولو اسفرت واسعفها النور لرأى حسن وجهها يتدفق حياة وحياء ولادرك آثار الوجل عليه ولـكنها قابلته مقنعة والوقت ليل . على انه لم يكن يطمع منها باكثر من ذلك وقد كفاه انها سعت في ملاقاته وهو دليل الحب الشديد. واول ما تساق اليـه نفس المحب ان يتحقق مبادلة الحب مع حبيبه فاذا تحقق ذلك هان عليه كل شقاء . وما سبب كل ما يشكوه اهـل الغرام من العذاب والشقاء في الحب الا الخوف من حب السوى اوفتور الحبيب ـ فارتاح حسن لما رآه من سعي سمية الى ملاقاته ولـكنه اوجس خيفة من سبب ذلك لعلمه بصرامة والدها وشدة سلطانه عليها فقال لها « اني لا أرى في هذه الدنيا أحداً أسعد مني الآن وقد بذلت الوسع فى سبيل الحصول على هذه المقابلة فلم أفز حتى أتتني السعادة عفواً فالحمد لله ولـكنني أخاف ان يكون لهـذه المخاطرة سبب يسوءك » فتحيرت سمية في ماذا تجيبه وماذا تقول له فلبثت صامتة فازداد حسن قلقاً فقال لها « مابالك قولي . تكلمي ألعلك علمت بذهابي الى مكة فخفت على الخطر هناك »

فلما سمعت لفظ الخطر من فيه اجابته والبكاء يخنق صوتها « نعم أخاف عليك وليس من مكة فقط بل.. » وشرقت بالدمع فانقطع صوتها

فتقطع قلب حسن ومد يده فأمسك اناملها وهي أول مرة قبض بها على تلك الانامل فاقشعر بدنه وأحس بحركة لا يعبر عنها إلا بالمجرى الكهربائي وقال لها « بل ماذا ؟ . قولي ياسمية . يا مالـكة قلبي . هل تخافين علي أحداً في هـذه المدينة أيضاً ؟ . لا تخافي علي بأساً طالما كنت انت لى . قولى انك تحبينني وانك لا تحبين سواي ولا أبالى بعد ذلك اذا كان أهل الارض أعدائي »

قالت « واذا كنت انا عدوتك ؟ »

فحمل منها ذلك محمل المزاح وقال لها « اذا كنت أنت عدوتي فلا غرض لى في الحياة · بالله قولى مافي نفسك . ممن تخافين علي ؟ فاريك دمه مسفوكا ولو كان حوله جيش جرار . قولى »

فتنهدت ومسحت دموعها بطرف نقابها وهي تقول « لا أريد ان أرى دمه مسفوكا »

فتعجب وقال « وماذا اذا . افصحي ياسمية . يامنيتي قولى . ممن تخافين علي فقد نفد صبري وطال تأخري عن الخروج من المدينة ولى صديق ينتظرنى في الخارج . قولى »

قالت « أقول بعد أن التمس منك العذر لانى أعد قولى عقوقاً لا يليق ببنات الناس . ولكنني أسيرة حبك لا أرى لي راحة إلا بك »

فقطع حسن كلامها وقد ادرك ما تريده فقال « قد فهمت ما تريدين . انك تخافين علي من والدك »

قالت « نعم » واستغرقت في البكاء حتى كاد يغمى عليها وكان هو لا يزال ممسكا بيسراها فأمسك بيدها الاخرى وقال لها « ولا هذا يهمني طالما كنت أنت تحبينني . هل تحبينني ياسمية ؟ »

فصعدت الزفرات ولم تجب فعلم أنه جواب الايجاب

فقال « فاذا كنت تحبينني وأنا احبك فمن ذا يحول بيني وبينك ؟ »

وسكت برهة وقد عظم عليه الامر ثم قال « وما الذى دعا والدك الى بغضى والحاق الاذى بي وأنا لم أرتكب لديه منكراً ولا اسأت اليه في شيء ؟ »

قالت « ذنبك انك احسنت اليه . أو لعل ذلك من سوء حظي . مالنا ولهذا ان الوقت لا يأذن بطول الشرح . فأخبرك أن والدي لا يريدك وأخاف ان يسعى في اذيتك وقد علمت ذلك على أثر خروجك من منزلنا ولم أستطع صبراً عن اطلاعك على جلية الخبر لتكون على بصيرة »

قال « اما الحاق الاذى بي فانى لا أخافه باذن الله ولكننى أخاف ان يلحق الاذى بك »

قالت « أما انا فقد اظهرت له الطاعة والرضا ريثما أراك ثم افعل ما تأمرني به »

فاطرق حسن ثم قال « أما انا فانى مغلول اليدين بما اخذته على نفسى من أمر السفر الى مكة عاجلا في مهمة لرجل أحبه وله على فضل كبير. وقد أدعوك للذهاب معي ولكنني سائر الى مكان محاط بالعدو والحرب قائمة فيه فلا أريد تعريضك لهذا الخطر »

فقطعت كلامه قائلة « وكيف تعرض نفسك للخطر. ومكة اليوم في أضيق الحصار وأهلها في ضنك شديد. بالله الا عدلت عن الذهاب. ثم تفعل ما تريد »

قال « أما الذهاب فلا بد منه فامكثي انت هنا واظهرى الطاعة حتى أعود ونرى ما يكون.. ولا أخاف بأساً ولا خطراً طالما كانت سمية لا تحب سواى » ثم سمع جعجعة الجمل فانتبه للوقت وقال لها « كنت أود ان لا نفترق منذ الآن ولكن للضرورة احكاماً. فانى مرسل عبد الله معك الى منزلك لان الليل قد أظلم ولا آمن عليك المسير وحدك. فهل تسيرن الى بيت ابيك ؟ »

قالت « لا ولكنى أعود الى بيت سكينة لان أبي يعلم اني سرت اليها فاذا استبطأنى سأل عنى هناك فاعتذر عن تأخري وذلك خير من أن يراني عائدة الى البيت وحدي في هذا الليل... ولكن كيف أفارقك.. ؟ »

قال « تشددى ياسمية ان سفري هذا لا بد منه ولكنه آخر الاسفار باذن الله ثم نعود ونعيش معاً... »

فلما قال ذلك بكت سمية حتى سمع صوت بكائها فانفطر قلبه وكاد يشاركها بالبكاء لولا أنه أعظم البكاء وهو في موقف الخطر فتجلد وقال لها « لا تبكي يا سمية بل اتكلي على الله واعلمي اني عائد اليك على عجل باذن الله... » قال ذلك ونادى عبد الله وقال له « اوصل سمية الى بيت سكينة والحقني في الطريق المؤدي الى العقيق فانى سابقك الى هناك.. فقد ابطأت على سليمان وأخاف ان يكون قد سبقني أو عاد الى منزله »

الفصل الرابع والعشرون

جعجعة الجمل

فمشت سمية وهى تقول « سر بحراسة المولى نصرك الله على اعدائك وحماك من كل أذية » . وكان حسن يسمع كلامها حتى توارت عنه فركب جمله وساقه الى باب المدينة ولم يكن مقفلا فالتفت يمنة ويسرة فلم ير سليمان

فخرج وهو يمشي الهوينا ويصيخ بسمعه لعله يسمع صوتاً وجعل يحدق بعينيه لعله يرى أحداً فسار والجمل دليله بين تلك المستنقعات . ولكنه لم يسر طويلا حتى سمع جعجعة جمل عن بعد فجعجع جمله فاستوقفه وأصاخ بسمعه وحول الزمام الى جهة الصوت وساق الجمل سوقاً بطيئاً فمشى به بين النخيل والظلام سادل ستاره والسكوت سائد لا يسمع فيه صوت . وكأن الجمل تهيب لذلك الهدو فسكت أيضاًفلم يكن يسمع غير وقع خفافه على العشب أو الطين

وبعد قليل سمع حسن صوت بكاء وأنين فوقف وأصغى فسمع صوتاً عميقاً وعرف جهته وخاف اذا سار بالجمل أن يجعجع الجمل فيشوش الصوت فترجل عنه وعقله وشده الى نخلة ومشى على قدميه وهو يتلمس الارض مخافة أن يخوض في الاوحال حتى تحول عن الطريق الاصلي الى ساحة لا نخيل فيها ولا عشب فرأى جملا معقولا وشبحاً متوسداً الى جانبه وفوق رأس الشبح شبح آخر يبكي وينتحب . فاختبأ حسن في منعطف بحيث يرى ويسمع ولا يراه أحد فسمع صوتاً يقول « يا لتعاستي وشقائي . . لقد فتكت بك يا ولدي وفلذة كبدي . . أظنني استوجب هذا القصاص واما أنت فما ذنبك ..؟ تباً لي ما اتعس حظي . ولدي حبيبي كلمني يا سليمان . سليمان . . سليمان . . »

فلما سمع حسن ذكر سليمان علم أنه صديقه فاقشعر بدنه لئلا يكون

قد اصابه سوء بسببه فنهض ومشي ويده على قبضة سيفه حتى اقبل على الشبحين ولم ينتبه له أحد

ثم سمع الشبح الراقد يقول بصوت ضعيف « لا تحزن يا أبي فقد ذهبت فداء صديق لى هو احق بالحياة منى »

فقال الآخر « اظنك ذهبت بذنب هذا الشقى لانه لم يف لله عهده .. عاهدت الله على النصر للحسين والمقاتلة في سبيله وجعلت نفسي في عداد التوابين ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة . وكثيراً ما رأيتك غير راض بذلك مني وأنا لا اصغي لك حتى ضربنى الله هذه الضربة على قلبي . . »

فتحقق حسن ان الراقد سليمان وانه في ضيق فلم يتمالك عن الصياح « سليمان .. »

فاجفل الرجل الجالس وحسب الجن تخاطبه فوقف للحال وقال « أنسى أنت أم جنى . . ؟ » وكان الرجل كهلا فى نحو الستين من عمره والشيب قد جلل رأسه وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية صغير العمامة ــ ولم يتم الرجل سؤاله حتى كان حسن بين يديه وقد أكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقه القباء وقد تلطخ بالدم فتفرس في عينيه فاذا هو يفتحهما فتحاً ضعيفاً ويتألم فامسكه حسن بيده وقال له « سليمان أخى سليمان . . »

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على أذني ذلك الجريح ففتح عينيه وصاح « حسن حبيبي حسن . أشكر الله اني تحملت الموت عنك »

ولم يقل سليمان ذلك حتى تقدم الرجل الآخر ونادى « حسن . انت حسن . . يالله ماهذه المصيبة التى وقعت بها من أجلك ولكن الذنب ليس ذنبك وانما هو ذنبى أنا الشقى التعس »

الفصل الخامس والعشرون

العلاج

فعلم حسن للحال أن الكهل والد سليمان وأدرك انه كان يترصده فأصاب سليمان خطأ فاهتم حسن أولا في حياة سليمان فحاول اقعاده وقال لابيه « الى بالماء » فجاءه بشيء منه من مستنقع قريب فرش سليمان به وغسل مكان الجرح في أعلى الصدر وكان قد أصيب بنبلة استخرجها أبوه له وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معاشرة خالد بن يزيد الاموى في دمشق لان خالداً كان شديد التعلق بالعلوم الطبية حتى فاق بها سائر قريش وكان بصيراً بصنعة الكيمياء والطب متقنا لها والف بذلك الكتب والرسائل وقد أخذ العلم عن راهب اسمه يانس [١] ولم يكن مجلس خالد في دمشق يخلو من أهل العلم فكان حسن يجالسهم ويسمع اقوالهم فاستفاد بعض الفائدة ـ فلما غسل جرح سليمان ضغط على الجرح وأمر أبا سليمان بايقاد النار فاوقدها بالزناد حتى تكون الرماد فأخذ بعضه وذره فوق الجرح وربطه

ثم سأل عن ماء للشرب فقال الرجل « ليس معي قربة »

فقال حسن « اسند ظهره لآتيك ببعض الماء من قربتي » قال ذلك ونهض ثم تحول نحو النخلة التي عقل جمله عندها فلم يجد الجمل هناك فطار صوابه لان كتاب خالد بن يزيد في جيب الرحل فوق الجمل خبأه هناك حرصاً عليه من راصد أو واش فضلا عن ان الجمل عزيز عنده وعليه عدته وثيابه والماء وكل شيء . فلما افتقده على تلك الصورة بغت ولكنه لم يضع فرصة فنظر في آثار الجمل فوجد العقال محلولا حلا لا يدل على عنف فتبادر الى ذهنه انه لم يعقله عقلا متيناً فانحل العقال وأطلق سراح الجمل

---

١ ابن خلكان ج ١

ففر . فجعل يفكر في الطريق الذى يمكن للجمل أن يسير فيه فلاح له انه يطلب المرعى

فمشى حسن يطلب الجمل وقلبه مضطرب وهو خائف لانه غريب في تلك البلاد وبعد مسير برهة وقف ونظر الى ماحوله من الغياض والبساتين والظلام حالك فتبين له ظل يتراءى بين النخيل أمامه فتفرس جيدا وأصغى بسمعه فسمع شخير جمل فطلب المكان فرأى ذلك الشبح يتباعد عنه فسار في أثره وهو يتعثر بالاعشاب والاحجار ونظره شاخص الى جهة الشبح لايبالى هل هو يسير على شوك أو يخوض في بحر لفرط قلقه ولو اتيح له أن يرى وجهه بمرآة في تلك الساعة لرأى عينيه محملقتين متسعتين وحاجبيه مرتفعين حتى تغضنت جبهته كأنه يريد أن يلتقم ذلك الشبح بعينيه . وما زال يمشي والشبح يمشى أمامه حتى خرجا من بين النخيل الى الفلاة فتفرس حسن بالشبح من وراء الافق فاذا هو جمله بعينيه فسار فى أثره وكأن الجمل أجفل من شيء فجعل سيره طرادا وقد مد عنقه وبسط قوائمه ورفع ذيله وحسن يتبعه على غير هدى من الطريق ويناديه بكل أدوات الزجر والجمل لايزداد إلا هروبا حتى توارى عن بصره وراء بعض التلال . فظل حسن سائراً بقوة الاستمرار مدفوعاً برغبته في القبض على الجمل حرصا على ما يحمله من الادوات الثمينة

الفصل السادس والعشرون

وادى القرى

وفيما هو يركض ويلهث اذا هو بشيخ يمشى وعليه لباس الرعاة عاري الرأس وقد غرس عصاه في قفا طوقه وعليه عباءة قصيرة وخشونة البداوة بادية في وجهه مع شدة الظلام . فناداه حسن « يا أخا العرب هل رأيت بعيراً راكضاً من هنا . ؟ »

وما أتم حسن سؤاله حتى أسرع الرجل اليه وأمسكه بذارعه وضغط

عليها وأشار بيده على فمه أن « اسكت وانتظر » فالتفت حسن الى ماحوله فرأى شجرة كبيرة على اكمة والشيخ ينظر الى الشجرة ورأى هناك ظلا يتحرك فقال له حسن « ما شأنك ؟.. اخبرني »

قال « لقد اتفق لى حادث غريب في هذا اليوم مع رجل التقيت به ولم أعرفه فاذا أصغيت لى قصصت الخبر عليك على عجل ثم نذهب ونستطلع بقيته معاً عند تلك الشجرة »

قال حسن « ولكن أخبرني قبل كل شيء هل رأيت جملا راكضاً من هنا ؟ .. »

قال « نعم رأيته وأظنه طلب هذا الوادى ولا تخف عليه فاني ضامن استرجاعه لاني أعرف رجال هذا الحى وهم يعرفونني والابل لاتزال سارحة هناك ولا خوف عليها باذن الله »

قال حسن « وأي واد هو ؟ .. »

قال « هو وادي القرى »

قال حسن « أليس هو مقام بنى عذرة المعروفين بشدة عشقهم وعفتهم »(١)

قال « بلى هو هو بعينه .. والحادث الذي جرى لى اليوم يكشف لنا عن حقيقة ما نسمعه عن هؤلاء أعرني سمعك لاقص عليك الخبر .. »

فمال حسن الى سماع الحديث وأهل الغرام يميلون الى حوادث الغرام فقال الرجل :

« قضيت في هذه الاودية معظم فصل الربيع وانا ارعى ابلى فجاءنى في أصيل هذا اليوم رجل طويل القامة منطو على رجله كأنه جان فسلم علي ثم قال « ممن انت ياعبد الله » فقلت « احد بني حنظلة » قال « فانتسب » فانتسبت حتى بلغت الى فخذي الذي أنا منه . ثم سألني عن بنى عذرة اين نزلوا فقلت له « هل ترى ذلك السفح فقد نزلوا من ورائه » قال « يا أخا بني حنظلة هل لك في خير تصطنعه الى فوالله لو اعطيتني ما اصبحت تسوق

(١) الاغاني

من هذه الابل ما كنت بأشكر مني لك عليه » فقلت « نعم ومن انت اولا » قال « لا تسألني من انا ولا اخبرك غير اني رجل بيني وبين هؤلاء القوم مايكون بين بني العم فان رأيت ان تأتيهم فانك تجد القوم في مجلسهم فتنشدهم — بكرة أدماء تجر خفيها عقلاء من السمة — فان ذكروا لك شيئاً فذاك والا استأذنهم في البيوت وقل ان المرأة والصبي قد يريان مالا ترى الرجال . فاذا اذنوا لك ادخل بين البيوت وانشد اهلها حتى لا تدع احداً تصيبه عينك ولا بيتاً من بيوتهم الا أنشدت ذلك فيه » — قال الشيخ — فأتيت القوم فاذا هم على جزور يقتسمونها فسلمت وانتسبت لهم ونشدتهم ضالتي . فلم يذكروا لي شيئاً فاستأذنتهم في البيوت وقلت ان الصبي والمرأة يريان مالا ترى الرجال . فاذنوا . فأتيت اقصاها بيتاً ثم استقريتها بيتاً بيتاً انشدهم فلا يذكرون شيئاً . حتى اذا انتصف النهار وآذاني حر الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لانصرف حانت مني التفاتة فاذا بثلاثة ابيات فقلت في نفسي « ما عند هؤلاء الا ما عند غيرهم » ثم قلت لنفسي « سوأة . . وثق بي رجل وزعم ان حاجته تعدل كل مالي ثم آتيه فأقول عجزت عن ثلاثة ابيات ؟ » فانصرفت عامداً الى اعظمها بيتاً فاذا هو قد أرخى مؤخره ومقدمه فسلمت فردوا علي السلام . وذكرت ضالتي فقالت جارية منهم « عبد الله قد اصبت ضالتك وما اظنك الا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب » قلت «اجل» قالت «ادخل» فدخلت فأتتني بصفحة فيها تمر من هجر وقدح فيه لبن والصفحة مصرية مفضضة والقدح لم أر اناء قط أحسن منه . فقالت « دونك » فأكلت التمر وشربت من اللبن حتى رويت . فقلت « يا أمة الله والله ما اتيت اكرم منك ولا احق بالفضل فهل ذكرت من ضالتي شيئاً » فقالت « هل ترى هذه الشجرة فوق الشرف » قلت « نعم » قالت فان الشمس غربت أمس وهي تطيف حولها ثم حال الليل بيني وبينها » فظننني فهمت مرادها فقمت وجزيتها الخير وقلت « والله لقد تغديت ورويت » فخرجت وأتيت هذه الشجرة فأطفت بها فوالله ما رأيت أثراً فأتيت صاحبي فاذا هو متشح في

الابل بكسائه ورافع عقيرته يغني قلت « السلام عليك » قال « وعليك السلام ما وراءك ؟ » قلت « ما ورائي من شيء » قال « لا عليك فاخبرني بما فعلت » فقصصت عليه القصة حتى انتهيت الى ذكر المرأة وأخبرته بالذي صنعت فقال « قد أصبت طلبتك » فعجبت من قوله وأنا لم أجد شيئاً

ثم سألني عن صفة الاناءين والصفحة والقدح فوصفتها له فتنفس الصعداء وقال « قد اصبت طلبتك ويحك » ثم ذكرت له الشجرة وانها تطيف بها فقال « حسبك » ففهمت انها ضربت له موعداً للقاء عند هذه الشجرة بعد الغروب . فمكث حتى أوت ابلي الى مباركها ودعوته الى العشاء فلم يدن منه وجلس مني بمزجر الكلب . فلما ظن انى قد نمت رمقته فقام الى عيبة له فاستخرج منها بردين فاتزر بأحدهما وتردى بالآخر ثم انطلق عامداً نحو الشجرة [1] وهو الذى يراه جالساً هناك بقرب جذع الشجرة وسنرى ما يكون من اجتماع الحبيبين . . » انتهى كلام الشيخ

الفصل السابع والعشرون

الهوى العذري

ثم امسك حسناً بيده وشده نحو الارض وجلس الرجل بين شجيرات وأشار اليه بدون ان يتكلم فرأى شبحاً صاعداً من الوادي وعليه لباس النساء ومعه شبح آخر . فقال الراعى «هذه هي الفتاة قادمة ومعها خادمتها ثم واختف لنرى ما يكون »

فانبطحا وسحفا حتى اقتربا من الشجرة واختفيا في مكان بحيث يريان الاثنين ويسمعان ما يدور بينهما

وأول ما وصلت الفتاة الى الملتقى كان الشاب في انتظارها على مثل الجمر فلو كانت الليلة مقمرة أو كان الوقت نهاراً لظهر على وجه الشاب ملامح

(١) الاغاني جزء ٢

لا يخلو وجه العاشق منها ولو كان على غير موعد من الحبيب . فكيف وهو على مثل ذلك الموعد . فاقبلت الفتاة وحدها فوقف لها الشاب وتقدم للقائها وهو يحسب نفسه في خلاء وظلمـاء وقد كان قلب حسن في اثنـاء ذلك يضرب ضربات متسارعة مخافة أن يرى من الحبيبين ما يخجله أو يهيج غيرته فندم على اصغائه للشيخ الراعي لما في ذلك من اختلاس اسرار الناس وهو أمر منكر . على انه أحس بميل شديد لاستطلاع ما يدور بين هـذين — واستطلاع مثل هذه الاسرار مما تتوق اليه النفس . والميل الى ذلك عام في الناس على اختلاف طبقاتهم وان تفاوتوا في احترام تلك الاسرار والاغضاء عن استطلاعها عملا بالآداب العامة

وملتقى الحبيبين على هـذه الصورة تميل النفس الى رؤيته وخصوصاً عند أهل الغرام فلاعجب اذا اختلج قلب حسن واصطـكت ركبتاه واقشعر بدنه ولم يكن سبب ذلك التأثر الا توقعه امراً يخاف ان يراه ولا يريد ان يفوته . ولـكنه ما لبث ان رأى الرجل واقفاً لرد التحية حتى عرف من طول قامته وغنة صوته أنه جميل الذي رآه في اصيل ذلك اليوم في مجلس سكينة . فتحقق حسن حينئذ ان الفتاة معشوقته بثينة لانه كثيراً ما كان يسمع بما بينهما من احاديث الغرام وكيف منعه اهلها منها وهو لا يزال يحبها حباً مفرطاً وهي تحبه وكان حسن من الجهة الاخرى يسمع بحب بني عذرة وعفافهم ولـكنه لم يكن يصدق ان مثل ذلك الملتقى في ذلك الخلاء على غفلة من الرقباء يقتصر بين ذينك الحبيبين على القاء التحية

وكانت الفتاة مقنعة فجلست على حجر وجلس جميل على حجر لا يمس ثوبه ثوبها ولا يده يدها — جلسا متقابلين ينظر احدهما الآخر ولا يفوه بكلمة خارجة عن حدود المعاتبة والتشاكي لا يقولان فحشاً ولا هجراً . فاستغرب حسن ما رآه من العفة الصادقة ثم سمع الفتاة تنادي خادمتها وكانت الخادمة في مختبإ بعيد عنهما . فجاءت وهي تحمل قصعة من الطعام فجلسا يأكلان ويتحادثان فلما فرغا من الطعام قالت بثينة « بلغني أنك نظمت فيّ أشعاراً فهل تحبني ياجميل ؟ »

قال « لا ادري في لغة البشر لفظاً يعبر عما في قلبي نحوك . فانه أعظم من الحب واشد من الغرام وارقى من العبادة لا أدري ما هو يا بثينة فاذا اكتفيت بتسميته حباً فاني لا أراه يؤدي ما في قلبي »

قالت « وكيف اذاً ؟ »

قال « لا أدري يا حبيبتي . . لاأدري كيف هو ولا ما هو » ثم صعد الزفرات وقال « وانما أعلم انك نصب عيني اينما سرت وحيثما جلست وكيفما نظرت . . ان بثينة أمام عيني أراها جسماً واضحاً وما عداها من الناس أراهم أشباحاً او ظلالا . ولم يذكر اسمها بين يدي إلااضطربت جوارحي واقشعر بدني وخفق قلبي ولا أرى لي راحة الا بالبكاء كأن الشوق نار والدمع ماء يطفئه ـ حتى قالت

خليلي فيما عشتما هـل رأيتما   قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

الفصل الثامن والعشرون

جميل وبثينة

فقالت بثينة « اذا كنت انت كذلك فكيف انا . . ولكن جنس النساء محكوم عليه بالتعب والشقاء فلا تقدر الواحدة منا على بث شكواها الى أحد لئلا يثلم عرضها . وأما انتم معشر الرجال فلكم الحرية في ذلك . وأنت تزعم أنك تحبني حباً تقول انك لاتدرى مقداره ـ فمن بلغ حبه الى هذا الحد كيف يهجر حبيبه ولا يسأل عنه . ثم انى لا أعلم ماتسمعه وتقوله في أثناء الغياب الطويل . ولا أدري أين موقع بثينة مما يقع بصرك عليه من الناس » قالت ذلك بنغم الدلال فازداد جميل هياما وقال لها :

اني لاحفظ غيبكم ويسرني   اذ تذكرين بصالح أن تذكري

ويكون يوم لاأرىلك مرسلا   أو انتقى فيه على كاشـهر

ياليتني القى المنيـة بغتـة   ان كان يوم لقائكم لم يقـدر

لاتحسبي اني هجرتك طائعاً   حدث لعمرك رائع ان تهجري

يهواك ما عشت الفؤاد وان امت   يتبع صداى صداك بين الاقبر

فما تمالكت بثينة عند سماعها قوله وقد غصت بريقها ثم قالت « وهل أنت ناظم هذين البيتين ؟ . . »

ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة   بوادي القرى اني اذا لسعيد
وهل القين فرداً بثينة مرة   تجود لنا من ودها ونجود »

قال « نعم »

قالت « وما الذى ترجو أن نجود به ونحن بنو عذرة ؟ »

قال « لا اطمع منك بغير الحديث والنظر ولو كان من وراء نقاب . على حد قول القائل :

لا والذي تسجد الجباه له   مالى بما تحت ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها   ماكان الا الحديث والنظر » (١)

فاطرقت بثينة خجلا ثم قالت « ذلك عهدنا بجميل ولولا ذلك ما رأيتني أسعى اليك وحدى »

فلا تسل عن استغراب حسن والراعى ما رأياه حتى احتقر حسن نفسه لانه لم يكن يظن اذا التقى بسمية انه يستطيع ما استطاعه جميل

قضى جميل وبثينة ساعة في مثل ذلك ثم نهضت هى فودعته أحسن وداع فودعها مثل وداعها وانصرف كل منهما الى ناحية وكل منهما يمشي خطوة ثم يلتفت الى صاحبه (٢)

فلما تواريا نهض حسن من بين الاعشاب وهو ذاهل وقال للرجل « لقد شاهدت منظراً طالما تاقت نفسي لمشاهدته . . انه منظر يخجل منه كل ضعيف النفس دنىء الطبع . . ان العفة يا أخا العرب ما في الفضائل خير منها »

فقال الشيخ وهو ينقر بعصاه على عباته لنفض التراب عنها « كيف لا وقد سمعت ابن عباس رضى الله عنه يقول قال رسول الله (صلعم) « من عشق فعف فمات فهو شهيد » وقال أيضاً « عفوا تعف نساءكم » (٣)

---

(١) المستطرف ج ٢   (٢) الاغاني ج ٢   (٣) المستطرف ج ٢

فقال حسن « صدق رسول الله ولذلك فان بني عذرة كلهم شهداء فقد بلغني مثل ذلك عن كثير من عشاقهم ولكنني لم أصدق حتى رأيت ذلك رأى العين »

ثم انتبه حسن لما هو فيه من ضياع الجمل وحال صديقه سليمان من الجرح والالم فقال للراعى « أين الجمل ياأخا العرب فقد وعدتني باحضاره »

قال « تربص بي هنا ريثما آتيك به » قال ذلك وتحول حتى انحدر في الوادي وبعد قليل توارى عن النظر وظل صوت الاحجار المدحرجة على أثر وقع قدميه برهة ثم استولى السكوت فجلس حسن تحت الشجرة ولبث ينتظر عودة الشيخ وقد استوحش المكان

الفصل التاسع والعشرون

العقيق

ولما خلا حسن بنفسه تحت تلك الشجرة جالت به هواجسه في عالم الخيال فانتقل فكره مما شاهده في ذلك المساء الى سمية وحاله معها . فتذكر خادمه عبد الله وتأخره ثم انتقل الى سليمان وأبيه وعاد الى الجمل وعليه كتاب خالد فرأى انه اهمل البحث عنه بتربصه هناك لمشاهدة ملتقى ذينك الحبيبين . ولكنه علم انه انما فعل ذلك بالرغم عنه ولو لم يطع الشيخ الراعي بالتربص وظل في مسيره لما وجد الى جمله سبيلا لانه يجهل تلك البقاع ولا يعرف طرقها

وهو يفكر في ذلك والظلام حالك لايريه على الآكام والاودية المحيطة به الا ظلالا ضعيفة سمع خربشة بين الاعشاب فوقف بغتة ثم انتبه الى أنها خربشة ضب سارح فلم يلتفت اليه . ولكنه ظل واقفاً وقد تزايد قلقه لتأخر الراعي وود اللحاق به ولكنه خاف ان يختلفا في الطريق فيكون ضياعه الثاني شراً من الاول

ولما طال انتظاره مل الوقوف هناك فمشى على غير هدى وهو لايخاف

الضياع لان الشجرة تهديه الى المكان ولو عن بعد . وجعل مسيره الى جهة الوادى الذي ساراليه الراعي في أثرالجمل وهو يتوقع أن يلتقي بالشيخ وهو عائد او يسمع جعجعة الجمل عن بعد او يعود الى مكانه . ولذلك فانه كان كلما مشى بضع خطوات التفت الى الشجرة مخافة ان تتوارى عن بصره وراء بعض التلال فمشى مسافة طويلة لم يسمع في أثنائها صوتاً ولا رأى شبحاً ثم نسي أمر الشجرة فانحدر في الوادى وهو يتلمس الارض ولا يرى الطريق فتارة كانت تزلق رجله وطوراً ترتطم اصابعه من فوق النعال باصول الاعشاب الباقية بعد المرعى وهو بين ان يحملق نحو الوادى بعينيه أو يصيخ باذنيه أو يتفرس في الطريق بين يديه . فلما طال به المسير ولم يهتد الى شيء ندم لنزوله من مكانه

وبعد مسير طويل على تلك الصورة سمع نباح كلاب في الوادى فالتفت الى جهة الصوت فرأى نورا ضئيلا فتأثر الصوت فاذا به يتعاظم كلما اقترب حسن من النور فعلم أنه على مقربة من بعض قرى ذلك الوادي وادي القرى فيه قرى كثيرة (١) منتشرة في بطنه وعلى جانبه . ولكنه استغرب النباح في الليل لعلمه أن ذلك لايكون الا اذا طرق الحى غاز أو لص . فوقف ليستريح ويفكر في أمره فالتفت الى ما يحيط به فاذا هو في واد بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش ولكنه استأنس بتلك النار على بعدها فمشى نحوها فرأى شبحاً يعدو صاعدا من الوادى كأنه غزال نافر فلما اقترب منه علم أنه الراعى واستغرب مجيئه وحده فصاح فيه « ماوراءك يا اخا العرب . ؟ أين الجمل ؟ »

فقال « ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال « جاء بي قلقى على الجمل وأنا كما قلت لك في عجلة لاسباب هامة »

قال « وما الفائدة من انحدارك في هذا الوادى والليل دامس وأنت لاتعرف الطريق وقد تعرضت للخطر بطروقك هذا الحى ليلا فان

(١) مراصد الاطلاع

الـكلاب انتبهت لك ونبحت وأما انا فان الـكلاب الفتني لـكثرة ترددي الى هذه القرى »

فقطع حسن كلامه قائلا « مالنا ولهذا قل لى أين الجمل ؟ »

قال « لم أعثر عليه فى المـكان الذي كنت أظنه فيه والظاهر أنه قصد ماء آخر وقد كنت ذاهباً للبحث عنه في العقيق بجوار المدينة بدون أن أطلعك على الامر »

فاستعاذ حسن بالله وقال « يالله ماهذه المصيبة »

فابتدره الراعي قائلا « لاتخف ياسيدى ان الجمل لايضيع ولو غاب عنك طويلا فان أهل البادية يرسلون ابلهم المرعي وقد لايرونها أياما ثم تعود بنفسـها أو يعود بها غلام أو فتاة . وقد كان ذلك شأننا في زمن الجاهلية فـكيف ونحن الآن في ظل الاسلام وأما انتم معاشر أهل المدن فان الرجل منكم اذا غفل عن عمامته خاف اختطافها . »

فمل حسن من جدال الراعي فقال له « مالنا ولهذا الجدال أين الجمل وكيف السبيل اليه ؟ »

فقال « يغلب على ظنى انه سار الى العقيق وهو ماء يخرج أهل المدينة اليه فيقيمون عنده سـاعات او أيام في خيام يحملونها معهم وربما ذبحوا الذبائح وأولموا الولائم »

فقطع حسن كلامه قائلا « فهمت ثم ماذا ؟ »

قال « فالعقيق مجتمع أهل الرخاء من اليثربيين وهو يذكرنى بايام الشباب فقد كان العقيق موعدنا للقاء بنساء المدينة لاتغضب ياسيدي اننا سائرون الآن جنوباً نحو المدينة والعقيق في طريقنا اليها »

الفصل الثلاثون

قيافة الاثر

فاستغرب حسن بعده عن المدينة من جهة الشمال وعلم انه صار على مسافة بعيدة من المكان الذي ترك سليمان وأباه فيه فقال للشيخ « هلم بنا اذا » فمشيا والراعى مع شيخوخته اسرع عدواً من حسن لانه تعود المشي في الوعر . أما حسن فلما صعد من ذلك الوادي والتفت الى السماء وتبين الكواكب فعلم أنه في أواخر الليل فبغت لضياع الوقت وهو لم يعمل عملا بعد وتشاءم مما تأتى له في ذلك المساء وهو انما امسك عن رؤية حبيبته رغبة في المسير الى مكة على عجل فكيف بعد قضاء كل الليل فى المشي والقاق يعود الى الوراء

قضى مدة وهو سائر في اثر الراعي على أرض أكثرها من الرمال وبعضها رطب بما يرشح فيه من الماء وفكره تائه في أمثال هذه الهواجس حتى رأى نجم الصبح قد طلع فعلم أن الفجر دنا ثم رأى الراعي وقف وأشار اليه قائلا « ألا ترى الماء أمامنا عن بعد ؟ »

قال « اني أرى سطحاً لامعاً وكأني أرى فيه سماء أخرى من انعكاس أنوار الكواكب »

ولما رأى حسن الماء شعر بانشراح الصدر واستبشر ببلوغ أمنيته وجعل يتفرس في ضفاف ذلك الماء لعله يرى أناساً أو جمالا فلم ير شيئاً . ثم سمع الراعي يقول « ها اننا على ضفاف العقيق ولا نرى فيه أحداً سوى آثار اناس كانوا هنا ورحلوا فى أوائل الليل فاقعد على هذا الحجر واغسل رجليك فى هذا الماء واسترح ريثما آتيك بالخبر »

قال « دعني أسير معك »

قال « لا . . امكث عندك واغسل رجليك وانا أعود اليك على عجل فانى لا أتحقق الامر حتى أطوف حول هذا الماء . فلا حاجة الى مسيرك

معى فقد تعبت ولو كنت في عنفوان الشباب لان أهل المدن لا يقوون على المسير مثلنا » قال ذلك والتحف العباءة وسار وحسن يتبعه بنظره حتي توارى . فعاد حسن الى هواجسه ولكنه ما لبث أن سمع الشيخ يناديه فنهض واسرع حتى أقبل اليه فاذا هو واقف تحت شجرة منبسطة الاغصان وقد قبض بيده على شيء وهو يقول « متى خرجت من المدينة . . ؟ » .

قال حسن « نحو الغروب »

قال « هل أطعمت الجمل قبل خروجك »

فتحير حسن بماذا يجيب لانه وكل أمر الجمل الى خادمه فقال «اظن الخادم أطعمه »

فبسط الشيخ يده فاذا فيها ابعار فقال « ان هذه الابعار لجمل من جمال المدينة جاء وحده الى هذا المكان من مدة قصيرة ورجع »

فاستغرب حسن حكمه في الامر بتاتاً وقال« وكيف عرفت ذلك . .؟ »

قال « عرفته من هذه الاوساخ فان فيها النوى وهو علائف جمال المدينة لان النوى كثير عندهم . ويظهر من قلة جفافها أنها وضعت من عهد قريب . ولم أر واضعها فبالطبع أنه عاد »

فوجد حسن كلامه معقولا ولكنه لم يقنع ان الجمل الذي يشير اليه هو جمله اذ لا يبعد أن يكون جمل اناس آخرين فقال له « وما الذي ينبئك انه جملي وليس من جمال أناس مروا بهذا المكان الليلة »

فضحك الشيخ وقال « لو كانت ابعار الجمال كثيرة لرأيناها أصنافا والواناً . واذ سلمت أنها لجمل واحد قلت لك ان هذا الجمل لم يقم هنا الا قليلا . واى جمل من جمال أهل المدينة يخرج الى هذا المكان بعد منتصف الليل الا ان يكون فاراً مثل جملك . . ؟ »

فاعجب حسن ببداهة اهل البادية وتذكر اشتهارهم بقيافة الاثر ولكنه مازال مشككا في أن يكون ذلك الجمل جمله فقال « لا ارى مانعاً من ان بعض اهل المدينة خرج الليلة على جمله يلتمس بعض الاحياء فر بالعقيق ليشرب او يسقى جمله أو يستريح »

قال « قد يكون ذلك ولكن في غير ما اراه من حال هذا المكان . لاني لا ارى على الارض آثار خطى الادميين . . . »

فقطع حسن كلامه وقال وهو يظن نفسه افحمه « الظاهر ان الراكب لم ينزل عن جمله وانما وقف ريثما شرب ثم ساقه »

فقال « لا يمكن للجمل ان يقف تحت هذه الاغصان المدلاة وعليه راكب لانها تمس ظهر الجمل بانبساطها وانحنائها وليس عليه احد »

قال حسن « وربما برك الجمل »

قال « لو فعل لشاهدنا آثار وكبه . . . فما الجمل الذي مر من هنا الا جملك واذا صبرت هنيهة اريتك الطريق الذي سار فيه فيهون عليك طلبه »

قال « وكيف ذلك » وكان الفجر قد لاح وتبينت الارض جيداً فنظر حسن الى ما حوله وراجع ماقاله الشيخ فترجح لديه قوله وتحقق ما كان يسمعه عن مهارة اهل البادية في قيافة الاثر فلبث ليرى ما يفعله الشيخ فاذا هو قد مشى خطوات قليلة ثم قال « انظر الى هذه الخطى فانها آثار خفاف جمل يعدو عدواً سريعاً كأنه يسير طراداً — يدلك على ذلك عمقها وعدم نظامها .. ويظهر لى ان الجمل عاد الى المدينة »

الفصل الحادى والثلاثون

وجدناه ضائعاً

فالتفت حسن الى يساره وقد بان الصبح فاذا هو مشرف على المدينة عن بعد ولا يرى بداً من الذهاب اليها . فتذكر حبيبته فيها ولكنه عاد الى الافتكار في أمر الجمل فقال « اني لاستغرب ما رأيته اليوم من جملي ولم يكن عهدي به مثل ذلك من قبل »

قال « للجمال طبائع غريبة وقد يكون الجمل هادئاً ساكناً فلا تراه الا وقد دلق لسانه وأرغى وأزبد واركن الى الفرار كأنه اصيب بجنة وقد يصيبه ذلك على اثر خوف ورعب او جوع . ومهما كان من الامر

فاطلب جملك في المدينة . وأما أنا فاني استأذنك في العودة الى ماشيتي مخافة ان يكون قد أصاب ابلي ما اصاب جملك وهي وحدها هناك الا غلاماً وأمه تركتهما لحراستها »

فاثنى حسن على الشيخ وودعه وسار يلتمس المدينة وقد انهكه التعب والقلق وأحس بالجوع وتشاءم مما اتفق له فعول على ان يسير تواً الى المسجد للصلاة والتبرك ثم يبحث عن الجمل ثم تذكر حديث سليمان وأبيه وما فيه من الاشارة الى الفتك به فمال الى استطلاع سر أبي سليمان قبل دخوله المدينة لئلا يكون فيه ما يمنعه من دخولها فسار يلتمس المكان الذي تركهما فيه بالامس فاستشرف على اكمة قرب سور المدينة فرأى قرب المستنقعات شيئاً كالجمل البارك ثم ما لبث ان سمع جعجعة فاسرع حتى دنا من الجمل فاذا هو جمله بعينه وقد وقع عند حافة المستنقع وكسر فخذه ولم يعد يستطيع النهوض ولكنه رآه عارياً لا رحل على ظهره ولا خطام في رأسه فشك في ان يكون جمله وظنه جملا آخر يشبهه فتفرس فيه جيداً فلم ير فرقاً بينه وبين جمله ثم تذكر ميسمه وهو العلامة التي يسمون بها الجمال بسمات القبائل فنظر في الميسم فاذا هو الميسم الذي يعرفه فتحقق انه جمله وانه لم يعد يقوى على المسير فلم يهمه ضياعه وود لو ان الراعي رافقه الى هناك ليهبه الجمل فينتحره لاهله ــ ولكنه فكر في الرحل وما كان عليه وما في جيبه وخصوصاً كتاب خالد بن يزيد فزاد تشاؤمه من تلك السفرة وقال في نفسه « لم يعد لي وطر في المدينة الآن » ووقف برهة ثم مشى نحو الجهة التي ترك فيها سليمان مطروحاً ووالده بجانبه فرأى المكان خالياً الا آثار الدم على صخر منبسط ورأى بجانب الصخر ثوباً معفراً فرفعه فاذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعاً قطعاً فاستغرب تمزقه فطرح بقاياه وفكر في أمر سليمان والكتاب فقال في نفسه « لعل أبا سليمان عثر على الجمل وهو سائر الى المدينة فلما رآه معطلا حمل رحله معه على نية أن يدفعه الي عند الملتقى » فارتاح حسن الى ذلك الفكر وهدأ اضطرابه وترجح لديه أن ابا سليمان حمل ابنه الى منزله في المدينة لمداواته فعول على الذهاب اليه

وفيما هو ماش نحو المدينة رأى غباراً يتطاير في عرض الافق مما يلي طريق مكة فوقف ينتظر ما يكون فاذا هم بثلاثة من الابل عليها ثلاثة رجال قد تلثموا وساقوا الهجن سوقا عنيفاً ثم سمع قرقعة اللجم فعلم أنها ابل البريد (١) اذ كان لدواب البريد قعقعة خاصة كأن ارسانها من سلاسل الحديد أو لعلهم كانوا يعلقون في أعناقها جلاجل أو نحوها فمكث هنيهة ريثما مر البريد فعلم من لباس الرجال وهيأة الركوب أنهم من العراق فترجح عنده انه بريد الحجاج بن يوسف الى عامل المدينة

الفصل الثانى والثلاثون

سليمان وأبوه

فلما مر البريد سار هو فى أثره يلتمس بيت سليمان من أقرب الطرق فوصله حالا فلما وصل الدار استفهم عن سليمان فقيل له انه مريض فتحقق أنه هناك فاستأذن وأقبل على حجرة رأى فيها سليمان متوسداً وأبوه الى جانبه فخلع نعليه بالباب ودخل فوقف له أبو سليمان ورحب به وأراد سليمان النهوض فامسكه وأجلسه وجلس على طرف الفراش الى جانبه وجعل يسأله عن حاله فطمأنه انه أحسن كثيراً وان الفضل في شفائه له .

فقال حسن « ولا اظن المصيبة جاءتك إلا على يدي »

فقال سليمان « أشكر الله لانه نجاك من هذا الخطر أيضا »

فتقدم أبو سليمان للحال والدمع ملء عينيه وقبل حسنا وقال له « الآن غفرت زلتي يابني فان الله قد هددني بالقصاص حتى خوفني ضياع ابني ووحيدي ولكنني أشكره على السلامة ولانه أكسبني ابناً آخر .. »

فنظر حسن الى ذلك الكهل فاذا هو على ماوصفناه من طول القامة ونحافة العضل وقصر اللحية وصغر العمامة ولكنه رأى في وجهه دلائل السويداء وانقباض النفس حتى اذا ابتسم انما يبتسم تكلفاً واذا ترك

(١) الفخرى

ساعة أو ساعات ظل صامتاً لا يفوه كأنه يفكر في مصاب محدق به

ثم سألاه عما كان من سبب غيابه فقص حسن عليهما الحديث مختصراً وكان يتكلم وأبو سليمان يصغى اليه وهو مثبت بصره فيه وكأنه لم يعره كل انتباهه . فلما جاء على آخر الحديث وذكر لقاء الجمل وضياع الرحل قال « فلما رأيت جملي بلا رحل على مقربة من المكان الذي كنا فيه ظننتكم عثرتم على الجمل ورأيتموه معطلا فحملتم رحله معكم لتحفظوه لي فهل صادف ظني مكانه ؟ »

قال أبو سليمان « كلا ياولدي فاننا عدنا في الليل ولم نلتفت يمنة ولا يسرة لاشتغال بالنا بجرح أخيك سليمان . وأنت هل وصلت الى المكان الذي كنا فيه »

قال « نعم وصلت اليه فرأيت أثر الدم ووجدت القباء ممزقاً وعليه جلط الدم فعجبت لتمزيقه »

فقال الرجل « لا تعجب ياولدي لتمزيقه لانه مزق قلبي فانتقمت منه فاعذرني ولو كان قباءك »

فاستغرب حسن ذلك وقال له « عزمت عليك ان تقص على خبر هذا القباء »

فقال له « اعفني من خبره واقنع بما قلته ولو تلميحاً »

قال « وماذا قلت ؟ »

قال « ألم أقل ان هذا القباء هو الذي مزق قلبي لانه كان دليلي الى الفريسة المطلوبة فاذا هى ولدي وفلذة كبدي »

الفصل الثالث والثلاثون

انكشاف الحقيقة

ففطن حسن لامور كثيرة كانت في محل الشك عنده وتذكر انه مافي العالم أحد يعلم بوجود ذلك القباء معه غير عمه عرفجة لانه أخذه من عنده

ولم يلبسه قط فاحتاطت به الشكوك وتناوبته الهواجس وظل صامتاً برهة لا يتكلم . . ثم قال « الا تقول لى من الذي امرك بقتلى ؟ ارى ان تقول لى لئلا اتهم اناساً ابرياء قل ولو اجمالا »

قال « اعلم يا ولدي انى امرت من اعظم رجل في هذه المدينة وهو صاحب السلطان الاقوى فيها

ففهم حسن انه يريد عامل المدينة طارق بن عمرو وكان يعلم بما بين طارق وعرفجة من العلائق الودية . فترجح لديه ان لعمه هذا دخلا فى هذه الخيانة لكنه كتم مافي نفسه وعول على الصبر الى الفراغ من مهمته الى مكة

وأراد سليمان ان يذهب الانقباض عن صديقه فقال لابيه « كيف رأيت هذا الصديق يا والدي »

فتنهد أبوه وحاول الابتسام وهو يقول « لم أكن أشك في ما قلته لى ولكن سوء حظى ساقنى الى ما ارتكبته ولكني احمد الله على خلاصنا من هذا الخطر » ثم التفت الى حسن وقال « وأما انت فاعتذر اليك لتعمدي قتلك عن غير معرفة بك ولا أظنني دفعت الى ارتكاب ذلك إلا بما جنيته من الذنب برجوعي عن المطالبة بدم ذلك المقتول ظلماً » قال ذلك وشرق بريقه فسكت برهة وحسن ينظر اليه ويعجب . ثم عاد ابوسليمان الى الكلام فقال « كنت من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن الحسين رحمه الله حتى قتل ظلماً في سهل كربلاء ولكنني لم أثبت على توبتى فانتظمت في خدمة الذين قتلوه فلا ريب ان عملي لم يرض الحق سبحانه وتعالى فما علي الآن تكفيراً عن ذلك إلا تكريس ما بقى من حياتي لنصرة أعدائهم وقد بلغني انك سائر الى مكة فهل ترى في رفقتى نفعاً لك . والافاني هائم على وجهي في هذه الصحراء »

فقال حسن « اذا رافقتنى فاني آنس بك واتخذك والداً لى لان سليمان أخي ولكن أرى ان ... » وسكت كأنه أراد التكلم وأسكته الحياء

فقال أبو سليمان « تكلم يابنى ولا تخف فانى بمنزلة أبيك بل أنا خادم

لك ولا استنكف من أمر أجريه في خدمتك . قل ما بدا لك »

قال حسن « اذا كنت ترى ان تتفضل علي وتعاملني معاملة الوالد لولده فان لي عندك غرضاً استحي ان أكافك به »

قال « لا تستح يابني . قل »

قال « أحب فتاة في هذه المدينة وقد خطبتها وأنا مضطر للسفر قبل العقد عليها ولا يخفى عليك قلب مثلي في هذه الحال »

قال « نعم . ماذا تريد مني هل تريد ان أوقف نفسي لخدمتها ؟ »

قال « كلا فانها في بيت والدها ولكنني قليل الثقة عن حولها »

قال « من هي الفتاة ومن هو والدها أتقول لي ؟ »

فوجم حسن برهة ثم قال « اذا لم يكن بد من معرفتك اسمها — ولا أرى بدأ من ذلك ـ فأخبرك انها سمية ابنة عرفجة الثقفي »

فلم يتم حسن قوله حتى بهت أبو سليمان وامتقع لونه او زاد امتقاعاً وأطرق وصارت لحيته ترقص في صدره وكان حسن يلاحظه وقد ادرك ما جال في خاطره . وجعل أبو سليمان يهم بالتكلم ثم يمسك نفسه لانه كان يرى عرفجة يتردد الى مجلس طارق ويساره وعرفجة مشهور في المدينة بخيانته وسوء نيته

أما حسن فلم يمهله ريثما يتكلم فابتدره قائلا « لا أكافك باطلاعي على شيء تظنه سراً فقد فهمته وهـذا يكفي . أما الفتاة فانها خطيبتي والعهد بيننا شديد الوثاق لا يمكن ان يثنيها أو يثنيني شيء . وانما اتقدم اليك ان تتوصل الى البحث عنها والاستفهام عن أحوالها وهذه هي وصيتي اليك فاذا قبلتها كان ذلك فوق ما أتمناه »

فقال أبو سليمان « أنا على ما تريد واعلم اني اهتم بهذا الامر اهتمامي بولدي هذا . كن في سكينة وراحة بال »

فلما فرغ حسن من أمر سمية عاد الى التفكر في الكتاب والخادم فتبادر الى ذهنه أنه ربما لقي خادمه في المدينة فيساعده على البحث عن الكتاب وعزم اذا لم ير الخادم ان يسير بنفسه ويكتفي بالبلاغ الشفاهي لعبد الله

بن الزبير ويرى ما يكون فنهض واعتذر بعزمه على السفر . فقال له ابو سليمان « اذا لم يكن بد من سفرك فاجعله من غير الطريق الذي رحنا فيه امس ـ اخرج من باب آخر وأنا أرسل معك خادمي يهديك الى الطريق ويسوق جملك بدلا من خادمك وأقدم لك جملا أحسن من جملك فانعم بالا وكن على ثقة اننا انا وسليمان في خدمتك حتى تبلغ مرامك » ثم نادى « بلال » فجاء عبد خفيف السواد حسن الملامح كانه مولد وما هو زنجي بحت لتناسب اعضاء وجهه فقال له هيء الجمل الاشرم واملأ القرب ماء واعدد زاد السفر . فذهب بلال ثم عاد وقد أعد كل شيء فقال أبو سليمان لحسن « اذا كان لا بد من سفرك فسر على عجل ولا تقف ولا تسترح حتى تبعد عن المدينة . . . »

فقطع حسن كلامه وقال « وقد فاتني أن اخبركم عن ابل البريد فقد رأيت ثلاثة منها دخلت المدينة في هذا الصباح وأظنها قادمة من مكة . . »

قال أبو سليمان « لا يبعد انهم جاءوا بطلب نجدة أو مدد أو خبر فتح أو غير ذلك وعلى كل حال فاني سأنتقل من هذا البيت الى سواه وأختفي يومين أو ثلاثة حتى لايراني أحد لئلا يطلبوني للمسير معهم . . »

ثم ودعهم حسن وركب الجمل وسار بلال في ركابه ويود حسن لو يعيد النظر الى سمية قبل سفره ولكنه أراد العجلة وخاف الوقوع في ما هو شر من ذلك

الفصل الرابع والثلاثون

سمية في منزل سكينة

فلنترك حسناً سائراً الى مكة مع بلال ولنعد الى المدينة لنرى ما كان من أمر سمية بعد سفره فقد تركناها عائدة الى بيت سكينة ومعها عبد الله خادم حسن يسير في خدمتها . فلما وصلا الى باب البيت قالت له سمية « قد وصلت الى مأمني فانصرف » وكانت قد استأنست به لانه ثقفي مثل والدها

فلما ودعها للانصراف قالت له « قـد علمت يا عبد الله منزلة حسن منى فاحتفظ به وكن صادقاً في خدمته »

فقال « اني عبدك وعبده يا مولاتى ولا يهون علي الا ما يرضيكما ثق انى أفديكما بروحى »

فاطمأنت سمية واشارت برأسها اشارة الوداع فتحول عبد الله مسرعاً يلتمس باب المدينة ليتبع سيده

اما سمية فانها أقبلت على باب سكينة وعنده الدواب والخدم لايزالون هناك حوالى العشاء فتظاهرت انها كانت في بعض جوانب المنزل وسارت الى مجلس سكينة وفيه ليلى وغيرها فرحبت سكينة بها وسألتهـا عن سبب تخلفها . فقالت لاني كنت مشتغلة في بعض الغرف هنا فقالت لها ليلي « قد بحثنا عنك فلم نجدك ألا تظنى والدك يستبطئك »

قالت « ربما استبطأني ولـكنني هنا في مأمن من غضبه ومتى استبطأني بعث في أثري »

فلما سمعتها سكينة تقول ذلك أمسكتها بيدها وجرتها الى جانبهـا حتى أقعدتها معها على الوسادة وضمتها وقبلتها وقالت لها « أهلا بك ياسمية انك من أعز الاحباء » وكانت سكينة تستلطف سمية وتحبها وتغار عليها

فقالت سمية « لاحرمنا الله من محبتك يابنت سبط الرسول ان اقامتك في هذه المدينة بركة وسعادة لنا جميعاً »

ثم جاء الخدم يدعون سكينة الى المائدة وقد مدت الاسمطة كجاري العادة فقاموا للعشاء . وأما سمية فعادت الى هواجسها واستغربت سكوت والدها عنها الى ذلك الحين . ثم خطر لها انه غائب عن البيت وهو يحسبها فيه . فرأت ان تستأذن سكينة في من يوصلها الى البيت فأذنت لها وبعثت معها بعض الجواري

وصلت سمية الى باب البيت فقرعته قرعة يعرفها الخدم فأسرعت جارية الى فتحه واستقبلت سيدتها وهي تقول « لقد أبطأت علينا الليلة وشغلت بالنا »

وكانت تلك الجارية حبشية الاصل اسمها أمة الله وكانت تحب سمية كثيراً وسمية تستأنس بها وتكرمها فلما أبطأ قدومهـا في تلك الليلة شغل بال الجارية كثيراً ولم تستطع رقاداً فلما طرقت سمية الباب كانت هى أول من سمعه

فلما دخلت سمية ترامت أمه الله عليها وقبلتها ورحبت بها فقالت لهـا سمية « ألم يأت والدي ؟ »

قالت الجارية « جاء نحو الغروب ودخل الحجرة المعلومة وأقفل الباب عليه وهو لا يزال هناك ولا يدري أحد ماذا يعمل لانه أنارالسراج وحمله بيده الى الغرفة على جاري العادة »

فدخلت سمية غرفتها وخففت ثيابها لتوهم والدها اذا رآها أنها في البيت من مدة طويلة . ولم تستغرب مكثه في تلك الحجرة طويلا لانه كثيراً ما كان يفعل ذلك وأهل البيت يستغربون تكتمه ولا يعرفون ما في تلك المحفة المخزونة هناك . ولولا خوفهم من غضبه واستبداده لتوصلوا الى فتحها ولـكنهم كانوا يخافون سطوته لعلمهم بظلمه وشدة وطأته

فرأت سمية أن تلجأ الى الفراش وتنام قبل خروج والدها من مخبأه مخافة أن يراها ويسألها عن سبب غيابهـا وربما ساء الظن بها فجلست على فراشها واستدعت أمة الله ان تمشط شعرها قبل النوم فجثت الجارية وراء ظهرها وجعلت تسرح الشعر وتمشطه وسمية مستقبلة باحة الدار بوجهها وكانت سمية ترتاح الى محادثة أمة الله ببعض الشؤون الخصوصية فقالت لها وهى تمشطها « هل شغل بالـكم غيابي الليلة »

قالت نعم « يا مولاتي وخصوصاً لانك قلما تطيلين الغياب وبالاخص بعد ان جاء عبد الله للسؤال عنك »

قالت « وأي عبد الله ؟ »

قالت « الرجل الذي جاء في صباح هذا اليوم ... »

فعلمت سمية انه عبد الله خادم حسن فبغتت لعلمها انه فارقها مستعجلا للحاق بسيده فادارت وجهها الى الجارية وقالت لها « متى جاء ؟ »

قالت « جاء قبل وصولك بقليل »
قالت « وهل جاء وحده ؟ »
قالت « لم أر معه أحداً »

ففكرت سمية في الامر فوجدت أنه جاء بعد ان فارقها بساعة أو ساعتين فتبادر الى ذهنها أنه لم يأت الا لامر ذي بال — أما لغرض أراده حسن منها وأما لشر اصابه فتوالت عليها الهواجس واستغرقت في الافكار وعادت الجارية الى تمشيطها وهي في غفلة عن كل ذلك

وبينما سمية غارقة في لجج الهموم لاحت منها التفاتة الى تلك الباحة فرأت فيها نوراً يتحرك وسمعت صوت باب يقفل فعلمت ان والدها خرج من تلك الحجرة السرية . ثم رأت النور يختفي وسمعت تصفيقاً فعلمت ان والدها يدعو الخادم فخافت ان يكون عازما على استدعائها فتظاهرت بالميل الى الرقاد وقالت للجارية « لم يعد لى طاقة بالجلوس فقد اخذ مني النعاس مأخذاً عظيما فاتركيني لانام واذا سأل عني والدي قولى له اني نائمة من مدة طويلة » ففهمت الجارية غرضها فضحكت ضحكة مخفية لم تخرج صوتها وقالت لها « لاتهافي (اي لاتخافي) » وتوسدت سمية وتظاهرت انها استغرقت فى النوم وبعد قليل سمعت الخادم يسأل الجارية عنها وسمعتها تقول له انها نائمة فانصرف

وأصبحت في اليوم التالى وهي لاتزال مائلة الى النوم فظلت في الفراش ونهضت في الضحى فجاءتها جاريتها بماء للغسل وطعام فسألتها عن والدها فقالت « أفقت قبيل الصبح على قرع الباب ثم علمت ان بعض الناس جاءوا يطلبون سيدى على عجل فخرج وهو لم يتم لف عمامته فالظاهر انه طلب لامر مستعجل »

فأطرقت سمية وفكرت قليلا فحدثتها نفسها ان لهذه الدعوة علاقة بخطيبها . ولما تذكرت سوء قصد والدها وما سمعته من قدوم عبد الله اليها بالامس تبادر الى ذهنها ان شراً عظيما اصاب حسناً — وذلك شأن المحب وهو بعيد عن حبيبه فانه يكاد لا يطمئن باله عليه واذا سمع احداً يذكره

لا يتبادر الى ذهنه الا خبر السوء وقد يفسر الاشارات ويحل الرموز ويؤول الحوادث ولكنه قلما يؤولها الى الخير — فكيف بسمية وهي تعلم ماينويه والدها لخطيبها . فلم تتناول الطعام الا قليلا ومكثت جالسة تود البحث عن سبب ذهاب والدها وتخاف ان تسمع السبب لئلا يكون فيه ما يسوءها

الفصل الخامس والثلاثون

لطف مخيف

قضت معظم ذلك النهار في القلق والاضطراب وهي تارة تمشي في الدار وآونة تخرج الى البستان وهي تتوقع ان ترى عبد الله آتياً او تسمع خبراً جديداً . ثم سمعت أذان العصر فالتفتت الى صوت الأذان وهو من جهة باب البيت فرأت والدها داخلا والبغتة بادية على وجهه فخفق قلبها ولبثت تنتظر ما يبدو منه . فدنا منها وابتسم وناداها اليه فتبعته وهي لا تزال في اضطراب ولكنها تظاهرت بالارتياح حتى أقبل على غرفة الجلوس فوقف بالباب وخاطب سمية وهو ينزع نعاله قائلا « كيف قضيت يومك البارحة عند سكينة »

قالت وهي تتبعه الى وسادته التي تعود الجلوس عليها « قضيته براحة ولكني عدت وأنت منشغل في الحجرة فنمت ونهضت فيهذا الصباح فقيل لي انك خرجت بدعوةمستعجلة فاشتغل بالي »

فقطع كلامها ودعاها الىالجلوس بجانبه والابتسام لايليق بذلك الوجه المملوء خبثاً وغشاً . فلما جلست قربها منه وضمها وقبلها فأحست ببرد شفتيه واقشعر بدنها لاحتكاك شعر لحيته بذقنها وعنقها لعظم ماكانت فيه من التهيج العصبي الناتج عن القلق ولكنها قبلت يده فاذا هي أبرد من شفتيه على أنها توقعت أن تسمع منه شيئاً بعد هذا التملق فاذا هو يقول لها «أظنكانقبضت من طول المكث في هذه المدينة»

قالت « اذا كنت أنت في خير وسعادة فكل حال ترضيني »

فأعجبه قولها والقى يده على كتفها وجعل يلاعب شعرها بين أنامله ثم قال « بورك فيك من ابنة مطيعة ان مثل هذا القول يجبر قلب الوالد هذا هو البر الذى كنت أرجوه منك . فالحمد لله ان الفكر الذي كان يخامر ذهنك قد زال الآن وعدت الى ماهو جدير بأمثالك من الرجوع الى خواطر آبائهن في كل شيء »

فتوهمت سمية عند هذا التعريض أن صخرة وقعت على رأسها ثم أسرع خفقان قلبها . ولو انتبه والدها وهي مستلقية على صدره لسمع دقات قلبها أو شعر بها أو لادرك اضطرابها على الاقل أو لعله أدرك وتجاهل خبثاً ورياء . ثم قال ولم يترك لها مجالا للفكر « أتذهبين غداً لترويح النفس في العقيق فانه منتزه جميل ؟ ... نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضي يومنا هناك »

فعجبت سمية لذلك الاعتناء وان كان من والد لان والدها يندر ان يخاطبها بالحسنى أو يلاطفها الا اذا أراد منها أمراً حتى أصبحت لاتسمع منه ملاطفة الا توقعت شراً ولكنها لم تكن تستطيع غير مداراته فقالت « أشكرك يا ابي على هذه العناية »

فقطع كلامها وقال « لاحاجة بى الى شكرك يابنية فانى أبوك وهذا شأن الآباء فلنذهب غداً صباحاً وسأخبر الخدم ليعدوا لنا خياماً وطعاماً ويسيروا أمامنا الى العقيق قبل الفجر ثم نركب انا وانت عند طلوع النهار نقضي يومنا في العقيق فقد مللنا المدينة وأسواقها ونخيلها » قال ذلك بنغمة الاب الحنون فلم يسع سمية الا مجاراته على انها كانت أشد حاجة منه الى الفلاة وخطر لها أيضاً انها ربما استطاعت في أثناء مرورها بالشوارع والطرق ان ترى عبد الله أو تستطلع خبراً عنه أو عن حسن . فأثنت على والدها وقبلت يده فقبلها ثم صفق فجاء عبد أسود كان عرفجة قدفوض اليه ادارة شؤون منزله وجعله رقيباً على أهل بيته . وكان ذلك العبد قبيح الخلقة عظيم الشفة السفلى أفطس الانف يكاد الشرر يتطاير من عينيه . يندر ان يبتسم واذا فعل فانه يكشرعن أنيابه تكشيراً . فلما وقف بين يدي عرفجة قال له « ياقنبر انا عازمون على الخروج في صباح الغد الى العقيق فاعدد

ما يلزم لذلك من الخيم والاطعمة وهيىء الهودج لركوب سمية واذهب انت والخدم عند الفجر ونحن نلحق بكم عند طلوع النهار »

قال « الامر لمولاي » وخرج

ثم نهض عرفجة ودخل الحجرة السرية وتحولت سمية الى غرفتها وطلبت من جاريتها أمة الله أن تتهيأ لمرافقتها في صباح الغد فى الهودج لانها تستأنس بها دون سواها

الفصل السادس والثلاثون

معسكر طارق

باتت سمية تلك الليلة فتوالت عليها الاحلام المزعجة فرأت حسنا في خطر ورأت مناظر مخيفة فنهضت وهي في اضطراب شديد . فاذا والدها قد خرج وتهيأ للرحيل وجاءتها الجارية فمشطتها والبستها ثيابها . وركبت سمية الهودج فوق الجمل والجارية معها وركب والدها بغلة وساروا وقد امسك بخطام الجمل غلام من خدم المنزل

وجعلت سمية منذ خروجهم وهي تطل من خلال الستور الى الطرق تتفرس بالمارة فاستغربت أمة الله ذلك منها لعلمها بادبها وحشمتها . وزاد استغرابها شدة مايبدو في وجهها من القلق . فلما خرجوا من باب المدينة بالغت سمية في التطلع نحو الطريق الذي يؤدي الى مكة لعلها ترى اثراً أو تستطلع خبراً فرأت بجانب باب المدينة خياما ورايات وخيولا وجمالا وقد تفرق العبيد بين النخيل وحول المستنقعات يجمعون العيدان للوقود فاندهلت ولم تفهم أمر هذا المعسكر فلم تر بداً من استفهام والدها فنادته فلم يجبها فاخرجت رأسها بين الستور لتبحث عنه فاذا هو قد اركض بغلته نحو المعسكر فظنت انه ذهب لاستطلاع الخبر فأمرت الغلام أن يظل في مسيره فسار حتي بعدوا عن المعسكر وسمية لاتزال تشرف على الطرق وتتطلع الى كل جهة والقلق باد فى عينيها

وفيما هي تتطلع سمعت جعجعة جمل يتألم فالتفتت فرأت جمل حسن الذي ذكرنا أمره ولم تكن هى تعرفه لانها لم تره الا في اثناء مقابلتها حسنا في المساء ولكن بالنظر الى هول تلك المقابلة انغرس فى ذهنها كل شيء شاهدته في تلك الليلة — وذلك طبيعي في الانسان فانه اذا جرى له حادث أثر في عواطفه ينطبع الحادث وكل ما رافقه من المشاهد والاحاديث في ذهنه — فاذا رأى شيئاً من تلك المشاهد أو سمع حديثاً من تلك الاحاديث تذكر كل ماررافقه . فلما رأت سمية الجمل خفق قلبها كأنها تنسمت منه رائحة الحبيب فاوقفت الهودج عنده ونظرت اليه فرأت أنه ان لم يكن جمل حسن فانه يشبهه كثيراً . على أن هواجسها رجحت انه هو بعينه فقف شعرها وجعلت تفكر في حالها وتصورت حسناً مقتولا وقد أخذ قاتلوه رحل الجمل وخطامه وتركوه . فلما تصورت ذلك تساقطت الدموع رغماً عنها وهي تحاول امساكها

وكانت أمة الله تلاحظ قلق سيدتها ولكنها لم تتجاسر على الاستفهام الا لما رأت دموعها تتساقط فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم مع مافيه من صيغة العجمية « ما بالك ياسيدتي تبكين لا أراك الله سوءاً . . . قولى ما بالك ؟ »

فلما سمعت سمية سؤال الجارية لم تتمالك عن البكاء حتى علا صوتها فامسكتها أمة الله وقبلت يدها وقالت لها « بالله كفى عن البكاء واخبريني ما سبب ذلك اطلعيني على سرك لعلى أنفعك في شيء . . . قولى لى »

فتنهدت سمية ومسحت دموعها بكمها من فوق الاساور والدمالج فذهب الكحل من عينيها ولو لم يكن رداؤها قاتماً لبان الكحل عليه . فلما انتهت نوبة البكاء وهدأ روع سمية التفتت الى خارج الهودج فلم تجد والدها عاد ولا رأت أحداً يسمعها فقصت على جاريتها الحديث مختصراً وأطلعتها على مكنون قلبها فاحست للحال أن المصيبة خفت عنها . فشاركتها الجارية بالبكاء ثم لامتها على مقاساة كل ذلك لمجرد الظن . وقالت لها « لم تتحققي أن هذا الجمل جمله . ولكن هي أنه جمله فما ارانا أنه أصيب بسوء . . . وأما ما

تظنينه من الحكم فهو بمجرد الظن . ولا احسب هذا الجمل الا لبعض أهل هذا المعسكر انكسر فتركوه . . . »

فارتاح فكر سمية لهذا التعليل ولكنها عادت الى الافتكار بعبد الله ورجوعه الى منزلها في تلك الليلة فقالت « ولكن ما هوسبب رجوع الخادم الينا في تلك الليلة . . . ؟ »

قالت الجارية « قد يكون أنه جاءك برسالة من حسن فلم يجدك فعاد وسافر معه ولولا ذلك لرأيته أمس . وقد مضى طول النهار وها نحن في ضحى اليوم الثانى ولم نره »

فقطعت كلامها وقالت « أتظنين اذا علم بسوء أصاب حبيبي ينقل ذلك الخبر إلى . . ؟ »

وهما في الحديث والجمل ماش سمعتا وقع حوافر البغلة فعلمتا أن عرفجة عاد اليهما وبعد قليل وصل الى محاذاة الهودج فنادى سمية فاطلت وسلمت على أبيها فقال لها « ألعلي غبت عنك كثيراً ؟ »

قالت « نعم يا سيدي وخصوصاً لاننا رأينا خياماً وجمالا وخيولا فلم نفهم سبب هذه الحركة »

فاجابها وهو يحاول اصلاح الرسن في رأس البغل « ان هذا المعسكر معسكر طارق بن عمرو عامل المدينة وقد خرج برجاله وجنده قاصداً مكة »

قالت « ولماذا . . ؟ »

قال « جاء بريد الحجاج بن يوسف أمس يستقدم طارقا ورجاله مدداً له في حصار مكة وعما قليل يسافرون » قال ذلك وساق بغلته وتظاهر أنها أسرعت من نفسها فانقطع الحديث . وسرت سمية بانقطاعه لتعود الى الافتكار بحسن لعلها تلتمس تعليلا يريح بالها عليه — والمرء ميال الى التماس مثل ذلك التعليل والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك . فبعضهم اذا وقع في مصيبة هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة فيجعل لنفسه مخرجاً من سوء عواقبها ومنهم من يزيده الافتكار قلقا ولكنه لا يلبث وان طال قلقه أن يتوصل الى حل يتوكا عليه ريثما يرى ما يأتي به القدر

وكانت الجارية قد رفعت أستار الهودج منذ خرجوا من المدينة وبعدوا عن النـاس وسمية تسرح نظرها في ما حولها من الهضاب والبطاح وبرك الماء وغابات النخيل وهي كأنها لا ترى شيئاً لاستغراقها في عالم الخيال فلم تنتبه الا وقد شمت رائحة الشواء فالتفتت فاذا هي على مقربة من ثلاث خيام إثنتين قرب الماء وواحدة منفردة بظل نخلة كبيرة . فنظرت فرأت نفسها على غير ماء العقيق لانها كانت تعرفه فحولت نظرها الى ما حولها فاذا هي لا تزال على مقربة من المدينة وخيام المعسكر لا تزال ظاهرة . وتفرست في الخيام حولها ورأت الخدم فاذا هي خيامهم وخدمهم فاستغربت ذلك ولكنها لم تعلق عليه أهمية كبرى إذ لم يكن لها رغبة في العقيق ولا غيره

وجاء الخدم فأناخوا الهودج بقرب الخيمة المنفردة فنزلت سمية وجاريتها ودخلتا الخيمة

أما عرفجة فرأته سمية واقفاً مع عبده على انفراد وكانت تكره ذلك العبد كرها شديداً لغلظ طباعه وفظاعة خلقته

الفصل السابع والثلاثون

حديث ذو شجون

فلما دخلت الخيمة عادت هواجسها اليها ففكرت في حسن والجمل وتصورت ما تخشاه من امره فازداد بلبالها . ثم خرجت امة الله لمساعدة سائر الخدم باعداد الاطعمة وظلت سمية في الخيمة وحدها

وهي على تلك الحالة سمعت نحنحة ابيها ثم رأته قادما والعبد معه وقد فرغا من المسامرة ومشيا نحو خيمتها فاستعاذت بالله وخافت شر ذلك القدوم ثم رأت العبد يبطيء بالمسير ويتشاغل وأبوها يسرع حتى وصل الخيمة فنهضت له فناداها قائلا « كيف رأيت هذا النهار ؟ انه نهار جميل »

فتظاهرت بالابتسام وأرادت ان تحادثه فقالت « انه نهار جميل ولكنني سمعتك تقول إننا ذاهبون الى العقيق وأرانا لا نزال بباب المدينة . . »

قال « ان العقيق بعيد فأحببت الاستراحة هنا ثم اذا شئت المسير الى العقيق سرنا . . وانما غرضي ان تكوني مسرورة فرحة ولا اراك منقبضة النفس ومثلك يجب ان تكون مثال اهل السرور . . لان اباك يحبك حبا شديدا وقد انقطع عن العالم من اجلك . . ولا يترك وسيلة الا اتبعها في سبيل راحتك وسعادتك . . »

فلما رأت ذلك التلطف منه خافت ما وراءه وظلت ساكتة فعاد هو الى اتمام حديثه فقال لها « ولقد سرني منك انصياعك الى مشورة ابيك بشأن ذلك الشاب وعدت الى ما هو جدير بامثالك . . . ويسرني أيضاً أن أبشرك بسعادة قد وفقت اليها لاجلك ويندر أن تنالها فتاة من فتيات المدينة بل هن يتحسرن عليها كافة . . »

فازداد قلقها وتوسمت من وراء ذلك الكلام بشرى سوء تزيد اضطرابها فظلت ساكتة وقلبها يخفق ومالت الى استطلاع ما في نفس والدها ولكنها خافت أن يكون في استطلاعه ما يسوؤها فلبثت صامتة لاتدري ما تقول . ووالدها ينظر الى وجهها خلسة وهو يتشاغل بلحيته بين أنامله . وكان يتوقع أن يسمع منها استفهاما أو جوابا فلما رآها صامتة دنا منها وهي متكئة الى عمود الخيمة ووقف امامها واسند يده الى العمود وجعل يده الاخرى على كتفها . فاقشعر بدنها وارتعدت فرائصها لعظم قلقها ولم تعد تصبر عن استطلاع ما في نفس عرفجة فاذا هو يقول لها « لماذا لم تسأليني عن تلك السعادة ؟ لا اخالك اذا علمت بها إلا معجبة بما يبذله ابوك في سبيل راحتك . اتعلمين انك ستصيرين عما قليل سيدة نساء هذا الجيش ؟ . . » قال ذلك وأشار الى المعسكر

فلما سمعت قوله علمت انه يعرض بخطبتها لاحد كبار ذلك الجيش فتحققت سوء ما اضمره لها في الامس وانها مقبلة على خطر شديد فارتبكت في امرها ولم تدر بماذا تجيب ولكن الاضطراب بدأ على وجهها . ولو تفرس والدها في قرطيها لرآهما يرتعشان ارتعاشا يحاكي خفقان قلبها — وما ارتعاشهما إلا من رجع ذلك الخفقان — واحمرت وجنتاها بغتة فتشاغلت

باصلاح دمالجها في معصميها وهي تنظر الى الدمالج ولكنها لم تكن ترى شيئاً لان الدمع غشى بصرها ثم تساقط اللؤلؤ على معصميها . فلما رأى والدها ذلك تحقق انها لا تزال عالقة القلب بحسن فاراد ان يقطع املها منه فقال لها « مابالك لاتجيبين . . ؟ ألم يعجبك مادبرته لك من اسباب السعادة .. ؟ ام انت لم تفهمي مغزى كلامي – ألم تفهمي ما اقوله لك ؟ .. انك ستكونين سيدة نساء هذا الجند وجند بني أمية المحاصرين لمكة الآن واذا اشكل عليك فهم مرادي اقول لك انك سترفين الى الحجاج بن يوسف كبير امراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان وهو من ثقيف مثلنا وله مالا ازيدك بياناً عنه من علو الشأن ».

فلما سمعت تصريحه لم تعد تمالك عن البكاء فغطت وجهها بكمها واسندت رأسها الى العمود وظلت صامتة وقد حبست نفسها عن البكاء أو التنهد حتى كادت تختنق وهي لا تدرى بماذا تجيب والدها لانها تخاف اذا ردت قوله ان يفتك بها فلم تر سبيلا لفرج كربتها غير البكاء . فلما رآها عرفجة تبكي علم انها لاتزال تفكر في حسن وترجو قربه فامسك يدها وابعدها عن العمود بلطف فطاوعته وهي تبالغ في الاطراق فقال لها « احسب صورة ذلك الغلام لاتزال تتردد في ذهنك مع اعتقادك انه لا سبيل اليه . فاذا كان في قلبك بقية أمل به افزعيها لانه قد مضى وقضى الامر »

فاجفلت سمية ولم تمالك ان رفعت رأسها ونظرت الى والدها وعيناها تقطران دمعا كأنها تتبين هزل قوله من جده فابتدرها قائلا صدقيني انه لم يعد لك سبيل الى حسن ولا هو له سبيل اليك لان امره قد انقضى والاموات لايقومون في هذه الدنيا »

الفصل الثامن والثلاثون

قنبر

فلما سمعت قوله صاحت صيحة سمعها كل من في الخيام ولطمت وجهها وقالت « حسن مات ؟ . . مات ؟ . . لا لا حسن لم يمت انه حي » قالت ذلك واستغرقت في البكاء وجلست على برش من سعف النخل كانوا قد فرشوه في ارض تلك الخيمة وجعلت رأسها بين كفيها واطلقت لنفسها العنان ووالدها لا يزال واقفا وقد بغت لما رآه من تمسكها على انه قال في نفسه انها لا تبرح ان تفرغ من البكاء فتى تحققت موته عادت إلى رأيه . فصبر هنيهة وهو يظهر الاستخفاف بما بدا منها ثم عاد فقال لها « أراك تكذبين قولى وانت تعلمين ياسمية اني لم اكذبك قط ... صدقيني ان حسناً قتل في أثناء خروجه من المدينة فلا سبيل الى رجوعه . . . أتقتلين نفسك معه ؟ . . . »

فصاحت « نعم أقتل نفسي ولا غرض لى في الحياة بعده ... قتلتموه ظلماً وغـدراً ؟ .. ويلك ياظالم .. كيف قتلته .. اقتلني معـه .. اقتلني .. » قالت ذلك وعادت الى الشهيق فلما رأى عرفجة تصلبها عمد الى الملاينة فقال لها « أنا لم أقتله ولكنه قتل بذنبه . ومع ذلك فما الفائدة من البكاء عليـه واشكرى الله أنه قد مات قبل ان يقترن بك فانك حينئذ لا تنالين حظوة فى عيني الحجاج .. »

فقطعت كلامه وقالت « وأي الحجاج . مالى وللحجاج انى لا أريد سواه لا أريد غير حسن . حسن حبيبي . هو وحده حبيبي حياً او ميتاً » ثم اجفلت وقالت « لا لا لم يمت حسن بل هو حى وأيدى الظلمة اللئام تقصر عن ادراكه »

فقال عرفجة « ألا تزالين تنكرين قتله حتى اريك جثته ؟ . » فوثبت سمية من مجلسها بالرغم عنها وصاحت « لا لا . لا ترين اياه ميتاً . . ويلاه

قتل حسن . . قتل . . اقتلني يا ظالم يا خائن . اقتلني وارح نفسك مني وأرحني من الحياة كما أرحت رجلا انقذك وانقذ أهل بيتك من القتل فكافأته بالقتل . ويل لك من مشهد يوم عظيم » قالت ذلك وقد أحست بقوة الرجال الاشداء ويئست من الحياة . فلما سمع عرفجة توبيخها صاح فيها « اقصري يا فاجرة يا عقوقة أبمثل هذا الكلام تخاطبين والدك ؟ . . والله لولا حرمة البنوة ولولا ان يقال اني قتلت فتاة لمزجت دمك بهذه المياه . . ولكني لا اعاملك الا معاملة صبية حمقاء . . وسأصبر عليك هنيهة واعرض عليك السعادة مرة أخرى فاذا ابيت الا مابدا من وقاحتك قتلتك بهذا الخنجر . . » قال ذلك واستل من منطقته خنجرا لمع نصاله كالبرق فلما رأت النصال تعرضت لوالدها وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهي تقول « اضرب . . اغمد خنجرك في هذا القلب . . اطعن فكأنك تخوفني بالموت . . والموت أحب الي من الحياة بعد ذهاب حبيبي وغاية املي »

فلما رأى منها ذلك العناد صاح قائلا « اهذه نتيجة التعب الذي تعبته في تربيتك يا عقوقة يا فاجرة نعم قد حل لي قتلك ولكني لا ألوث يدي بدمك وسترين قبل موتك جميع اصناف العذاب » ثم صاح « قنبر » فأقبل ذلك العبد باسرع من لمح البصر كأنه كان في جيب عرفجة وأخرجه بيده فقال قنبر « لبيك يا مولاي » فقال له « شد يدي هذه الخائنة بالامراس وقيد رجليها بالحبال وسأريها عاقبة العناد »

فتقدم قنبر فلما رأته سمية مقبلا وثبت من مقعدها وصاحت فيه « اذهب يا عبد السوء ولا تدن مني . ابعد عنى قبح الله وجهك » قالت ذلك وهي لا تعى ما تقول

أما قنبر فاستخرج من جيبه حبلا كان قد اعده هناك وهو لا يبالى بصياحها واقبل اليها فقبض على يدها وهى تحاول التخلص منه وقد اشتد ساعداها حتى صارت مثل اشدالرجال ونسيت حزنها ومرارة نفسها وعادت الى الدفاع وقنبر يحاول اخضاعها بلا عنف فلما رآها تدافعه وتقاومه عول

على استخدام العنف فصاح فيها صيحة دوت في ذلك البر دويا عظيما وجذبها من يدها فلطم رأسها بعمود الخيمة فوقعت مغشياً عليها كأنها مائتة فأخذ عبد النحس في شد وثاقها وهو لا يبالي بحالها

الفصل التاسع والثلاثون

سر الامر

وكان الخدم قد سمعوا صياحها وصياح والدها فلم يجسر احد منهم على الاقتراب من الخيمة الا امة الله فانها هرولت خلسة واستترت وراء نخلة حولها عشب العليق ولبثت تتسمع ما يدور بينهما . فلما رأت قنبراً وثب عليها علمت أن سيدتها عرضت نفسها للخطر ثم سمعت لطمة عقبها سكوت فخافت ان يكون قد أصاب سمية سوء فلم تر سبيلا الى استبقائها الا بالحيلة فأسرعت الى عرفجة وترامت على قدميه وقبلتهما وقالت بالله الا اشفقت على سيدتي واغضيت عن جسارتها وانا اضمن لك كل ما تريده منها .. . »

وكان عرفجة انما يعامل سمية بذلك العنف حتى يهون عليها القبول بالحجاج لانه يرجو من زواجها به منفعة كبرى لنفسه — فقد ذكرنا ما فطر عليه عرفجة من حب الذات والطمع مع سوء النية وقد بلغ منه الطمع حداً هون عليه بذل ابنته ضحية على مذبح اغراضه وقد مات ضميره فلا يهمه ما يرتكبه في سبيل انفاذ مقاصده . فكان يعلم ان الحجاج يحب الزواج بسمية ويبذل لها مهراً كبيراً ولكنه كان يخاف ان تشكوه لعبد الملك بن مروان بواسطة سكينة بنت الحسين او غيرها من أهل الوجاهة والنسب في المدينة فلما اطمأن من مقتل حسن على زعمه اخبر طارق بن عمرو أمير المدينة ان مثل ابنته لا تليق بغير الحجاج بن يوسف وانه يعلم برغبته فيها .وكان طارق ايضاً مثل عرفجة قسوة وطمعا وله مطمع في مصالح الدولة ولا يتأتى له ذلك الا اذا تقرب من الحجاج بما يهمه فرأى ان يتقرب اليه بسمية فيخطبها له ويحملها اليه . فرعب عرفجة بذلك وهو راغب من تلقاء نفسه وساعده

على التخلص من حسن ودفع اليه بعض المال من اصل المهر على ان يقبض الباقي بعد وصولها الى الحجاج قرب مكة

وكان عرفجة من الجهة الاخرى يعلم بتعلق ابنته بحسن ونفورها من الحجاج وغيره وكان يتوقع اباءها فهيأ الأسباب المساعدة على اقناعها بأية وسيلة كانت وتواعد هو وطارق أن يخرج بها الى قرب المعسكر ويحاول اقناعها بالحسنى فاذا لم تقتنع عمد الى العنف فيحملها الى الحجاج ولو موثقة ولم يكن هو ينوي الذهاب معها لغرض له في المدينة يتعلق بتلك الحقة السرية وأراد اقناعها خارج المدينة ثم ارسالها تواً الى مكة مع طارق مخافة اذا فعل ذلك في المدينة أن تفر الى سكينة وتلتجيء اليها فاما أن تحميها أو تساعدها في ابلاغ أمرها الى عبد الملك بن مروان قبل وصولها الى الحجاج . أما بعد أن تسير الى مكة ويتزوجها الحجاج فلا يعود لها سبيل للشكوى . وهب أنه كان هو سبيل فذلك لا يهمه بعد أن ينال هو بغيته ولذلك فانه أوصى طارقا أن يكتب الحجاج كتابه عليها ويتزوجها حال وصولها حتى ينقطع لديها كل أمل في النجاة . وبناء على ما تقدم احتال عرفجة في اخراج سمية الى هناك . فلما رأى انكارها ما عرضه عليها من امر الحجاج أمر عبده قنبراً أن يشد وثاقها وخرج هو من الخيمة لا يلتفت اليها

فلما لقيته أمة الله وترامت على قدميه ووعدته باقناعها نادى عبده فخرج وامر أمة الله فدخلت الخيمة وحدها فرأت سيدتها مغمضة العينين وقد خرج ذلك الاسود ولم يهمه أمرها فبادرت الى ركوة من جلد معلقة بعمود الخيمة وفيها ماء فرشت سمية به حتى أفاقت وأخذت في حل وثاقها فالتفتت سمية فرأت جاريتها فوق رأسها وهي تقبلها وتحاول انعاشها فارتدت روحها اليها وهي تمسح الماء عن وجهها بكمها فقالت أمة الله بصوت منخفض « ماذا فعلت بنفسك يا سيدتي ما الذي أراه فيك »

فعادت سمية الى البكاء وقالت « اتسأليني يا أمة الله عن سبب ما ترينه في وقد مات حسن . . حبيبي . . قبح الله القوم الظالمين »

فقطعت أمة الله كلامها ووضعت يدها على فمها وهمست في اذنها « ان

اخفضي صوتك لنتدبر في هذا الامر بالحكمة لان العنف لا يجدينا نفعاً »

فقالت سمية « دعيني يا امة الله . . . فاني لا أريد الحياة بعد مقتل حبيبي ومجرى نفسي ... ومنية فؤادي حسن . . . قتلوك لعنهم الله . . . لماذا لم يقتلوني عوضاً عنك ؟ . »

فتقطع قلب أمة الله على سيدتها ولكنها كانت عاقلة وحكيمة وصاحبة دهاء فتجلدت وقالت « من قال لك انهم قتلوه . . . »

الفصل الاربعون

أمة الله

قالت « أتسألينني ؟ . . . أما رأينا جمله مكسوراً مهجوراً فقلت لعله غير جمله أو ان وجود الجمل لا يدل على خطر . . والآن ما قولك وقد أخبرني هذا الظالم الخائن . . إنه قتل وقد عرض على أن يريني جثته رأي العين فهل بعد ذلك من شك ؟ . . أتلومينني اذا ندبت حياتي ونحت على شبابي وهل ترين سبيلا لراحتي غير الموت ؟ . . »

قالت الجارية « مهما بلغك من أمر القتل فلا يمكن أن نعده في محل اليقين لعلمك برغبة والدك بتزويجك بالحجاج طمعاً بالمال فهو يظهر لك أنه قتل لكي يحول قلبك عنه ومع ذلك فان قتلك نفسك أمر مستدرك ولا يجوز لك ذلك الا بعد أن تتيقني أنهم قتلوا حبيبك . وأما الآن فاننا لا نزال في محل الظن وهبي أنك تريدين الانتحار لتتخلصي من الحجاج فاصبري الى المنتهى فاذا لم يفتح الله عليك باباً للفرج ورأيت الحجاج أوشك أن يبلغ مرامه منك فقبل وصوله اليك تجرعي السم واقتلي نفسك »

قالت « ومن أين آتي بالسم ؟ »

قالت « أنا اكون معك . . . واشرطي على ابيك أن اكون أنا في خدمتك وانا اهيء لك السم ومتى تحققت وقوعك في اليأس اجرعك السم واتجرعه انا أيضاً . . . والآن دعي التصلب وتظاهري بالرضا ولا يبعد أن

يفتح علينا قبل وصولنا الى هذا المعسكر أو قبل وصولنا الى مكة أو لعلنا نجد حسناً ونحن في الطريق فتذهبين اليه ـ فلا يليق بك أن تطلقي لنفسك العنان . . ماذا يكون شأنك اذ قتلت نفسك وحسن لا يزال حياً وهو يعد لك أسباب السعادة ؟ . »

فلما سمعت سمية كلام أمة الله أحست بانشراح صدرها وارتاح بالها وعادت اليها الآمال ـ والانسان سريع الرجوع الى الامل لان طبيعة الوجود تبعده عن اليأس وحب ذاته يهون عليه الرجوع عن الانتحار حباً في البقاء لان المرء مهما يكن من يأسه وتصميمه على الانتحار وهو في حال هياجه وغضبه لا يلبث اذا سكن هياجه أن يندم على ذلك التصميم ويندر أن يرتكب أحد جريمة الانتحار بعد اعماله الفكرة والتبصر

وكان لكلام أمة الله وقع شديد على قلب سمية واستحسنت رأيها في الصبر فقالت لها « افعلي ما بدا لك فانك تعرفين ما في قلبي فعسى أن يأتيني الفرج على يدك . . . »

فسرت الجارية لنجاح مهمتها باستبقاء سيدتها ولكنها شعرت بهول الموقف وترجح عندها موت حسن . على أنها عمدت الى الصبر وخرجت الى سيدها وكان واقفاً مع عبده تحت نخلة فلما رآها خرجت أومأ اليها أن تدنو منه . فمشت منحرفة عن موقفه ففهم أنها تريد الاختلاء به . فمشى وحده حتى التقيا . فقالت « اني رأيت سمية مطيعة أمرك بكل ما تريد لكنها استوحشت من معاملة قنبر فلا تدعه يخاطبها أو يكلمها . ولا يخفى على مولاي أن كل من كان في حال سمية لا يؤخذ بالعنف وقد خاطبتها الآن باللين فرأيتها لانت ولا بد من جلسة أخرى أتمم بها المراد . فاذا كان لا بد من ارسالها الى معسكر طارق اليوم فأمرها أن أكون أنا في خدمتها حتى تأتي الحجاج ولك على كل ما يسرك . . »

فاطمأن بال عرفجة وهان عليه ابعاد قنبر عنها واطاع أمة الله في ارسالها معها وقال لها « لا بد من ذهابها الآن الى خيمة أعدوها لها في معسكرهم

ولا آمن من أن تسير وحدها فاذهبي أنت معها وأكدي لها اني لم افعل بها مافعلته الا رغبة في راحتها »

فقبلت امة الله يده وقالت « بارك الله فيك ولكن سمية تحتاج الى استحضار ثيابها وادواتها »

فقطع عرفجة كلامها وقال « كل شيء معد لها في خيمتها بالمعسكر ولا تحتاج الا الى الرجوع اليه »

فقالت امة الله « ادخل الآن الى الخيمة وكلمها كلاماً يطمئن خاطرها . . » قالت ذلك ومشت فمشى عرفجة حتى دخل الخيمة فرأى سمية جالسة باكية فدنا منها وأمسك بيدها وقال « لقد ساءني ما الجأتني اليه من الكلام الجافي ولكن ظهر لي من أمة الله انك فعلت ذلك بالرغم منك فانهضي وسيري معها الى خيمتك في المعسكر وقد اوصيتها ان ترافقك وتخلص الخدمة لك . . »

فنهضت سمية وهي لاتزال مطرقة فاسرعت امة الله الى يد عرفجة وقدمتها الى سمية وهي تقول « قبلي يد والدك ليتم رضاؤه عنك » فقبلتها . وقبلها هو وكان الهودج لايزال معدا فاركبها وامة الله معها وركب هو بغلته وسار امامهما حتى اوصلهما الى المعسكر وسلم الجمل الى عريف الجند . فاستلم العريف خطام الجمل وسار معهم الى خيمة في بعض اطراف المعسكر

الفصل الحادى والاربعون

ثبوت القتل

وكانت سمية في اثناء الطريق غارقة في الهواجس وقد زال ما أثر فيها من كلام امة الله وخصوصا لما مرت بالمكان الذي كان الجمل مكسوراً فيه فرأت بعض العبيد قد نحروا الجمل واشتغلوا بسلخ جلده فتصورت كيف قتلوا حسناً ونحروا جمله وعظم عليها الامر ولكنها صبرت نفسها بالرغم عنها وامة الله تراقب حركاتها خلسة . وبعد هنيهة وصلوا الى المعسكر

فتحققت سمية انها وقعت في الشباك ـ والفتاة اذا زوجوها برجل تعرفه وترضاه لا بد من استيحاشها في أوائل أيامها إلا اذا كان زواجها عن غرام متبادل فكيف بسمية وقد قتلوا حبيبها (على زعمها) وباعها والدها لرجل لا تحبه والناس يتحدثون بقساوته وشدته . والرجل في تلك الايام اذا كان قاسياً كان أكثر مايكون شدة على أهل بيته لشيوع السلطة المطلقة بينهم فكيف بالحجاج وأمره نافذ لا مرد له

فلما وصل بعير سمية الى الخيمة المعدة لها أناخوه وانزلوها وامة الله في خدمتها فدخلتا الخيمة فرأت سمية صندوقها وفراشها وكل معداتها هناك فجلست على بساط كانوا قد فرشوه لها في ارض الخيمة فلم يغط الا بعضها . وجلست أمة الله الى جانبها تحادثها وتلاطفها وسمية تنظر الى خارج الخيمة تتشاغل بما تراه من حركات الجند والعبيد والخيل والجمال وهي مستغرقة في الهموم . وكان في جملة ما شغل ذهنها كلب رأته ينهش خرقة سوداء ويلاعبها بين يديه فيقذفها ثم يعدو في اثرها عدوه الى فريسة على عادة الكلاب اذا لم تكن جائعة . فاتفق ان الكلب قذف فريسته فوقعت بين يدي سمية وحالما وقع بصرها عليها أجفلت وخفق قلبها ومدت يدها ففر الكلب من امامها

فامسكت الخرقة بانملتين ورفعتها وتفرست فيها فاذا هي ملوثة بالدم . وما لبثت ان قلبتها حتى صاحت « ويلاه هذا هو القباء . . . هذا هو قباء والدي قتل حسنا به ... »

فتناولته أمة الله من يدها وقد عرفته ولكنها جعلت تغالط سمية لتخفف عنها فقالت « كيف عرفت انه قباؤه والاقبية تتشابه »

فقطعت سمية كلامها وقالت « قد عرفته من هذا الوشي على هذا الكم فاني طرزته بيدي وأنا اعلم الناس برسمه » قالت ذلك وشرقت بدموعها ولم تنتظر جوابا من أمة الله وأخذت تبكي وتقول « قتلوه . . لم يبق عندي شك بقتله . . »

فقطعت امة الله كلامها وقالت « وما علاقة هذا القباء بقتله . . ؟ »

قالت « الا تتذكرين أن والدي اهداه اياه يوم عزمه على السفر وألح عليه بلبسه للوقاية من البرد . . ويل له من مشهد يوم عظيم . . ألبسه اياه واوعز الى من يقتله وكأنه اتخذ القباء دليلا عليه فاصابوا غرضهم منه . . وهذه هي بقية القباء وعليها الدم . فهل من شك أنهم قتلوه فما العمل الآن . . كيف نسلم انفسنا الى اناس قتلوا حبيبي ؟ .. » قالت ذلك وغصت بريقها

فقالت امة الله « سلمي امرك الى الله ولا تيأسي من رحمة الله . واعلمي ان ما يقدره الله فهو كائن .. واصبري فان الله مع الصابرين »

فلم تر سمية غير الصبر فصبرت نفسها . والمرء قبل وقوع المصيبة يتوهم انها اذا وقعت يستحيل عليه احتمالها وقد يتوهم ذلك ايضا اهله وذووه ولكنه متى وقعت لا يعدم سبيلا لاحتمالها والصبر عليها وأمثال هذه الحوادث كثيرة نراها كل يوم . ولا غرو اذا صبرت سمية بعد ما تحققته من مقتل حبيبها

وفي أصيل ذلك اليوم نودى الجند – الخيل الخيل – فركبوا بعد أن قوضوا الخيام ومشت الفرسان الى الامام وأصحاب الرايات بينهم وفيهم رؤساء القبائل يحيطون بطارق بن عمرو وكلهم بلباس اهل البادية الا هو فانه لبس درعاً فارسية كان قد جاء بها من العراق

أما سمية فانهم حملوها على هودج ومعها خادمتها ويقود خطام الجمل عبد ويسوقه عبد والى كل من الجانبين فارس على هجين . وكان طارق يتردد الى الهودج يتعهده ويسأل أهله هل يحتاجون الى شيء ثم يركض فرسه الى اطراف الجند يتفقده ويدبر شؤونه

الفصل الثاني والاربعون

عبد الله

فلنترك سمية في هودجها تفكر في مصير امرها ولنرجع الى المدينة للبحث عن عبد الله خادم حسن فقد تركناه راجعاً من بيت سكينة بعد ان أوصل سمية اليه . ثم سمعنا ان امة الله تخبر سمية انه جاء منزل والدها للسؤال عنها فلم يجدها فرجع على أعقابه ثم لم نعد نعلم ما أصابه . وتحرير الخبر ان عبد الله لما رجع من بيت سكينة اسرع لملاقاة سيده خارج باب المدينة وقد اشتغل باله بسمية وما سمعه من حديثها مع حسن في تلك الليلة وهو واقف بالجمل على حدة . وتصور مايحدق بسيده من الاخطار فضلا عن شواغل البال فسار مدة وهو غارق في هذه الهواجس وقد نسي نفسه فأخطأ الطريق وخرج من باب غير الذي خرج منه حسن وسار من طريق آخر يؤدي الى جهة اخرى . وكثيراً ما يتفق ذلك في مثل هذه الحال فيتجه الرجل شرقا وهو يعتقد انه يسير غربا . وبعد مسير ساعة وهو لا يرى راكبا ولا يسمع صوتاً وقد اشتد الظلام وقف ونظر الى ما يحدق به فاذا هو بين النخيل لا يرى الطريق ولا يدري اين هو . ولم يكن يعرف الاستدلال بالكواكب فحول سيره الى جهة اخرى فلم يصب المكان . وكان كل ما بعد عن المدينة استدل اليها ببعض ما يبدو فيها من الانوار فيرجع الى جوارها . وحدثته نفسه بدخولها ولكنه خاف ان يكون سيده في انتظاره ببعض ضواحيها ، ثم خطر له بغتة ان سيده ربما عاد الى بيت حبيبته لسبب من الاسباب فرجع عبد الله الى المدينة وجاء منزل عرفجة فلم يجد سمية هناك كما تقدم ، فعاد الى خارج المدينة وقضى ليلته في هذا الاضطراب

وقبل الفجر سمع جعجعة جمل يتألم فاقبل الى جهة الصوت وقد استأنس لانه يشبه صوت جمل سيده . فناداه بما تعود ان يناديه به من

الاصوات فازداد الجمل جعجعة وهو باق مكانه فاقبل اليه فاذا هو الجمل بعينه ولكنه لا يستطيع النهوض فادرك انه معقور فغاص عبد الله في الماء حتى دنا منه فأدار الجمل رأسه اليه كانه يحييه ويستنجده

فلما تحقق انه معقور ولم يجد حسناً عنده اضطرب وشغل باله فأسرع الى الرحل فنزعه عنه ووقف مدة وهو يفكر في ماذا عسى أن يكون من امر حسن . واشتد به الاضطراب والقلق ولم يخطر له ان يسأل عنه في بيت عرفجة لانه لم يجده هناك بالامس وخاف اذا سأل سمية عنه أن يزيد بلبالها بلا طائل . فخطر له أن يسأل عنه في المكان الذي باتا فيه ليلة وصولها المدينة مع ليلى الاخيلية فسار ومر في أثناء مسيره بمنزل عرفجة فتنسم الاخبار فلم ير أثراً لحسن ولم يشأ ان يسأل سمية للاسباب التي قدمناها فواصل السير حتى أتى البيت فلم يجد أحداً فجلس وقد أخذ التعب منه مأخذاً عظيما ووضع الرحل بين يديه وجعل يفتش فيه فوجد في جيبه اسطوانة مختومة وعليها اسم عبد الله بن الزبير فعلم انها الرسالة التي يحملها حسن الى مكة . فلما رآها زاد قلقه وقال في نفسه لو ان حسناً ترك الجمل باختياره لحمل هذا الكتاب معه لانه انما جاء هذه الديار من أجله . فترجح لديه انه قتل أو اصيب بشر عظيم فقضى نهاره وهو لم يذق طعاماً — تارة يندب مولاه وطوراً يعلل نفسه بلقياه . ولم يغادر سوقاً ولا درباً من دروب المدينة إلا مر به وهو يتفرس في وجوه الناس ويتنسم الاخبار فلم ير الا انهماك الناس باعداد النجدة للحجاج عملا بما حمله البريد اليهم . وبات تلك الليلة في المدينة وهو يفكر في ماذا يعمل فقر رأيه أخيراً ان يحمل كتاب خالد الى عبد الله بن الزبير في مكة فيتم المهمة التي جاء حسن من أجلها على أن يبحث في أثناء ذلك عن سيده

الفصل الثالث والاربعون

عبد الله بن الزبير

هو عبد الله بن الزبير بن العوام أحد كبار الصحابة . وكان لما توفي معاوية وبويع لابنه يزيد قد انكر ابن الزبير بيعته كما انكرها الحسين بن على وخرجا من المدينة الى مكة ودعا كل منهما بالبيعة لنفسه . ولكن عبد الله لم يكن يتظاهر بذلك والحسين في مكة لعلمه انه أولى منه بها . حتى اذا كان ما كان من شخوص الحسين الى الكوفة ومقتله في كربلاء خلا الجو لابن الزبير فبايعه الناس واستفحل أمره وجعل عاصمته مكة وبايعه اهل الحجاز واليمن فعظم أمره على بني أمية فحاربوه فلم يفلحوا فلما كانت خلافة عبد الملك ابن مروان حاربه أيضاً ولم يبلغ منه وطراً

وكان الحجاج يومئذ أميراً من أمراء عبد الملك ولعبد الملك ثقة في شجاعته وكان الحجاج راغباً في الخروج على عبد الله فاحتال على عبد الملك برؤيا قال إنه رأى نفسه فيها وقد أخذ ابن الزبير وسلخه وطلب من عبد الملك ان يشخصه اليه فاشخصه في ثلاثة آلاف من أهل الشام وأعطاه كتاب أمان الى ابن الزبير ومن معه ان اطاعوا واوصاه ان يرفق بالكعبة

فسار الحجاج سنة ٧٢ ه وحارب ابن الزبير في مناوشات لم يتم الفوز فيها لاحد الجانبين فمل الحجاج المطاولة فبعث الى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير فأذن له وأنجده بخمسة آلاف آخرين فاشتد ازر الحجاج فحصر الكعبة ورماها بالمنجنيق . فعظم ذلك على المسلمين وانبوه عليه ولكنه لم ير سبيلا الى الفوز الا به وطال الحصار على أهل مكة حتى قل زادهم وأصابهم جوع شديد . وكانت مكة يومئذ قليلة الابنية ليس فيها غير المسجد وفي وسطه الكعبة وبعض الابنية وكانت الكعبة قد تهدمت في حصارها قبل مجيء الحجاج فأعاد ابن الزبير بناءها على أوسع مما كانت عليه

ونصب الحجاج المنجنيق على جبل أبي قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق

وكان ابن الزبير مقيما مع أهله في المسجد الحرام ومعه جماعة من رجاله قد بايعوه الى الموت وهو صابر صبر الرجال . وأما الحجاج فكان من جملة مساعيه في تضييق الحصار على عبد الله انه بعث سراياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول اليها والخروج منها . ولما طال أمد الحصار على الحجاج ولم يسلم المحاصرون استنجد طارقا أمير المدينة كما تقدم

الفصل الرابع والاربعون

محمد بن الحنفية والمختار

فلنرجع الى حسن بعد ان تركناه وقد خرج من المدينة على جمل اهداه اياه ابو سليمان ومعه العبد بلال . فبعد مسيرة ايام اشرف على مكة نحو الغروب فرآها محاطة بشراذم من الفرسان يطوفون حولها . فقال بلال « اني أرى الطلائع الاموية حول مكة ولا آمن اذا واصلنا السير أن يمنعونا وهم كثار فهل تأذن لي بالخروج اليهم والاستفهام عن حالهم ثم أعود اليك ؟ »

قال حسن « سر ولا تبطىء فاني انتظر رجوعك على عجل بجانب هذا الحائط »

فمشى بلال وتحول حسن الى حائط بعيد عن الطريق العام كأنه أثر بناء قديم وترجل وعقل جمله وراء الحائط واتكأ الى جانبه بحيث لا يراه أحد من المارة . ولبث مدة وقد طاب له الاتكاء لعظم ماقاساه من الجهد في اثناء ركوبه الطويل من المدينة الى مكة فاحس براحة لذيذة ولكنه ما لبث ان رأى الشمس تغرب والظلال تتقلص وبلال لم يرجع . فلما آن العشاء استبطأه وحسب لتأخره غير حساب ووقف ثم تسلق الحائط وجعل ينظر الى الافق لعله يراه قادما

وهو يفكر في أمره سمع نحنحة بلال فالتفت فرآه قادما يعدو عدو الغزال والارض رملية لايسمع وقع الخطى عليها فلما وصل بلال استطلعه حسن فقال « لا سبيل لنا الى مكة الليلة لان رجال الحجاج مضيقون عليها من كل ناحية حتى لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد »

قال حسن « وما الحيله ؟ . لابد من دخولنا »

قال « الحيلة يا مولاي ان نصبر الى الغد لابحث عن سبيل دخولنا »

فقال « أنبقى وراء هذا الحائط الى الغد ؟ »

قال « كلا يا مولاي . . فقد دبرت وسيلة أظنها تريحك وتسهل عليك الدخول . . »

قال « وما هي ؟ »

قال « اتعرف محمد بن الحنفية ؟ »

قال حسن « اليس هو ابن الامام علي من احدى سبايا بني حنفية [1] وأخا الحسن والحسين من أبيهما . . ؟ كيف لا أعرفه . . »

قال « ان لهذا الرجل حرمة عند الحجاج وعند ابن الزبير فلعلنا اذا وسطناه ادخلنا مكة على أهون سبيل »

قال « كيف تكون له هذه الحرمة وهو عدو لابن الزبير ولعبد الملك لانه يسابق الاول على الخلافة في الحجاز ويسابق الآخر على الخلافة في الشام . . ألم تسمع بحديث المختار . . »

فقال بلال « كيف لم اسمع به »

فقال حسن ولم ينتظر اتمام جوابه « ألم يكن المختار مطالبا بالخلافة لمحمد بن الحنفية ثم قتله مصعب اخو عبد الله بن الزبير واستخلص العراق منه لاخيه عبد الله المحصور في هذا الحرم الآن حتى جاء عبد الملك بن مروان بنفسه وحارب مصعبا وقتله وأخذ العراق منه »

قال « صدقت يامولاي اني لا أخالفك بهذا الامر ولكن المختار طلب البيعة لابن الحنفية هذا وهو لم يكلفه ذلك ولا أراده وانما أراد المختار

(١) ابن خلكان ج ١

الالتجاء الى ولد الامام على للاستقلال بالامر لنفسه . . فحمل ذلك الكرسي المشهور أمره عند الناس كافة وقال انه كرسى الامام على وادعى ما يشبه النبوة حتي كرهه الناس ونفروا منه . . »

فقال حسن « هل رأيت ذلك الكرسى وهل تعرف أصله . . ؟ »

قال « ان سر هذا الكرسي عندى وطالما جلست عليه قبل أن يصبح مقدساً كما ادعى المختار . . »

قال « وكيف ذلك يابلال . . . يظهر لى أنك واسع الاطلاع . . »

قال « ان الذى يعيش طويلا يرى كثيراً . . فقد اتفق لي منذ بضع سنين وأنا في المدينة اني اصطحبت رجلا اسمه الطفيل بن جعدة بن هبيرة وكان بجانب بيته رجل زيات كان الطفيل يتردد اليه وأتردد أنا اليه أحيانا فاتفق أن الطفيل اصيب بضيق ولم يبق معه ما ينفق على نفسه . وكان المختار يومئذ قد قام لمحاربة قتلة الحسين فأراد الطفيل أن يحتال حيلة يكسب بها مالا وكانت جدته ام جعدة اخت على بن أبي طالب وكان عند جاره الزيات كرسي قديم قد ركبه الوسخ فأخذه من الزيات وغسله فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو يلمع ثم ذهب الى المختار وقال له « اني كنت أكتمك شيئاً وقد بدا لى أن أذكره لك . ان ابى جعدة كان يجلس على كرسى عندنا ويروى ان فيه أثراً من على » فقال له المختار « سبحان الله لماذا اخرته الى هذا الوقت ابعث به » فبعث به اليه وقد غشاه بعلاءة فدفع له اثني عشر الف درهم . فاخذها الطفيل وانصرف [1] فاخذ المختار الكرسي فغشاه بالديباج وزينه بانواع الزينة ودعا الناس الى المسجد . وبعد الصلاة قال « ان هذا الكرسي من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني اسرائيل » فصدقوه وصار اذا حارب خصومه يضع الكرسي في براح الصف ويقول « قاتلوا ولكم الظفر والنصر هذا الكرسي محله فيكم محل تابوت بني اسرائيل وفيه السكينة والبقية والملائكة من فوقكم ينزلون مدداً لكم [2] ولكن هل تظن يامولاي أن محمداً كان يصدقه

---

(١) ابن الاثير ج ٤ (٢) الملل والنحل ج ١

ويريد أن يدعو باسمه . . . ؟ والذي يعرف ابن الحنفية يجله عن أن يقبل بتلك الدعوة . . »

فقطع حسن كلامه وقال « ألعلك تعرفه يا بلال معرفة جيدة ؟ . . »

قال « نعم يامولاى . . . وقد شهدت منــه كثيراً مما يتناقله الناس من أحاديث قوته البدنية . واذكر اني رأيته في حياة والده الامام علي وكنت غلاماً وفي يد أبيه درع طويلة فاراد أن ينقص بعض حلقاتها فدفعها الى محمد وأمره أن ينقص منها كذا وكذا حلقة فقبض محمد باحدى يديه على ذيلها وبالاخرى على فضلها ثم جذبها فقطعها من الموضع الذى حده أبوه [(١)] وقد شاهدته مراراً وهو يعرفني أيضاً . . . »

فقال حسن « وهب انك تعرفه أو يعرفك فما الغرض من ذلك ؟ »

قال « الغرض من ذلك انه مقيم الآن في الشعب بجوار مكة [(٢)] فاذا شئت نزلنا عنده الليلة ثم نرى ما يكون في الغد »

فقال « وهل تعرف الطريق اليه ؟ »

قال « عرفته في اثناء غيابي عنك الآن لاني عاهدت نفسي أن لاارجع قبل أن أدبر هذا الامر لــكي تكون في راحة . فقد أوصانى مولاي أبو سليمان فيك خيراً وأراك أهلا لذلك . . فانا خادمك حتى تصل مأمنك . وتفرغ حاجتك مني »

فقال حسن « بورك فيك . . . » وأخذ يهيء رحله للركوب وبلال يساعده ويقول « انى ارى مكة في ضيق شديد وأخاف على ابن الزبير من عاقبة هذا الصبر فان الامويين سيغلبون على ما أرى »

فتذكر حسن ماهو قادم من أجله وخاف الفشل ولــكنه صبر نفسه ريثما يدخل مكة في الغد

---

(١) ابن خلكان ج ١ (٢) ابن الاثير ج ٤

الفصل الخامس والاربعون

شعب علي

ثم ركب حسن وسارا الى يسارهما حتى أتيا أرضا صخرية مشيا بين شقوقها ثم صعدا تلالا وبلال الدليل وحسن لا يعرف الى أين يسير . ولكنه مالبث ان رأى ناراً فعلم أنه أشرف على الشعب والنار نار القرى على جارى العادة عند العرب . وهم أن يسأل بلالا عن ذلك فاذا هو يقول له « اننا على مقربة من الشعب وعما قليل تبدو لنا الخيام ونسمع صهيل الخيل فهل تريد ان ننزل في دارالاضياف رأساً أم نقصد خيمة الامير نستأذنه ونخاطبه في أمر دخولنا مكة ؟ »

قال « أخشى أن يكون من مسيرنا الى خيمته مايزعجه والاليق بنا ان نصابحه في الغد »

قال « فلنذهب اذا الى دار الضيافة فانهم لا يسألون القادم اليها عن سبب قدومه ومتى اصبحنا نرى ما يكون . وربما خرجت انا الليلة لادبر الامر وانت مستريح »

فاثنى حسن على غيرته . وبعد قليل بانت لهما الخيام وهي عديدة منصوبة على غير نظام في نحو منتصفها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف بعض الخدم ببابه انه فسطاط محمد بن الحنفية فوقف بلال برهة وهو يتفرس في الخيام من خلال ذلك الظلام حتى تبين خيام الاضياف وقد عرفها من انفرادها عن سواها وقربهامن النار . فتحول وحول الجمل حتى دنوا من الخيم فسمعا لغطاً وكلاماً فعلما أن الناس غير نيام . فترجل حسن وسبقه بلال الى أقرب الخيم فلقيه رجل رحب به وسأله عن جهة مسيره وطلب اليه أن ينتسب فانتسب وقال اننا أضياف غرباء . فانزلهما على الرحب والسعة وأدخلهما خيمة ليس فيها أحد . فدخل حسن وظل بلال خارجا يهتم بالجمل فتناوله منه أحد الخدم وأخذه الى المعالف وعاد بلال الى حسن فاذا هم

قد أعدوا له طعاما فاكل ثم توسد للاستراحة فاستأذنه بلال بالخروج على أن يعود بعد قليل وينام بباب الخيمة

وتوسد حسن على فراش من جلد فرشوه له وكان التعب قد أخذ منه مأخذا عظيما فغلب النعاس عليه فنام سريعا ولكن هواجسه لم تنم معه فتحولت الى احلام مزعجة فتصور المهمة التي جاء بها وانه دخل مكة وقد دخلها الحجاج وقبض عليه وحبسه واغله بالحديد . فشق ذلك عليه وانزعج وافاق من نومه مذعوراً فشكر الله لان ذلك كان في الحلم . ولكنه تشاءم منه وغلب عليه الارق فجعل يتقلب والنوم لايأتيه . فاراد استدعاء بلال لعله يقص عليه خبراً يتسلى به ريثما يطلع النهار وتذكر انه نام بباب الخيمة فناداه فلم يجب فظنه مستغرقا في النوم فنهض حتى أتى الباب ورفع السقف فلم يجد أحداً فالتفت الى السماء وتفرس في النجوم فعلم أنه في الهزيع الثالث من الليل فاشتغل باله على بلال . فالتف بردائه الى فوق رأسه التماساً للدفء وخرج ليبحث عنه بجوار الخيمة

الفصل السادس والاربعون

قادم غريب

وفيما هو يدور حولها سمع جمجمة جمل قادم نحو الخيم فالتفت فاذا هناك جملان على أحدهما راكب والثاني عليه شبه هودج يقوده رجل ماش ولم يستطع حسن تبين الوجوه لاشتداد الظلام فتبادر الى ذهنه أن رجلا وامرأته وخادمه قادمون للمبيت هناك الى الصباح . ولكنه استغرب مسيرهم في أواخر الليل بجوار مكة وهي في حال الحصار الشديد . فتحول حسن الى خيمته فدخلها وفي نفسه حب الاطلاع على حقيقة القادمين — وحب الاطلاع في مثل هذه الحال طبيعي قل أن يصبر عنه انسان . فجعل حسن

يتطلع من شقوق في الخيمة تطل على القادمين فرأى أن الجملين حال وصولهما الى المضيف أنيخا ونزل الراكب وهو رجل قصير القامة قد تلثم بعمامته والتف بعباءته . وحالما ترجل جاء الرجل الذي كان ماشيا يقود الجمل فاذا هو عبد كبير الجثة سريع الحركة فاستلم العبد الجمل وعقله بجانب الجمل الآخر وهو يقول « أترى يا مولاى أن ابقى هنا مع الجملين ام أسير في خدمتك ؟ »

فقال له بصوت منخفض « امكث انت هنا واحتفظ بما على الجمل فانه أعز شيء عندي كما لا يخفى عليك »

قال « هل اسير في خدمتك الى خيمة الاضياف . . »

قال « لست ذاهباً الى المبيت . . . امكث انت ريثما أعود اليك . . . واذا شئت المبيت فلا بأس لكن احترس على هذا الجمل وما عليه . . . »

قال ذلك ومشى

وكان حسن يسمع الكلام ويري الاشباح ولكنه لم يعرف أحداً على أنه مازال يعتقد انهم رجل وامرأة وخادمهما وتوقع ان يرى الامرأة نازلة من الهودج فحول نظره بعد ذهاب الرجل الى الهودج فرآه لا يزال مجللا بغطائه ثم رأى العبد عاد الى الجمل الذي يحمل الهودج وجلس بظله واتكأ على بطن الجمل ولم يكد يسند رأسه حتى سمع شخيره وقد نام نوماً عميقاً فاستغرب حسن ماراآه وكان قد تعب من الوقوف والتشوف فعاد الى فراشه وفكره مضطرب كأن قلبه دله على امر يهمه . وبعد ان جلس على الفراش عاد الى باب الخيمة للبحث عن بلال وقد اشتغل باله لغيابه فاطل رأسه من الباب وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد أحداً وحال الظلام بينه وبين الاشباح البعيدة فعاد الى فراشه وقد غلب الارق عليه واحدقت الهواجس به فحدثته نفسه ان يخرج الى ذلك العبد ويستفهم منه عن امرهم فخاف ان يسمع منه ما يخجله فقال في نفسه « لو كان بلال هنا لكلفناه بهذه المهمة وهما عبدان يسهل التفاهم بينهما »

الفصل السابع والاربعون

كشف المعمى

وفيما هو في تلك الهواجس سمع وقع اقدام خارج الخيمة من جهة الباب فعلم ان بلالا قادم ولكنه لم يشأ ان يناديه لئلا ينتبه العبد النائم بجانب الجمل . فوقف ومشى الى الباب فاذا هو بلال بعينهوقد اتكأ فناداه فلما سمع بلال صوت حسن وقف حالا وقال « ما الذي ايقظك في أواخر هذا الليل يا مولاي »

قال وهو يشير اليه ان يخفض صوته « لقد استيقظت من مدة طويلة وشغل خاطري لغيابك ثم رأيت بعض الناس انزلوا جمالهموراء خيمتناوظهر لى من امرهم ما اقلقني ولا يفرج كربي سواك »

قال « لبيك يامولاي . . . ما الذي تبغيه مني اني اطوع من بنانك »

قال « هل مررت من وراء هذه الخيمة ؟ »

قال « كلا وانما جئت من هنا »

قال « تعال » وأمسكه بيده وجره الى داخل الخيمة وأراه الجملين والعبد نائم تحت الهودج وقص عليه ماكان من امرهم الى أن قال « فاذا استطعت مخاطبة هذا العبد والاستفهام منه عن غرضهم منهذا القدوم افعل فاني اشعر بقلق حتى اعرف ذلك »

قال « ذلك اهون ما يكون علي » قال ذلك وخرج من باب الخيمة ودار حتى دنا من الجملين وحسن يتشوف عليه من شق الخيمة فرآه يقترب من العبد رويداً رويداً حتى دنا منه وتفرس في وجهه والعبد نائم ثم انكفأ بلال راجعا وهو يهرول مسرعاً حتى دخل الخيمة فلاقاه حسن وهو يعجب من رجوعه عاجلا فقال له « لماذا لم تخاطبه »

قال « لاني عرفته وعرفت حكايته بدون سؤال »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « اجلس لاقص عليك سبب غيابي وفيه ما يغنيك عن كثرة البحث .. نمت في اول هذا الليل بباب هذه الخيمة ولكنني ما لبثت ان استيقظت واشتغلت بالتفكر في مصيرنا واننا اذا لم نستطع غداً مقابلة الامير طال مكثنا . وخفت من جهة أخرى ان يكون علينا بأس اذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا فرأيت أن امهد هذه العقبات في هذا الليل وأنت نائم فنهضت وسرت الى رجل من المقربين الى الامير وقد عرفته من ايام المدينة ولي عليه دالة . فلقيت الرجل في خيمته بقرب خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح وقد زاد صاحبي تقربا وكرامة حتى صار يدخل عليه من باب خاص دون سائر الناس فلما اتيته رحب بي واكرمنى وسألني عن أمرى فقلت له اننا جئنا نلتمس من الامير وسيلة ندخل بها مكة . فوعدني خيراً ثم اجلسني وجعل يسألني عن حوادث مرت بنا قديماً وامور يهمه الاطلاع عليها وكلما هممت بالنهوض أقعدني حتى طال بى الجلوس وبينما انا أهم بالنهوض سمعنا وقع أقدام خارج الخيمة على غير انتظار فاقعدني صاحبي وخرج وهو يقول (من الرجل) فاجابه (انا عرفجة) وانا اعرف رجلا اسمه عرفجة كان يتردد على عامل المدينة وكنت اذا ذهبت الى دار الامارة رأيته . فخرجت لاتحقق ظنى فرأيت الرجل ملثما ولكننى تحققته من صوته وقامته »

ولما بلغ بلال الى هنا انتبه حسن الى الصوت الذي سمعه من الرجل لما اناخ الجملين فتذكر انه يشبه صوت عمه عرفجة فبغت واستغرب مجيئه في هذا الليل وتبادر الى ذهنه انه ربما علم بقدومه فجاء للوشاية به لدى ابن الحنفية ولكنه استبعد ذلك لعلمه أنه ليس على وجه البسيطة رجل عرف بخروجه من المدينة غير سلمان وأبيه وخادمه بلال وهو معه . ثم هب ان عرفجة عرف بمسيره الى مكة فمن أخبره انه في هذا الشعب ــ فاستبعد حسن ان يكون قد جاء المكان لاجله . ولكنه عاد الى الافتكار بالهودج وقال في نفسه لا يبعد ان تكون سمية فيه لان عرفجة غير متزوج وليس عنده من

النساء الا ابنته ولما تصور سمية في ذلك الهودج خفق قلبه وتصاعد الدم الى وجهه . كل ذلك وبلال واقف بين يديه ينتظر اشارته لاتمام حديثه

فقال حسن « وهل عرفت الغرض من قدوم هذا الرجل في هـذا الليل ؟ »

قال « كلا يامولاي لاني رأيته يخاطب صاحبي همساً فشعرت انه قد آن ذهابي فرجعت ولما رآني صاحبي راجعاً ناداني اليه وقال « موعدنا غـداً ان شاء الله » فعلمت أنه لا يزال على وعده فاتيت على ان انام بالباب ولا تشعر أنت بي الى الصباح »

فقال « وما الذي رأيته في هذا النائم بجانب الجمل ؟ »

قال « حالما دنوت منه عرفت انه قنبر خادم عرفجة وهو عبد سمج الخلق فظ الطبع يعرفه أهل المدينة بذلك »

قال حسن « وماظنك بمن في الهودج ؟ »

قال « لا أظنه هودجاً وانمـا هو محفة . ولا يبعد أن يكون فيها بعض النساء أو ربما كانت فيه ابنته سمية لانه ليس له سواها »

الفصل الثامن والاربعون

حديث

فلما سمع حسن اسم حبيبته تجددت أشجانه وتذكر ان بلالا لا يعلم شيئاً من أمره مع سمية فضاقت نفسه عن كتمان سره ولـكنه تجلد وقال « اتظنه يحمل ابنته معه الى هذه البلاد في هذه الاحوال ؟ »

قال « لا أخاله يفعل ذلك ثم هب انه حملها فلا اظنه كان يستبقيها محبوسة فيه ولا نسمع لها صوتاً واذا فرضنا انها نائمة فالمحفة لا تكفي للنوم لصغرها . . »

فاطمأن بال حسن من قبيل سمية ولـكنه ما زال مشتغل الخاطر في

أمر المحفة فأراد ان يعود الى الاستفهام فاذا ببلال قد ابتدره بغتة وقال« لا ليس في المحفة فتاة ولا امرأة قد تذكرت الآن ان لهذا الرجل محفة قد احتفظ بها في منزله ولا يطلع احداً على مافي باطنها فلعلها هي تلك المحفة وأهل المدينة مشتاقون لمعرفة سرها »

فازداد حسن قلقاً لمعرفة سر هذه المحفة ولكن هذا القلق ضاع في قلقه على سبب مجيء عمه في هذا الليل . قال حسن « أي متى نذهب الى ابن علي ؟ »

قال « عند طلوع الشمس »

فتحول حسن الى الفراش ورجع بلال الى منامه . وقضيا ما بقي من الليل بين نوم وتقلب وهواجس ولما طلع النهار نهضا وخرجا الى الخيام فالتفت حسن اولا الى الجملين وراء خيمته فلم يجد لهما أثراً فظن عرفجة سافر فمشيا وتأملا في تلك الخيام فاذا هي على مرتفع من الارض متشعب وللجبال مسارح والمكان اشبه ببلد صغير وقد خرجت الخدم لتسريح الجمال وعلفها وعلف الخيول

فسارا حتى أتيا خيمة الامير فاذا هي من الادم ولكنها واسعة حتى تسع عشرات من الناس قائمة على عمد عديدة . ورأيا باب الخيمة مسدلا فعلما ان محمداً في شاغل سري فتحولا الى خيمة صاحب بلال وهي ملتصقة بتلك . فلما دخلا عليه رحب بهما وأدخلهما وهو يشير اليهما ان لا يتكلما . فدخل حسن ونظر من كوة في تلك الخيمة تطل على خيمة الامير فرأى محمداً جالساً وبين يديه رجل قصير القامة عرف حسن حالا انه عرفجة . فقال في نفسه هذه فرصة لا ينبغي أن نضيعها بل يجب ان نطلع على سر هذه المقابلة . وتفرس حسن بمحمد فاذا هو كبير الوجه وقد بانت فيه ملامح الشيخوخة وهو لا يزال كهلا ولكنه كان يخضب لحيته بالحناء والكتم[1] فلا يظهر فيها الشيب على أن دلائل القوة لا تزال ظاهرة في كفيه ووجهه وعينيه

---

(١) ابن خلكان ج ١

وخاف حسن ان يكون في مكثهما هناك ما يعاب بهصاحب بلال فاراد ان يعتذر منه فتظاهر بالرغبة في الخروج فقال له « تفضل يامولاى واجلس فاني احب الاطلاع على غرض هذا الرجل من هـذه المقابلة السرية التى يزعم انها ذات بال ولقد ساءني بخشونته حتى صرت لا أبالى بكتمان سره »

ففرح حسن لاستياء صاحب الخيمة لانه سينال به بغيته ولكنه تظاهر بعدم اكتراثه بالاطلاع على السر وجلس بحيث يرى ولا يرى فرأى عرفجة جالساً بين يدي ابن الحنفية جلوس الاحترام وهو يخاطبه ومحمد مصغ لما يقوله . فكان في جملة ما سمعوه من قول عرفجة « أنت تعلم أيها الامام انك أولى الناس بهذا الامر بعد الحسن والحسين سيدي شباب اهل الجنة . ان الخلافة بعدهما لك فأنت وحدك ولى هذا الامر وليس بنو أمية الا مختلسين . . »

وظل محمد صامتاً لا يتكلم فظنه عرفجة راضياً بما يقول فاستأنف الكلام قائلا « وانت تعلم يامولاي ان المختار رحمه الله قد قام بدعوتك ولكنه لم يثبت في عهده فلم يوفقه الله الى امره . وان السر الذي كان هو يقوم به لجدير ان يقوم به واحد تنتدبه أنت لئلا يبقى الناس على ضلال من دنياهم فيخسروا أخراهم »

الفصل التاسع والاربعون

السر

وظل محمد صامتاً يطرق في البساط كأنه يفكر في أمر آخر وظل عرفجة في حديثه فقال « ولا يخفى على مولاي الامام أن بني أمية الآن مشتغلون بعبد الله بن الزبير وأكثر جندهم عاملون في حصاره والعراق خال ممن يدعو أهله الى الحق فاذا انتدبت أحداً وسيرته الى العراق يدعو الناس اليك كان ذلك من سداد الرأي . . »

فرفع محمد رأسه وقال « ان الفشل لم يأتنا إلا من العراق فان فى العراق قتل أبي وأخي غدراً وخيانة »

فزحزح عرفجة نفسه باحتشام على البساط وقال « ان السبب فى ذلك الفشل لم يبق منه شيء الآن . واني أرى السبل قد تمهدت والوقت دنا لظهور الحق »

فقال محمد « ومن ترى يليق لهذه الدعوة ؟ »

قال « الذي تنتدبه أنت هو الرجل لانك ستضع سرك بين يديه وتعهد اليه النداء بصوت الله . . »

قال « ومن تشير على بانتدابه »

فسكت عرفجة وأطرق وهو يخاف أن يسرع بالتصريح أن يكون هو المنتدب لهذه المهمة لئلا يسيء به الظن فلبث برهة صامتاً ثم قال « ان هذا الانتداب لايكون إلا بالهام الله سبحانه وتعالى . فالذي يلهمك الله به فهو الذي تنتدبه »

قال « واذا فرضنا ان الله لم يلهمني . . ؟ »

فارتبك عرفجة في أمره وتهيب من التصريح له بغرضه . وكان غرضه الاول من هذا الامر كسب المال فباع ابنته للحجاج وجاء لنصرة عدوه

وكان محمد بن الحنفية يومئذ على الحياد وقد طلب الحجاج منه أن يبايع لعبد الملك وطلب منه ابن الزبير أن يبايع له فابى البيعتين ولبث في انتظار ما يكون من أمر مكة وحصارها فاذا لم يكن بد من بيعة فانه يبايع الغالب

وكان محمد عاقلا لا يجهل عجزه عن القيام بدعوة جديدة بعد هذا الفشل ولكنه كان يباسط عرفجة بالكلام وهو لا ينوي غير الحياد

أما عرفجة فلم ير بدأ من الاجابة فقال « اذا لم تشعر بالهام فانتدب صاحب الكرسى »

فقال محمد « وأي كرسي ؟ »

فنهض عرفجة للحال وتحول الى باب الخيمة ونادي « قنبر » ورجع

وبعد هنيهة دخل قنبر وعلى كتفه المحفة وعليها ستار حتى وضعها بين يدى محمد وخرج . فقال محمد « وما هذا ؟ »

قال « هذا تابوت العهد ... » قال ذلك واستخرج من جيبه مفتاحاً ورفع الستار عن المحفة وجعل يعالجها بالمفتاح حتى فتحت فرفع سقفها وحسن ينظر ويتطاول بعنقه وهو يعجب من غدر هذا الرجل وخبثه . ثم مالبث أن رآه مد يده الى داخل المحفة واستخرج شيئاً مغشى بالديباج فرفع الديباج عنه فاذا هو كرسى خشبه يلمع كالمرآة

وتقدم عرفجة بالكرسي حتى وضعه بين يدي محمد وهو يقول « أليس هذا كرسي الامام على الذي انتصر به المختار . . . ؟ »

فابتسم محمد وقال « ولكنه فشل بعدئذ »

قال « فشل لانه لم يخلص النية في سعيه »

فقال محمد « وهل اذا انتدبناك لذلك تخلص النية ؟ »

قال وقد بان السرور في أسرة وجهه « كيف لا ؟ وهذه بغيتى وأكون قد نصرت الحق وأهله »

الفصل الخمسون

الفشل

فعجب حسن لقبول محمد بهذا الامر مع علمه بسوء نية عرفجة وحديث الكرسى ولكنه مالبث ان سمع محمداً يقول له « ولكن دعوة أهل العراق تحتاج الى المال لان بنى أمية انما غلبوا اخوي بالمال وسيغلبون اللائذ بالكعبة بالمال أيضاً فان ديارهم غنية وعندهم المال كثير ينفقونه في ابتياع الاحزاب فاذا كنت صاحب مال فانى ارجو لك النجاح »

فلما سمع عرفجة كلام محمد اسقط في يده وخاب ما امله ولم يدر بماذا يجيب ولكن محمداً لم ينتظر جوابه فقال له « ثم اتيتني بهذا الكرسى الذي تزعم انه كرسي والدى وهو لبعض الزياتين . وتزعم انى انتدبت المختار

ليدعو لي وهو وهم باطل لان ذلك الثقفي انما انتدب نفسه ليشبع بطنه . واذا كنت أنت جائعاً فالتمس باباً آخر غير هذا . . . » قال ذلك وقد ظهر الغضب والجد في وجهه

فارتبك عرفجة في أمره وتحقق فشل مهمته وقد قضى بضعة اعوام في تمميق ذلك الكرسي وصقله وشغل بال اهل المدينة بكتمان ذلك السر أعواماً وهو لا يشك اذا عرض هذا الامر على محمد بن الحنفية ان يؤانس منه قبولا صريحاً فيبتز منه المال ليشبع مطامعه وشرهه ويضيف ذلك المال الى ما قبضه ويقبضه مهراً لابنته من الحجاج – ومن الناس من لا يقف في سبيل الكسب وهم في الغالب اصحاب الاحساس الاصم والعواطف المائتة . ومن كان هذا طبعه وكان ذا دهاء وسياسة لا يعسر عليه عمل مهما كان خطيراً . ولكن منهم من تموت عواطفهم ويصم احساسهم ويكونون مع ذلك ضعاف الرأي فهؤلاء يندر ان يوفقوا في سعي كبير ويغلب الفشل في مساعيهم كما حدث لعرفجة في أمر الكرسي

فلما تبين عرفجة الغضب في عيني محمد عمد الى الخديعة فوقف بين يديه وهو يظهر الاستغراب مما شاهده وقال « عجلت يامولاي بالحكم على وانا انما ادعوك الى أمر عائدته لك ولاهل بيتك لا التمس على ذلك اجراً ولا شكوراً . . »

فقطع محمد كلامه وهو ينظر اليه شزراً وقال « أتظن امرك يخفى على والعاقل يقرأ المكر والخديعة في عينيك . ولولا حرمة الجوار لالحقتك بالمختار وألحقت بك بني ثقيف . . ويكفي ما قد بدا . . » ثم نادى « سعيد »

فنهض صاحب بلال وهو يكاد يطير من الفرح واسرع حتى دخل على محمد وحسن وبلال ينظران وكلاهما مسرور

الفصل الحادي والخمسون

الرجوع

فلما وقف سعيد بين يدى محمد قال له « ألق هذا الكرسى فى النار حالا . . واخرج هذا الثقفى من خيمتى وليقم حيثما شاء واذا رحل فزودوه بما شاء »

فلما سمع عرفجة ذلك خرج من تلقاء نفسه وهو يظهر الاسف لانه نصح محمداً ولم يثمر نصحه فيه وتبعه سعيد حتى خرج من الفسطاط فجعل يبحث عن عبده قنبر فلم يجده فسأله سعيد عما يبغيه فقال « انى راحل الى بلدى وقد أسفت لان الامام محمداً لم يفهم مرادى » قال ذلك وهو يبدى اللطف خوفاً على حياته . فوجد سعيد فرقاً عظيما بين مقابلته الخشنة ساعة وصوله في مساء الامس وبين ما يبديه من التزلف ـ وذلك هو شأن أمثال هذا الرجل فان الذين يظهرون الكبرياء ويستبدون باصاغر الناس يغلب اذا لاقوا ضغطاً من كبير أن يستولى عليهم الذل وصغر النفس . لان ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم ينجم عن نفس كبيرة وانما هي خفة وضعف رأي وأما كبير النفس فلا يسوم الناس اهانة مخافة أن يجاب بمثلها ونفسه تأبى ذلك

فلما رأى سعيد تزلف عرفجة رق له فعرض عليه النزول في دار الاضياف فاعتذر برغبته فى الرجوع ونادى قنبراً وكان قد عاد الى الموقف الذى انتقلوا اليه في ذلك الصباح فجاء وقد ذل كما ذل سيده فركب عرفجة جملا وقنبر الجمل الآخر وخرجا من الشعب يلتمسان معسكر الحجاج

فلما بعدا عن الخيام أخذ عرفجة يتوعد محمداً بالسوء عند الحجاج ويذكره بكل قبيح من الشتم والسباب ليستر مابدا لعبده من فشله . ولو خاف بلوغ ذلك السباب اليه لما قاله

أما سعيد فانه عاد الى فسطاط محمد وتناول الكرسي والقاه في النار

وعاد الى حسن وبلال وكانا لا يزالان في خيمته وقد أبرقت أسرة حسن من الفرح . فلما دخل سعيد وأخبرهما بخروج عرفجة من الخيام عاد حسن الى التفكير في الذهاب الى مكة فسأل سعيداً عن ذلك فقال « أظنني اذا سألت مولاى الامام عن هذا الشأن أمر بذهابي معكما لأني تعودت الذهاب في ذلك من قبل وأكثر الطلائع يعرفونني » قال ذلك ودخل على محمد يستأذنه في الذهاب معهما فأذن له

فعاد سعيد اليهما وأخبرهما فخرجا الى دار الاضياف ليتأهبا الى السفر وبعد قليل جاءهما سعيد على جواد فركبوا وساروا يلتمسون مكة من طريق يعرفه سعيد وكانت الشمس قد تكبدت السماء

الفصل الثانى والخمسون

يا شوقي والحبيب قريب

وهم يسيرون وحسن يفكر في مهمته وكيف يدخل على عبد الله بن الزبير بدون كتاب خالد رأوا غباراً يتصاعد في عرض الافق من جهة طريق المدينة ثم انقشع الغبار عن أعلام تخفق وخيول تركض وجمال تجعجع فلما اقترب الركب تفرس حسن بالاعلام وبالناس فعلم أنهم من أنصار بني أمية وعلم من جهة مسيرهم انهم قادمون من المدينة وتذكر البريد الذى جاء المدينة يوم خروجه منها فترجح عنده انها نجدة الحجاج

ولكنه استغرب وصولها في ذلك اليوم مع انه أقلع قبلها والسيارة كلما زاد عددهم ثقلت خطواتهم فظن نفسه مخطئاً في حكمه عليهم فاعاد النظر الى الرايات والملابس فتحقق أنها لاهل المدينة والقبائل القاطنة بجوارها فاعتبر بذلك مقدار السرعة التي مشت فيها تلك الحملة مما يدل على اضطرار الحجاج اليها فترجل حسن ورفيقاه والتجأوا الى مكان يرون الركب منه ولا يراهم احد وجعل حسن يتفرس في وجوه الناس

فمر الفرسان وحملة الرايات أولا ثم الرجالة ثم احمال الزاد والمؤونة

وأخيراً رأى هودجاً يقوده عبد ويسوقه عبد والى كل من جانبيه فارس . ولم ير في تلك الحملة هودجاً غيره وكانت عادة العرب في الجاهلية وأوائل الاسلام اذا خرجوا الى حرب يغلب ان يحملوا معهم النساء والاولاد فلما تمصروا قلت هذه العادة عندهم . فاستغرب حسن أمر هذا الهودج وتبين من الاحتفاء بأمره أنه لبعض الامراء ـ وما درى انه يقل حبيبته التي سلبت لبه وانهم يحملونها الى سواه . ولو درى ذلك لطارت نفسه شعاعاً اليها . ولو صح ما يتغزل به الشعراء من شعائر الحب وتواصل القلوب عن بعـد لاضطرب حسن وخفق قلبه ودله فكره على ساكنة الهودج ولكن الشعراء يقولون ما لا يفعلون . أو لعل سيال الحب لايخترق جدار الهودج والـكهربائية والحرارة وسائر القوى الطبيعية تخترقه ! !

ظلوا وقوفاً يراقبون مسير تلك الحملة حتى رأوها تحولت الى جبل أبي قبيس فتحققوا أنها نجدة المدينة الى الحجاج لعلمهم ان الحجاج مخيم في تلك الانحاء

الفصل الثالث والخمسون

الـكعبة والمنجنيق

ومشوا حتى اقبلوا على مكة وسعيد يركض جواده الى الامام وحسن وبلال يسيران وراءه فلما أشرفوا على مكة رأوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها وقد اقترب اليهم بعضهم فتقدم سعيد حتى استقبلهم وقال لهم انهم ذاهبون لغرض يخص محمد بن الحنفية فاذنوا لهم وقد عرفوه فدخلوا مكة وحسن ينظر عن بعد الى جبل أبي قبيس فرأى فيه خياما وحولها الناس وقد صغرت اشباحهم لبعد المسافة . وبعد قليل وصلوا الى تل وفيه بعض المدافن فقال سعيد « ها اننا في الحجون » فوقف حسن على مرتفع ونظر الى مكة فاذا هو قد أشرف على المسجد الحرام والـكعبة في وسطه . وقد زار مكة من قبل ورأى الـكعبة لـكنه رآها في ذلك اليوم

أكبر مما يعهدها فيه ورأى على سطحها أشياء غريبة كالفرش والاثاث فوقف هنيهة وسعيد واقف معه فلما رأى ذلك قال « انى أرى الكعبة على غير ما أعهدها فيه كأنها كبيرة وكأن عليها فرشاً واثاثاً وكأني أرى في أرض المسجد خياما . . »

فقال سعيد « لقد صدق ظنك أما الكعبة فانها الآن أكبر مما تعهدها لانها احترقت في الحصار الماضي على عهد يزيد بن معاوية فاعاد ابن الزبير بناءها ووسعها الى ما كانت عليه من الزمن الاول قبل مابنتها قريش [(١)] وأما ما تراه على سطحها فهو الواح الساج وضعها عبد الله هناك ووضع فوقها الفرش والقطائف وقاية لها من حجارة المنجنيق [(٢)] لان الحجاج نصب المنجنيق على جبل أبي قبيس وجعل يرمي الكعبة بالحجارة نكاية بابن الزبير . . ؟ »

فقطع حسن كلامه وقال « أعوذ بالله من ذلك . . . يرمون بيت الله بالحجارة . . . »

فقال « هذا عمل الحجاج فانه رجل عات لا يبالى بما يقف في سبيل مقاصده فقد رأيناه يرمي الكعبة بالمنجنيق والناس يطوفون حولها . واتفق في الحجة الماضية أن عبد الله بن عمرو حج وكان مولاى الامام محمد في جملة الحجاج فكنا نطوف والحجارة تتساقط علينا فبعث ابن عمرو الى الحجاج يقول له « اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فانك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الارض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً وان المنجنيق قد منعهم من الطواف فاكفف عن الرمى حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة » فبطل الرمي حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا ولم يمنع ابن الزبير الحاج من الطواف والسعى . فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادى الحجاج « انصرفوا الى بلادكم فانا نعود الى الحجارة على ابن الزبير الملحد » . وبلغني أنه أول مارمى بالمنجنيق الى الكعبة أرعدت السماء وابرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة فاعظم ذلك

(١) مقدمة ابن خلدون (٢) ابن الاثير ج ٤

رجاله وأمسكوا أيديهم . فأخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيده فوضعها فيه ورمى بها معهم . فلما اصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من اصحابه اثني عشر رجلا فقال الحجاج لرجاله « يا أهل الشام لا تنكروا هذا فاني ابن تهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قدحضر فابشروا » فلما كان الغد جاءت الصاعقة فاصابت من اصحاب ابن الزبير عدة فقال الحجاج « ألا ترون انهم يصابون وانتم على الطاعة وهم على خلافها »

الفصل الرابع والخمسون

الجوع والضيق

فعجب حسن لدهاء الحجاج وعتوه وساق جمله حتى نزلوا أسواق مكة فقال حسن لسعيد « لقد وصلنا مأمننا فاذا رأيت الرجوع فارجع جزاك الله خيراً »

فقال « بل أوصلكما الى المسجد فاطوف طوفة وأعود »

ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية فقال سعيد « هذا صوت حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الكعبة .. انظر الى حمام الحرم كيف يتطاير اجفالا من صوت وقوعه »

وأحس حسن بالجوع لانهم خرجوا من الشعب ولم يأكلوا فقال لسعيد « بالله الا أخذتنا الى أحد باعة الاطعمة فنأكل شيئاً » فضحك سعيد وقال « ان الاطعمة قليلة في مكة والناس في ضنك شديد من الجوع فقد بيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين درهماً وقد سمعت ان ابن الزبير اضطر لما أصاب رجاله من المجاعة ان يذبح فرسه ويقسم لحمها فيهم [1] » قال ذلك وأدنى فمه من أذن حسن وقال بصوت منخفض « ولكنني اعلم علم اليقين ان بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً اختزنها خوف المجاعة ولولا ذلك لما استطاع الصبر على هذا الحصار والحجاج ورجاله

(١) ابن الاثير ٤

ينتظرون فراغ ماعنده من المؤونة حتى يسلم اليهم[١] »

فقال حسن « لا بأس من ابتياع شيء نأكله ولو كان غالياً . . . »

وأشار الى بلال فانصرف الى السوق وعاد بشيء من خبز الشعير والسويق. فاكلوا على عجل وساروا حتى أتوا المسجد الحرام وبلال يقود الجمل وراءهم. ودخل حسن وسعيد الى المسجد يتظاهران بالرغبة في الطواف ثم سأل حسن عن ابن الزبير فقيل له انه يصلي بجانب الكعبة فسأل عن مصيره بعد الصلاة فقالوا إنه يصير الى بيته . فدله سعيد على بيته باصبعه وودعه وعاد الى الشعب

فرأى حسن ان يصلي ركعتين ويطلب الى الله ان يرشده الى الصواب. فصلى ثم جلس في بعض أطراف المسجد ينتظر الفراغ من صلاة عبد الله. وجعل يفكر في أمره والمهمة التي جاء من أجلها في ذلك الوقت وماهو وقت خطبة ولا زواج . ثم جرته هواجسه الى ماكان من أمر سمية وانتظارها رجوعه ليقترنا . ثم انتقل الى التفكير بعرفجة وماكان من أمره في ذلك الصباح وخيل له ان الفشل الذي أصابه سيكون وسيلة للتقريب بينه وبينها . وفكر في مصير عرفجة بعد خروجه من عند ابن الحنفية فظنه عاد الى المدينة لانه لايستطيع الغياب عنها طويلا وليس عند سمية أحد

وكان حسن وهو فى تلك الهواجس لا يرى الناس يدخلون المسجد الا قليلا ثم مالبث ان سمع قرقعة وأحس ان شيئاً هوى بالقرب منه وسمع رفرفة أطيار فالتفت فرأى حجراً كبيراً أصاب الكعبة وسقط على الارض. فعلم أنه من احجار المنجنيق وقد اجفل حمام الحرم من وقعه فتطاير ثم عاد. فوقع على الكعبة وعلى جدران المسجد . ولم ير الناس يهتمون بتلك الحجارة. لانهم تعودوها لكثرتها

فتذكر حسن للحال ان عبد الله يصلي بجوار الكعبة فاستغرب تعريضه نفسه لحجارة المنجنيق وخاف ان يكون ذلك الحجر قد اصابه وأضر به حتى لم يعد يستطيع النهوض وخصوصا بعد ان طال وقت صلاته فانشغل.

(٢) ابن الاثير ج ٤

خاطره عليه فنهض ومشى في فناء المجلس يلتمس الكعبة حتى مر بالحطيم وحجر اسماعيل ودار نحو بئر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الاخرى بضعة رجال وقوفاً . فاقبل عليهم ليسألهم عن عبد الله فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلا ساجداً وقد استقبل الارض بوجهه ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد كأنهما واقفتان على حائط والرجل لا يتحرك . فخيل له انه مائت فاستغرب وقوف الناس هناك ولا يهتم به احد . فتقدم الى احدهم فحياه واشار إشارة يستدل منها على استغرابه أمر ذلك الساجد فابتسم الرجل وقال « يظهر انك لا تعرف من هو الساجد »

قال « كلا »

قال « هو أمير المؤمنين »

ففهم حسن أنهم يريدون عبد الله بن الزبير وزاد استغراباً وقال « وما بالي ارى الحمام يقع على ظهره وهو لا يتحرك »

قال « يظهر أنك غريب في مكة . . فاعلم أن مولانا أمير المؤمنين أكثر الناس صلاة وسجوداً وكثيراً ما رأينا العصافير تقع على ظهره في أثناء الصلاة تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده (١) ولهذا السبب ترى الحمام يقع عليه »

فقال حسن « انه سجود طويل »

فتقدم رجل آخر وكان واقفاً هناك وقال « يظهر انكم لا تعلمون من تقوى أمير المؤمنين إلا قليلا . وأما أنا فقد صحبته طويلا فرأيته يقضي لياليه بثلاث حالات ليلة يقضيها قائما الى الصباح وليلة راكعاً وليلة ساجداً . ناهيك بصومه فانه صام الدهر كله الا ثلاثة أيام يفطرها في كل شهر »

فدهش حسن لهذه التقوى وقال في نفسه « يجدر بمن كان مثل هذا ان يكتب له النصر »

---

(١) ابن الاثير ج ٤

وفيما هم وقوف سمعوا رعداً علموا أنه صوت المنجنيق فتنافروا ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقط الى الارض بجانب ابن الزبير فنفر الحمام عنه وهو لايزال ساكنا لا يتحرك فذهل حسن وقال لصاحبه « ألا تخافون على حياة امير المؤمنين ؟ »

قال « لقد طالما نبهناه الى ذلك وكثيرا ما وقع له مثل ما تراه وهو لا يبالى »

فقال حسن « ارجو ان يحرسه الله »

فقال الرجل « ان الله حارسه لفرط تقواه وكثرة عبادته فانه لا يعجزه باب من ابواب العبادة فقد حدث في العام الماضى سيل طبق البيت ومنع الناس من الطواف فطاف امير المؤمنين سابحا (١)

الفصل الخامس والخمسون

عبد الله بن الزبير

فتأمل حسن في وجه مخاطبه فاذا هو يتكلم وملامح الاهتمام بادية في محياه لا يدرى بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عنده ولا مقدار حبه له ورآه موجهاً نفسه اليه يتوقع سؤالا يسأله عن ابن الزبير ليشرح له ما يعلمه من تقواه وشجاعته وصدق دعوته — قرأ حسن كل ذلك في عيني ذلك الرجل وتحقق من تلك الظواهر انه من اشد انصار ابن الزبير غيرة عليه وتبين له من قيافته وهندامه انه من وجهائهم . وزاد اعتقاداً في وجاهته لما آنسه من لطفه ودعته لان الانسان يزداد لطفاً ووداعة بازدياد منزلته رفعة فاذا رأيت جفاء وكبرياء من أحد الناس وانت لا تعرفه فاعلم أنه دنيء الطبع ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر أو ما في خزائنه من الاموال الطائلة فان دناءة الطبع تظهر فى جفائه وكبريائه

وبينما حسن يفكر في ذلك ومخاطبه واقف الى جانبه ينتظر امره سمعا

(١) ابن الاثير ج ٤

عبد الله ينادي « ابن صفوان » ثم رأى الرجل الذى كان يخاطبه بغتة وأسرع الى عبد الله يقول « لبيك يا أمير المؤمنين »

ففهم حسن انه عبد الله بن صفوان الجمحى وكان قد سمع عن حبه لابن الزبير واستهلاكه في نصرته وهو رجل في نحو الستين من عمره عريض الجبهة خشن الملامح عريض الفكين مما يدل على الثبات والقوة اصلع الجبهة ثم التفت حسن الى ابن الزبير وتهيأ للسلام عليه اذا مر بجانبه فاذا هو طويل القامة عريض الكتفين لحيته غزيرة فى أسفل ذقنه خفيفة في عارضيه [1] وهو ما يعبرون عنه بالكوسج . وتفرس فيه وهو يصلح عمامته عند نهوضه من الصلاة فرأي شعره جمة مفروقة طويلة [2] وتأمل فى وجهه

فرأى الهرم قد بدأ في ملامحه لفرط ما قاساه من أمر ذلك الحصار وشدة ما أحاط به من الضيق وهو في الثالثة والسبعين من عمره لانه أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة

وتهيأ حسن للسلام عليه وتقبيل يده ثم رآه تحول من جهة أخرى ولم يلتفت الى أحد من الوقوف ومشى مشية ثابتة تدل على جلال ووقار وسار ابن صفوان فى أثره وهو يراعه بعينيه وكل عواطفه . فلما مشى ابن صفوان لحظ حسن في مشيته عرجاً [3] وعلم انهما سائران الى البيت فاقتفى اثرهما وهو يفكر في مخاطبة عبد الله بالامر الذى جاء من أجله لكنه تهيب واستحى لما رآه فيه من الاضطراب والضيق . على انه عول على اغتنام الفرصة ومخاطبته في خلوة

فيخرج عبد الله من المسجد وابن صفوان يتبعه وحسن في اثرهما . والناس حيثما لقوه وقفوا له وحيوه حتى اشرفوا على دار واسعة قد غصت بالوقوف من الناس وخارجها مرابط الخيول والمعالف . فلما أقبل عبد الله على الدار توجهت ابصار الناس اليه ووسعوا له فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى أشرف على مقعد فى صدر القاعة فجلس عليه الاربعاء وجلس الى جانبه شاب كثير الشبه به ظنه ابنه ولكنه لم يعرف أي أولاده ثم جاء

(١) اسد الغابة ج ٣ (٢) ابن الاثير ج ٤ (٣) العقد الفريد ج ٣

شابان آخران جالسا الى جانبه الآخر وجلس الناس بين يديه لا يفوه أحد بكلمة لفرط ما احاط بهم من الامر العظيم . ولبثوا هنيهة كأن على رؤوسهم الطير . أما حسن فرأى نفسه غريباً بين هذه الجموع فاحب الخروج فرأى ابن صفوان يشير اليه من بعض جوانب القاعة أن « أقبل » فمشى اليه وجلس الى جانبه وقال له « يسرني انى عرفت شخصك اليوم وقد طالما سمعت باسمك » فقال ابن صفوان « فهل تنتسب لاعرفك أنا أيضا »

قال « سأطلعك على امري فيما بعد اذ لا غنى لى عن معونتك »

وكانا يتكلمان همساً والناس سكوت وربما اضطر أحدهم الى السعال فامسك نفسه . فالتفت حسن الى ابن صفوان وقال له « أي أبناء أمير المؤمنين هؤلاء »

قال « ان الذي تراه الى يمينه هو أخوه عروة بن الزبير . والاثنان الجالسان الى يساره ولداه حمزة وحبيب وترى على مسافة منهما شاباً مطرقا في الارض فهو ولده الثالث واسمه مثل اسم جده . . ان هذا الشاب جدير بان يكون ابن أمير المؤمنين » قال ذلك واستأذنه قائلا « لا بد لى من مفارقتك لامر يدعونى الى ذلك فاننا في مجلس ذي بال اليوم وستسمع وترى فان هؤلاء من قريش وهم رؤساء القبائل » ثم تحول حتى وقف على مقربة من عبد الله فاشار اليه عبد الله ان يقعد

الفصل السادس والخمسون

تضعضع الحال

ثم وقف أحد الجلوس وخاطب عبد الله قائلا « يا أمير المؤمنين اننا بحمد الله نعتقد صدق دعوتك وانك على الحق . وقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا ولئن صبرنا معك ماتريد على أن نموت . وانما هي احدى خصلتين اما أن تأذن لنا فنأخذ الامان لانفسنا واما ان تأذن لنا فنخرج »

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق ضعف القوم وعلم انهم صائرون الى الفشل . ثم سمع ابن الزبير يقول « ألم تبايعونى على انفسكم واموالكم ؟ . . »

قال « بلى ولكنا نرجو أن تقيلنا بيعتنا اذ لا نرى فائدة من البقاء على البيعة »

فقال عبد الله « لقد كنت عاهدت الله أن لا يبايعنى أحد فاقيله بيعته إلا ابن صفوان »

فالتفت حسن الى ابن صفوان فرآه قد وقف بغتة والحمية والغيرة تنبعثان من عينيه وقد ظهر التأثر في وجهه وقال « اما انا فاني أقاتل معك حتى أموت بموتك وانها لتأخذني الحفيظة أن أسلمك في مثل هذه الحالة »

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى علت الاصوات وضج الناس وانقسموا الى حزبين واكثرهم لا يرون رأى ابن صفوان . فشق ذلك على حسن ودبت الحمية في عروقه فوقف وارتجل قائلا « بورك فيك يا ابن صفوان بورك بك برجل بايع وثبت في بيعته ان أمير المؤمنين كما تعلمون أولى الناس بهذا الامر . لان عثمان رحمه الله استخلفه على الدار يوم مقتله فهو ولى عهده من ذلك اليوم [١] ومثلكم يفهم معنى الخلافة ولا تغره بهارج الدنيا . ألا ترون عبد الملك بن مروان كيف يستعين على هذا الامر بالمال والرجال؟ وأمير المؤمنين انما يستعين بالصوم والصلاة . تلك هي خلافة الراشدين رحمهم الله أجمعين . ألم تسمعوا ماذا فعل عبد الملك يوم جاءه الخبر بالبيعة بعد موت أبيه مروان ؟ . . . أنتم تعلمون ان عبد الملك كان من فقهاء المدينة ولكثرة ما كان يظهره من التدين والتقوى سموه حمامة المسجد. فلما مات ابوه وبشر بالخلافة كان المصحف في يده فاطبقه وقال « هذا فراق بيني وبينك » [٢] ابن هذا من سجود أمير المؤمنين وصلاته وصيامه مما لا يخفى على أحد منكم . وفوق ذلك لامير المؤمنين بيعة في أعناقكم وانتم جماعة قريش أهل

(١) العقد الفريد ج ٢ (٢) الفخرى

الحماسة فكيف تغادرون أمير المؤمنين وهو فى هذه الحال أما لكم أسوة بابن صفوان ؟ . . . »

وكان حسن يتكلم والعرق يتصبب من جبينه وقد امتقع لونه وهو يعتقد مع ذلك ان الوفاق أصبح عبثاً ولكنه لم يستطع غير الانتصار للضعيف وكانت الابصار شاخصة اليه لانه غريب ولم يعرفه احد منهم . وكان عبد الله ابن الزبير ينظر اليه ويعجب بغيرته . فلما فرغ من الكلام زادت الغوغاء فوقف رجل آخر وقال « لقد نطقت بالصواب وان البيعة فى اعناقنا لا ننكرها وما نحن خارجون من بين يديه الا بأمره . ولكننا نرى القتال عبثاً ومعنا من الرجال عشرة آلاف رجل وقد جعنا جميعاً وعطشنا وقلت مؤونتنا وذخيرتنا . وهذه منجنيقات الحجاج ترمينا من فوق الكعبة لا يبالى بحرمة هذا البيت . وقد نصب لنا الحجاج الآن راية الامان فمن خرج اليها سلم فما بالنا لا نختار الطريق الاسلم ثم التفت الرجل الى عبد الله بن الزبير وقال « اكتب الى عبد الملك بن مروان لنرى رأيه فلعلكما تنتهيان الى أمر فيه صلاح الحال (١) »

فلما سمع عبد الله اسم عبد الملك بن مروان اجفل وتغير وجهه وقال « كيف اكتب اليه ؟ . . ابدأ بنفسى أو ابدأ به ؟ أأكتب من عبد الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان . . . ؟ فوالله لا يقبل هذا أبداً . أم اكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير . . . ؟ فوالله لئن تقع الخضراء على الغبراء أحب الى من ذلك (٢) » قال ذلك وسكت وهو يحك ذقنه حيث لا تراه . وسكت الناس ينتظرون رأيا جديداً فاذا بعروة بن الزبير اخى عبد الله التفت الى أخيه وهو جالس بجانبه على المقعد وقال له « يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة »

فقال عبد الله وقد ظهر الغضب فى جبينه « من هو ؟ . . »

قال عروة « حسن بن على فانه خلع نفسه وبايع معاوية » . ولم يتم عروة قوله حتى رفع عبد الله رجله وضربه بها حتى القاه عن المقعد . فاجفل

(١) ابن الاثير ج ٤ (٢) العقد الفريد ج ٢

الناس من سقوط عروة واعظموا غضب عبد الله فتهيبوا ثم سمعوه يقول له « ياعروة . . قلبي اذاً مثل قلبك ، والله لو قبلت ما يقولون ماعشت الا قليلا والا اخذت الدنية . وان ضربة بسيف في عز خير من لطمة في ذل » ثم وقف والتفت الى الجموع ولحيته ترقص في وجهه من شدة التأثر وقال لهم « أنتم مخيرون فافعلوا ماتشاؤون وان رجلا يجر الى الحرب بحبل لا يحارب وان الله ولي ونعم النصير » قال ذلك وأراد التحول فوقف ولداه عن يساره وهما حمزة وخبيب وقالا « هل نحن مخيرون ايضاً »

فعجب حسن لما سمعه وقال في نفسه حتى أولاده تخلوا عنه والتفت الى عبد الله فرآه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما يتجلى فيهما من الدمع ثم قال « نعم ياولداه وانتما أيضا في حل امضيا واطلبا الحياة ولا تموتا » ثم اختنق صوته

فسكت ريثما ابتلع ريقه ونظر الى ابنه الثالث الزبير وقال له « وانت يابني اطلب لنفسك امانا مع اخويك فوالله اني لاحب بقاءكم »

فوثب الزبير من مجلسه وقال ولم يبد على وجهه شيء من الخوف « حاشا لله أن اتخلى عنك فما كنت لارغب بنفسي عنك » (١)

الفصل السابع والخمسون

خالد وعبد الملك

ثم انصرف عبد الله من باب آخر في القاعة الى دار النساء وظل حسن واقفاً في جملة الوقوف وهو يسمع ما يدور بينهم . فعلم انهم اجمعوا على الخروج الى الحجاج يلتمسون امانه . وأدرك ان أشد ما ابعدهم عن ابن الزبير بخله بجانب سخاء عبد الملك وبذل بني أمية الاموال لاحزابهم . حتى قد يقال أن دولة بني أمية قامت بالمال . فساءه ذلك مع اعتقاده ان هؤلاء انما أرادوا الخروج رغبة في العطاء وان صبر ابن الزبير قد لا يفيده شيئاً

(١) ابن الاثير ج ٤

ولكن الانسان لايعيش في هذه الدنيا عمرين وانما هي موتة فلا كانت عيشة تشرى بالشرف والمروءة

وما أحس حسن بعد هنيهة إلا ويد امسكته فالتفت فاذا هو ابن صفوان يدعوه اليه فتبعه حتى دخلا حجرة بجانب تلك الدار وابن صفوان يقول « ان امير المؤمنين يدعوك وقد أحب أن يراك » قال ذلك وتركه هناك وخرج

فسر حسن لتلك الدعوة لانه سيغتنم الفرصة للكلام بالمهمة التي جاء من أجلها ولو كان الكلام فيها لايجدي نفعاً

وبعد هنيهة عاد ابن صفوان وأشار الى حسن فتبعه حتى دخلا حجرة رأيا عبد الله يتمشى فيها وحده وقد أخذ منه الغضب مأخذاً عظيما وهو تارة يمسح جبهته وطوراً يحك لحيته وآونة يشمر عن ساعده أو يرسل كمه مما يدل على عظم البلبال . وتأمل حسن في تلك الحجرة فاذا هي لاشيء فيها من الاثاث غير حصير ومقعد . فلما أقبلا عليه تقدم حسن اليه وسلم بالخلافة فرحب به ودعاه الى الجلوس على المقعد فلم يجلس وابن الزبير واقف فألح عليه بالجلوس وقال « دعني واقفاً وسأجلس بعد هنيهة »

فجلس حسن وابو صفوان لايزال واقفاً يراعي عبد الله ويراقب حركاته ولا يتكلم

ثم التفت الى حسن وقال « من أين قدمت ؟ »

قال « من الشام »

فبغت عبد الله عند سماع اسم الشام لان فيها أعداءه ومناظريه والتفت الى ابن صفوان كأنه يطلب مشاركته في الاستغراب فرآه لايقل عنه استغرابا فقال عبد الله « وما الذي جاء بك الينا ونحن في هذه الحال . . . ألعلك جاسوس . ؟ »

قال « معاذ الله يامولاي كيف أكون جاسوساً واصبر على الظهور بما فعلته اليوم ؟ »

فجلس عبد الله على جانب المقعد وأمر ابن صفوان بالجلوس فجلس .

ثم قال عبد الله « لاغرابة فيما ظهر منك وان كنت جاسوساً لان الجواسيس يتلونون تلون الحرباء . على أني لا أبالي مهما يكن من أمرك فما انا ممن يستعينون بالجواسيس وانا لا أخافهم وانما استعين بالحق والعدل »

فوقف حسن وهو يقول « العفو يا مولاي اني أجل نفسي عن الجاسوسية في هذا السبيل وانما انا رسول اليك في مهمة لا أرى مسوغاً للكلام فيها الآن . . »

قال « وماذا تعني . . ؟ وكيف لا مسوغ لها ؟ . . قل . . لا بأس مما تراه من الاحوال . من أرسلك الينا من الشام . . . العلك قادم من عبد الملك بنصيحة ؟ . . »

قال « كلا يامولاي بل انا قادم من عند خالد بن يزيد بن معاوية .. »

قال « وهو أيضاً اموي وشأنه عندنا مثل شأن عبد الملك وان يكن أعرف منه بالكيمياء والشعر ونحو ذلك »

فقال حسن « ما كنت احسب الحقيقة تخفى على مولاي امير المؤمنين فانها عكس ذلك على خط مستقيم »

قال « كيف يكون هذا وكلاهما أموي وقد اتحدا علينا وقاما لحربنا ؟ »

قال « أما الحرب فقد نصبها عبد الملك وليس خالد . ولو عرفت ما بينهما من الدخائل السرية لتحققت ان خالداً ارغب في بيعة أمير المؤمنين من آل العوام انفسهم »

فقال عبدالملك وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف يغتصبها اغتصابا «وكيف يكون ذلك وهو ابن يزيد الذي أمر بحصار هذا البيت وقاتلنا حتى هدم الكعبة بمنجنيقاته ثم احترقت وأعدنا بناءها ؟ »

فقال حسن « صدقت يامولاي انه ابن يزيد بن معاوية ولكن لا يخفى عليك انه لما مات يزيد كان الحصين بن النمير لا يزال محاصرا البيت الحرام وأنتم فيه وهو لا يعلم بموت خليفته يزيد وبلغني انكم عرفتم بموته قبله واذا صح ما سمعته عما دار بينكم وبينه بشأن الخلافة . . . »

فقطع عبد الله كلامه وقال « أظنك تعني انه عرض على البيعة بعدموت يزيد ؟ »

قال حسن « نعم يامولاي ذلك الذي أعنيه لانك لو اجبته الى هـذه البيعة لما كان على منصة الخلافة سواك »

فتقطب حاجبا عبدالله بغتة كأنه تذكر أمراً يؤلمه ذكره وقال « ولكنه أراد ان اذهب معه الى الشام وانه لا يبايعني الا هناك »

قال « وما يمنع ذهابك ؟ ولا أشك انك لو خرجت معـه الى الشام وقربته منك لم يختلف عليك احد منهم »

فاسرع عبد الله في قطع الكلام لانه لايحب ان يتـذكر الخطأ الذي ارتكبه في ذلك ولولاه لكان بنو العوام خلفاء الاسلام بدل بنى أمية لشدة اضطراب حال بنى أميـة فى ذلك الحين — فقال عبد الله « ثم ماذا ؟ . . أوصلنا الى حديث خالد »

قال « لما مات يزيد بايع أهل الشام ابنه معاوية (الثاني) كما تعلمون وهذا لم يكن يرى لبني أمية حقاً بالخلافة كما صرح جهاراً في خطابه بعد ان تولاها بأربعين يوماً فانه أمر فنودي «الصلاة جامعة» فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعـد فاني ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فـلم أجده فابتغيت ستة مثـل ستة الشورى فلم اجدهم فانتم أولى بامركم فاختاروا . ما كنت لا تزودها ميتاً وما استمتعت به حياً » ثم دخل داره وتغيب حتى مات . فلما مات معاوية هذا اختلف الناس في من يولونه واضطربت الاحوال كما هو معلوم حتى آل الامر الى مبايعة مروان بن الحكم لانه اكبر بنى امية سناً . وكلنا يعلم شأن هـذا الرجل في امرعثمان وكيف انه قد أوقد جذوة تلك الفتنة التى لم نتخلص من عواقبها الى اليوم . فتولاها مروان دون خالد بن يزيد وخالد احق بها منه بالنظر لما وضعه جده معاوية من امر الوراثة فى الحكم . ولكن بنى سفيان لم يرضوا ببيعته حتى عاهدهم انه يجعل الخلافة بعده لخالد . فلما تولاها مروان

حدثته نفسه ان يخرجها من نسل معاوية الى نسله فتزوج ام خالد حتى تصغر نفس خالد عن طلب الخلافة [١]

واتفق بعد بضعة اشهر ان مروان ناظر خالداً في شأن وشتمه وأهان امه فخرج خالد الى امه واطلعها على ما كان فقالت له « دعه فانه لا يقولها بعد اليوم » وفي المساء جاءها مروان وسألها هل اخبرها خالد بما جرى بينهما . فقالت « ياأمير المؤمنين خالد اشد تعظيما لك من ان يذكر لي خبراً جرى بينك وبينه » فلما امسى المساء وضعت مرفقه على وجهه وقعدت عليها هي وجواريها حتى مات ولم يتم السنة في خلافته والناس يظنونه مات حتف انفه . فخلفه ابنه عبد الملك وهو يعلم بالامر فخاف اذا انتقم لابيه ان يفتضح امره ويقال ان امرأة قتلته . ولكنه ظل حاقداً على خالد وخالد ينظر الى عبد الملك نظره الى مختلس . ولهذا السبب قلت لمولاي أمير المؤمنين أن خالداً أرغب من آل العوام في خلافتك »

الفصل الثامن والخمسون

الخطبة

فلما فرغ حسن من كلامه أطرق عبد الله طويلا وقد استغرق في الافكار وحسن وابن صفوان صامتان وقد احس كل منهما بما يجول في خاطر عبد الله في أثناء ذلك الصمت الطويل . ثم رفع عبد الله رأسه بغتة ونظر الى حسن وهو يقول لقد فات الوقت وجاء هذا العلم بعد أوانه ولكن ما يقدره الله فهو كائن . ومع ذلك فلا أظن خالدا يرضى بخروج هذا الامر من بني أعمامه الى رجل حاربه أبوه عليه . ولا ارى ثمة مسوغاً لذلك » وكأنه انتبه للموضوع الاصلي الذي جر هذه الحواشي فنظر الى حسن بغتة وقال « وما هو الامر الذي جئت من أجله ؟ »

قال « انه أمر لا يستحسن الخوض فيه في هذه الاحوال »

(١) ابن الاثير ج ٤

قال « لا بأس قل »
قال « انتدبني خالد لآتى الى امير المؤمنين خاطباً »
قال « من ولمن ؟ »
قال « مولاتي رملة أخت أمير المؤمنين الى مولاى خالد بن يزيد وقد كتب بذلك كتاباً ضاع مني في المدينة لسبب يطول شرحه »

فوقع ذلك الطلب موقع الاستغراب عند عبد الله لاعتقاده بالتباعد بين القبيلتين على أنه لما تذكر ما سمعه في هذا الشأن هان عليه تصديق الامر ولكنه مازال مرتاباً في ذلك الرسول فقال له « اذا كان خالد كما وصفت فاني اسر بمصاهرته ولكني أود الاطلاع على كتابه . ومع ذلك فان الحال تدعو الى التربص برهة لنرى ما يقضيه الله بيننا وبين هذا الطاغية الذى يرمي بمنجنيقاته على بيت الله ولا يخاف عقاباً »

فقال حسن « ذلك هو السبب الذي دعاني الى التردد فى تبليغ الرسالة لانى رأيت الحال حرجة كما ذكرت ولكن يكفيني ما سمعته من الرضى وقد شعرت بضعف ساعدى في هذا الامر لاني لا أحمل كتاباً من خالد ولا أرى الحال تساعد على القطع فسأكتب اليه اطمئنه بالقبول بعد ان يصل كتابه بهذا الشأن . ثم اني اعرض على مولاي أن اكون في خدمته لعلي استطيع امراً يكون فيه مصلحة له . فهل ترى ان اذهب الى الحجاج فأخاطبه بأمر الهدنة أو الصلح او نحو ذلك فربما كان لكلامى وقع عنده لاني اعتبر من اتباع بنى امية فلا يستغشني »

فقطع عبد الله كلامه وقال « لا . . لا . . دعهم وما يفعلون انى لا أريد وساطة وخصوصا لدى عبد ثقيف » قال ذلك ووقف فوقف حسن وابن صفوان فاحس حسن انه ينبغي له ان ينصرف فحياه مودعاً وخرج من باب غير الباب الذي دخل منه وقد أرخى الليل نقابه فتبعه ابن صفوان وهو يقول له « رويدك يا أخا العرب »

فوقف حسن حتى اقترب ابن صفوان منه فاذا هو امسك بيده وادنى فمه من اذنه وقال همساً « تعال معى »

فمشى معه حتى دخلا داراً بجانب دار ابن الزبير فادخله غرفة خلا به فيها ثم قال ابن صفوان « سمعتك تعرض على امير المؤمنين التوسط لدى الحجاج في المهادنة او نحوها وأمير المؤمنين لم يقبل ذلك انفةمنه . ولكنني اعلم مانحن فيه من الضنك وان المهادنة تفيدنا في لم شعثنا لاننا قد تشتتنا . . لا أقول ذلك خوفاً من الموت فاننا لا رغبة لنا في هذه الحياة وانما نحن نطلب الآخرة وبنو امية يريدون هذه الحياة الفانية ويسفكون الدماء من اجلها . . فاذا رأيت لك شيء من ذلك افعل »

قال « لا ادري ما تكون قدرتي عليه وانما اسعى في ذلك جهدي لعلي أوفق الى شيء منه »

فقال ابن صفوان « فانزل الآن في دار الاضياف أو انزل في داري اذا شئت »

فقال حسن « بل انزل في دار الاضياف ريثما ادبر الامر »

قال « ولكن الليل قد اظلم فامكث عندنا الليلة فاذا أصبحنا خرجت الى حيث تريد »

فتذكر حسن بلالا والجمل وكان قد تركهما بباب المسجد فقال « ان خادمي ينتظرني بباب المسجد والجمل معه وأخاف اذا استبطأني ان يظن بي سوءاً

قال ابن صفوان « لا بأس عليه لانه اذا استبطأك نام هناك وفي الغد نراه فاننا في بيت الله الحرام ولا يضيع فيه ضائع »

فاطاعه حسن وبات تلك الليلة عنده . وقضى معظم الليل وهو يفكر في أمر عبد الله وفي مسيره الى الحجاج ولما استغرق في النوم رأى في منامه انه لقي الحجاج وجادله في امر الكعبة وكيف رميها بالمنجنيق فسمع من الحجاج كلاماً قبيحاً فأفاق في الصباح وهو منقبض النفس بسبب ذلك الحلم

ثم جاءه ابن صفوان بالطعام فأكل وعرض عليه ان يسير الى بيت الاضياف فقال حسن « أرى ان ابحث عن الخادم والجمل »

فقال « لا بأس عليهما وعلى كل حال ها اني سائر معك الى دار الاضياف حتى تعرفها فانها بجانب بيت امير المؤمنين ثم اذهب حيث شئت »

الفصل التاسع والخمسون

ذات النطاقين

فمشيا حتى اقبلا على دار الاضياف فتحول ابن صفوان الى بيت عبد الله ودخل حسن الى الدار فرأى فيها اناساً لم يعرف أحداً منهم فجعل يتفرس في الوجوه لعله يرى خادمه بينهم فلم يجده فهم بالخروج الى مواقف الدواب للبحث عن جمله اذ قد يكون بلال مع الجمل هناك ولم يكد يمر ذلك فى ذهنه حتى رأى بلالا مقبلا على الدار والبغتة بادية في وجهه وعيناه شائعتان كأنه يفتش عن ضائع ثم ما لبث ان وقع نظره على حسن حتى اسرع اليه فناداه حسن « ما وراءك » قال « ما ورائي إلا الخير . . ان سيدى أبا سليمان يبحث عنك »

فبغت حسن لذكر ابي سليمان لعلمه أنه فارقه في المدينة وقد عهد اليه تنسم أخبار سمية فشغل خاطره لمجيئه ونهض وقال « أين هو ؟ »

قال « تركته في المسجد وجئت للبحث عنك فهل ادعوه اليك »

قال « لا بل أنا ذاهب اليه » قال ذلك وتحول يريد الخروج فرأى أهل الدار في هرج ومرج يزاحم بعضهم بعضا كانهم يوسعون الطريق لقادم عظيم فوقف في جملة الواقفين وسأل أحدهم عن سبب هذه الحركة فقال له « ان ذات النطاقين قادمة الى دار الاضياف »

فعلم أنها أسماء بنت أبي بكر والدة عبد الله بن الزبير ولكنه كان يحسبها ماتت لكبر سنها لانها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة . فهى يومئذ قد بلغت السنة المائة من عمرها . وكانت مشهورة بكبر العقل وسعة الصدر وصحة الدين (١) فاحب أن يراها فجعل يتطاول حتى اقبلت فاذا هى قد

(١) اسد الغابة ج ٥

احدودب ظهرها وجاءت تتوكأ على عكاز وبجانبها رجل يسندها ويرشدها على الطريق لأنها عمياء . رأى الناس يدنون منها ويقبلون اطراف ثوبها تبركا بها حتى اذا أقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم « خافوا من الله ولا تبخلوا على عباده بالطعام وان كان قليلا في الاسواق فأن الله كفيل بطعام الغد »

فعجب حسن لاهتمام أم الخليفة بامر الاضياف على عجزها وضعفها ولكنه تذكر ما يقال عن بخل ابنها عبد الله فظنها جاءت تستحث الخدم على اكرام الضيوف لاعتقادها أن ذلك يدفع البلاء عن أهلها . ومهما يكن من حرص الامهات على الدرهم فاذا وقع أولادهن في خطر هان عليهن البذل دفعاً للبلاء عنهم . وكانت أسماء في غاية القلق على ابنها عبد الله لعلمها بما يتهدده من الخطر العظيم فلم ترى سبيلا لاستمطار الرحمة غير المبرات

أما حسن فما صدق أن مر موكب ذات النطاقين حتى خرج ومعه بلال فلما اقبلا على المسجد اسرع حسن حتى أقبل على أبي سليمان ودلائل الاسفار على وجهه وحالما وقع بصره عليه صاح فيه « ما وراءك ياعماه »

قال « ان ماورائي ذو بال يا بني »

فبغت حسن وقال « وما هو ؟ . . . . قل . . . . هل أصاب سمية سوء ؟ . . . . »

قال « لم يصبها سوء ولكنها جاءت الى مكة .. »

قال حسن « جاءت الى هنا ؟ . . أين هي ؟ »

قال « اصبر ريثما نجلس في بعض جوانب المسجد على انفراد وأقص عليك الواقع » وكان المسجد خالياً من الناس خوفا من حجارة المنجنيق فجلسا في ناحية وحسن في قلق شديد وهو يخاف أن يلح في استطلاع الخبر لئلا يكون فيه ما يكدره ولكنه لم يستطع صبراً عن السؤال فلما

جلسا قال « قل يا عماه أين هي سمية الآن فقد نفد صبرى . . وكيف تقول انها جاءت مكة . . »

قال « صدقني انها جاءت مكة ولكنها في خارجها »

فانتبه حسن وقال « العلها عند الحجاج ؟ . . »

قال « نعم يابني انها عنده »

فصاح وهو لا يعي ما يقول وما في المسجد من يسمعه غير أبي سليمان « أخذها . . ! وكيف اخذها ؟ . . افصح . . اخبرني . . »

قال «اخذها امرأة له لان أباها عرفجة زفها اليه يوم سفرك وخرجت من المدينة مع الحملة التى بعث الحجاج يطلبها من طارق بن عمرو عامل المدينة . . »

فلما سمع حسن ذلك اطرق كأنه اصيب بجمود وتذكر للحال انه شاهد تلك الحملة بالامس مارة قرب مكة ومعها هودج يحرسه فارسان فارتعدت فرائصه وهز رأسه وقال « اعوذ بالله أأرى سمية تساق الى الحجاج وانا واقف انظر الى هودجها ولا انصرها . . كيف انصرها . . . وانا لم اعرفها ؟ . . ولكن لا بد من تخليصها من يدي ذلك الظالم . . . بل من يدي ابيها الخائن الغادر قبحه الله . . . هل سيقت الى الحجاج برضاها ؟ . . . »

قال أبو سليمان « ما اظنها سيقت إلا بالرغم عنها . فقد علمت أن أباها احتال فى اخراجها من المنزل الى ضواحي المدينة وسلمها للجند المعسكرين هناك »

قال حسن « اذا هي الآن امامنا في هذه الخيام بجانب جبل أبي قبيس . . لا بد لى من الذهاب اليها . . فاما أن انقذها أو اموت في سبيل ذلك لكى اعذر فيها »

فقال ابو سليمان « اعلم يابني اني رهين اشارتك وقد قلت لك انى واقف عمري في خدمتك فاذا رأيت أن تبعثني في أمر يتعلق بها افعل . »

الفصل الستون

كتاب خالد

فصمت حسن وهو يفكر برهة ثم قال « احتاج اليك يا عماه في رسالة بعيدة الشقة فهل لك في انفاذها ؟ »

قال « ولو الى السند »

قال « لا بل هي الى الشام الى خالد بن يزيد هل تسير ؟ . . »

قال « افعل ان شاء الله وأي متى . . ؟ وماهي الرسالة ؟ »

قال « هي كتاب أكتبه اليه يتعلق بالمهمة التي جئت من أجلها »

قال « اكتب وانا بين يديك »

فاستخرج حسن من جيبه منديلا من القباطي (نسيج مصرى) وكان قد أعد دواة وقلماً في جيبه لمثل هذه الغاية وجلس على حجر بجانب عضادة من عضادات المسجد يكتب واختصر في الكتابة على جاري عادتهم في تلك الايام وخلاصة ما كتبه قوله :

« الى خالد بن يزيد من حسن . . أما بعد فقد جئت البيت الحرام بعد أن مررت بالمدينة وأضعت فيها كتابك الى ابن الزبير في حديث سأقصه عند الاجتماع . ومع ذلك فقد خاطبت ابن الزبير شفاهاً بالامر على حين اشتغاله بالحصار وضيق ماحوله فأجاب بالرضاء ولكنني رأيته يسأل عن كتاب منك في هذا الشأن فاذا شئت فاكتب اليه وابعث الكتاب مع حامل هذا فانه ثقة وأنا باق هنا لامر يهمني كثيراً والسلام عليك ورحمة الله »

ثم سلم الكتاب الى ابى سليمان وقال له « امض بأسرع ما يمكن واحذر ان يعترضك الحفر حول مكة »

قال « لقد دخلت ولم ينالوا مني مأرباً فكيف بخروجي وها أنى تارك بلالا في خدمتك لعلك تحتاج اليه في شيء »

فأثنى عليه وودعه وعاد الى التفكر في سمية فرأى ان يذهب الى

معسكر الحجاج يبحث عنها لعله يستطلع خبرها فيقف على حقيقة الواقع .. وكلما فكر في الامر تعاظم لديه ولما تصور انها زفت الى الحجاج يهب بدنه كانه اغرق في ماء غال

قضى برهة في مثل هذه الهواجس حتى لم يعد يستطيع صبراً فعزم على الذهاب الى معسكر الحجاج بحجة أنه مندوب من قبل ابن الزبير المخابرة بشأن هذه الحرب ولكنه لم ير بداً من استشارة ابن صفوان لئلا يغضب ابن الزبير اذا خابر الحجاج بشأنه وهو لا يريد. فنهض لساعته وأسرع الى بيت ابن صفوان فلم يجده في البيت فالتمسه في دار ابن الزبير فدخل القاعة التي كان الاجتماع فيها بالامس فلم يجد احداً وهو عائد مر بمرابط الخيل والجمال وبينها الخدم والجمالة فوقع نظره على رجل يعهد انه مع ليلى الاخيلية فتوسم فيه الخير فناداه فاسرع اليه فقال له « وما الذى جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال « جئت مع مولاتي »

قال « وهل ليلى هنا الآن واين هي ؟ »

قال « هي عند امير المؤمنين في بيته واظنها في حجرة والدته ذات النطاقين »

قال « ومن أين اتيتم ؟ »

قال « من معسكر الحجاج »

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه ان ليلى لا بد انها اطلعت على كنه الامر وربما رأت سمية وسمعت منها شيئاً فلم يعد يصبر على لقائها فجعل يتمشى خارج البيت وهو كلما سمع حركة أو صوتا ظنها خارجة حتى مل الانتظار فعاد الى الخادم فقال له « هل أقمتم في معسكر الحجاج طويلا ؟ »

قال « اقمنا يوماً وليلة ثم رأيت مولاتي اسرعت الى مكة وارسل الحجاج معها من اوصلنا اليها لئلا يعترضنا الخفر المحيط بها »

فادرك حسن انها جاءت باشارة الحجاج فزادت رغبته في مقابلتها واستطلاع حقيقة الامر . وفيما هو يفكر في ذلك رأى ابن صفوان خارجاً

من الدار مهرولا . ولما تلاقت الابصار أقبل ابن صفوان وهو يقول «احمد الله اني رأيتك هنا فقد كنت ذاهباً للتفتيش عنك مخافة أن تكون قد مضيت في الامر الذي انتدبت نفسك له بالامس »

قال حسن « وماذا تعني ؟ »

قال « اعني مخابرة الحجاج »

قال « وما الذي حدث ؟ »

قال « جاءت ليلى الاخيلية لمثل ذلك الغرض وقد سمعت من امير المؤمنين جواباً اكد لي انه لا يرجو صلحا ولا هدنة لان الحجاج لا يرجو غير التسليم وهذا أمر مستحيل عندنا والموت أهون منه علينا »

فقال حسن « وأين هي ليلى الآن ؟ »

قال « هي في دار النساء وقد نزلت عند مولاتي ذات النطاقين . ورملة بنت الزبير عندها ايضا »

قال « هل من سبيل لى اليها فاني اطلب مقابلتها »

قال « ذلك هين . هل اخبرها بانك تطلب رؤيتها ؟ »

قال « افعل »

الفصل الحادى والستون

وعند جهينة الخبر اليقين

فدخل ابن صفوان ثم عاد وهو يشير اليه ان يتبعه فدخل غرفة رأى فيها ليلى وحدها في انتظاره فلما أقبل عليها صاحت فيه « هل انت حسن حقيقة ؟ »

قال « ولماذا هذا الاستفهام ــ وانت تعرفينني »

قالت « لاني سمعت انك ضائع وأكدوا لى انك قتلت »

قال « كدت اقتل ولكنني حى الآن فاخبريني قبل كل شيء هل كنت في معسكر الحجاج ؟ »

قالت « نعم »

قال « وهل رأيت سمية هناك ؟ »

قالت « نعم رأيتها »

فخفق قلبه عند سماع ذلك الجواب الصريح ولم يصدقه فقال « هل رأيتها حقيقة ؟ »

قالت « رأيتها ورأتني وكلمتها وكلمتني »

قال « بالله قولى كيف حالها وما الذى جرى لها وكيف تم بأمرها ؟ »

قالت « ألعلك غائب عن الدنيا ؟ ألم تعلم انها حملت الى الحجاج ليكتب كتابه عليها ؟ »

فلما سمع ذكر الكتاب قف شعره وصعد الدم الى وجهه وقال وهو يتجلد « نعم علمت فهل كتب كتابه ؟ . . »

قالت « نعم كتبوه منذ يومين وهى الآن في داره مع نسائه »

قال « في داره مع نسائه . . مع نسائه . . ؟ »

قالت « نعم مع نسائه »

قال « وهل ذكرتماني في حديثكما »

قالت « ذكرناك وبكينا عليك وهي التي اخبرتنى بموتك وأكدت لى ذلك بدلائل حسية »

قال « وهل هى آسفة على موتي ؟ »

قالت « أما قلبها فهو معك فلا تفتر عن ذكرك لحظة ومع يأسها من لقائك لايهنأ لها العيش بدونك »

فابرقت أسرة حسن عند سماعه ذلك وقال « اذا كان الحجاج كتب كتابه عليها كما تقولين وهى يئسة من لقائي فكيف أرجو اللقاء ؟ »

قالت « الحب كله رجاء ياحسن » . قالت ذلك وتنهدت « ان الحب يضع الرجاء فى موضع اليأس »

قال « هى باقية على حبي اذاً ؟ »

قالت « نعم وهي مع ذلك لاترجو لقاءك فكيف اذا علمت انك حي . .

فهل أنت تحبها مثل حبها لك ؟ »

قال « كيف لا » وهاجت أشجانه ولم يعد يستطيع صبراً عن الذهاب اليها وأحس انه مقصر في سعيه نحوها الا اذا القى نفسه للقتل لاجلها . ولكنه لما تصور انها زفت الى الحجاج عظم الامر عليه وكادت الغيرة تحرقه فأطرق برهة ثم قال « وهل زفت الى الحجاج حقيقة ؟ »

قالت « قلت لك انها زفت اليه وهي في داره مع سائر نسائه »

قال « أعوذ بالله من ذلك .. لا أصدق انها في بيته مثل احدى نسائه وكيف هو . . هل يحبها ؟ »

قالت « يحبها حباً شديداً ولم يكن يحلم انه يحصل عليها لأنها لا تريده ولكن التقادير ساعدته فحملوها اليه قسراً »

فاقشعر بدنه وجمد الدم في عروقه وقال « اني أطير اليها وأختطفها من وسط بيته ومن بين مخالبه . . »

فقطعت ليلى كلامه وقالت « تبصر يا حسن ان دون الوصول اليها عقبات لا يستطاع تجاوزها الا بالحكمة »

قال « وأي حكمة ؟ كيف يمسها الحجاج وأنا حي . . ليس في الحب حكمة . الحب شيء والحكمة شيء آخر . ان الرجل اذا أحب أصبح تحت قوانين الحب وشرائطه وما في الحب حكمة ولا سياسة ولا مدالسة ولا رياء .. »

فلما رأت ليلى شدة هياجه خافت عليه الموت لعلمها بما يعتور الوصول الى سمية من الاخطار وخصوصاً لما تعلمه من ظلم الحجاج وعتوه فاذا وقع حسن بين يديه لا عقاب له غير الموت فقالت له « اسلم معك أن الحب لا سياسة فيه ولا حكمة ولكن المحب حريص على حياته من أجل حبيبه فبدلا من أن تستبقي حياتك لتفرح سمية بك تعرضها للخطر عمداً ؟ . تبصر في الامر وانا في خدمتك حتى تبلغ ما تريده فاني اعرف قيمة الحب ويسوءني ان أرى حبيبين لا يجتمعان وانقم على من يسعى في التفريق بينهما . . »

قالت ذلك وتنهدت وأبرق الدمع في عينيها

فشعر حسن انها تنطق عن احساس حقيقي لانها اصيبت بحب توبة ومنعوها منه فقال « بورك فيك ياليلى والله انك خففت عني نصف المصاب بهذه المشاركة فاشيري علي »

الفصل الثاني والستون

سمية في بيت الحجاج

قالت « لا أخفي عنك انى جئت معسكر الحجاج وافدة على عادتي في الوفود على الامراء والملوك فرحب الحجاج بي وانزلني في دار احدى نسائه ومن هي أعزهن اليه واسمها هند بنت النعمان انها جميلة ذات حسب ونسب ولكنها لا تحبه ولا تحترمه فلقيت سمية عندها فلما عرفتها دار الحديث بذكرك فلما سمعت بضياعك شق ذلك على وقلت لعلي اذا جئت مكة استطلع خبراً عنك فعرضت على الحجاج أن آتي مكة وأحرض ابن الزبير على التسليم وأنا أعلم أن تسليمه أمر مستحيل ولكنني فعلت ذلك حتى آتي تحت حمايته . ولما جئت سألت عنك فاخبروني أنك جئت بالامس وخطبت رملة لخالد فاجابك بالرضي ولكنه استمهلك ريثما تنقضي هذه الحرب فسررت سروراً مزدوجاً أولا لانك حي وثانياً لانك نجحت في المهمة التى جئت من أجلها فالرأي الآن ان اعود الى معسكر الحجاج واجعلك راويتى (لان لكل شاعر عند العرب راوية يرافقه فيحفظ أشعاره ويرويها عنه) والحجاج لا يعرفك ولا يخطر له انك مناظره على سمية فمتى وصلنا المعسكر وأقمنا فيه آمنين نحتال في أمر سمية على مايوفق لنا »

فاستحسن حسن رأيها وقال « نذهب اذاً معاً هلم بنا الآن فاني لا أصبر على هذه الحال »

قالت « اسبقني الى المسجد وأنا أودع ذات النطاقين والحق بك »

قال « لقد انساني حديث سمية استطلاع مادار بينك وبين ابن الزبير من أمر الصلح او التسليم »

قالت « كنت على يقين قبل فتح الحديث معه بهذا الشأن انه لا يقبل ولكنني رأيت أمه أسماء ذات النطاقين أكثر تعلقاً منه بذلك . انى أعجب بهذه العجوز وصبرها على المكاره فقد رأيتها مع يأسها من نجاح ابنها تشجعه وتحرضه على الثبات في دعوته . . . ولكنني لا أرى فائدة من ثباته وقد رأيت معسكر الحجاج ورأيت معسكر هذا والفرق بينهما واضح من حيث العدد والعدد وكل شيء »

فابتدرها حسن قائلا « وقد رأيت بام عيني أصحاب ابن الزبير واخوته وأهله يتخلون عنه وقد نفدت قواته وأقواته فالامر خارج من يديه لامحالة »

قالت « القوة هي الغالبة يا حسن والخلافة صائرة الى بني أمية . لان عندهم الرجال والاموال وقد ساعدتهم الاقدار في كل سبيل ونحن لا يهمنا أمر هؤلاء »

فقطع حسن كلامها وقال « لا يهمني الآن الا أمر سمية فهيا اني سابقك الى المسجد أتهيأ للسفر » قال ذلك وتركها واسرع الى المسجد فوجد بلالا جالساً بجوار الصفا بباب حانوت رجل فارسي كان يبيع فيه الاقمشة فتبعه بلال حتى دخلا المسجد فقص حسن عليه عزمه على معسكر الحجاج واسر اليه الغرض من ذلك

فقال بلال « اكون في خدمتك يا مولاي »

قال « بورك فيك . ولكنني ذاهب فى مهمة لا تخلو من الخطر فاذا انكشف امرى فيها لا ينفعني الرجل والرجلان واذا وفقت فاني وحدي قادر على استقبال ذلك التوفيق . وانما أرجو منك أن تبقى هنا بضعة أيام فاذا استبطأتني اطلبني في معسكر هذا الطاغية . . »

الفصل الثالث والستون

معسكر الحجاج

ثم بدل حسن ثيابه بحيث لا ينتبه له عارفوه إلا بالتأمل وحمل جراباً فيه أدراج من الرق عليها بعض القصائد ومكث ينتظر ليلى حتى عادت وقد تلثمت وركبت الجمل كبعض الرجال وفي ركابها خادم فركب هو جمله وسارا والخادم يمشي وراءهما حتى مروا ببيت ابن صفوان وكان ابن صفوان واقفاً بالباب فرأى ليلى فعرفها وتفرس في رفيقها فعرفه فحياه حسن فقال ابن صفوان « والى أين ؟ » قال « عولت على السعى لعلي أجد سبيلا للتوفيق »

قال « لا اظنك ملاقياً نجاحاً »

وما لبث حسن وليلى أن ابتعدا عن بيت ابن صفوان وخرجا من مكة حتى لاقاهما رجال الحجاج حولها فعرفوا ليلى فلم يعترضوها . وما زالا سائرين حتى اقبلا على معسكر الحجاج

فنظر حسن الى ذلك المعسكر والاعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على مسافة بعيدة فعظم أمر الحجاج في عينيه وقال « ياليلى ان الامر سائر الى هذا العاتى لا محالة . واني لينفطر قلبي كلما تصورت مصير عبد الله بن الزبير . أتظنينه مغروراً بنفسه ؟ »

قالت « كلا ولكنه يعتقد نفسه على هدى وهو صائر الى الموت ؟ »

قال « ما الذي أراه على هذا الجبل »

قالت « ألم تر وقوع الاحجار على الكعبة ؟ فعلى هذا الجبل (جبل أبي قبيس) نصب الحجاج منجنيقاته وهو يرمي الحجارة منها على الكعبة . ومع المنجنيقات فصيلة من الجند . . »

قال « وأين خيام النساء من هذا المعسكر حيث يقيم نساء الحجاج ومعهم سمية » ولما ذكر اسمها اقشعر بدنه لانها من جملة نساء الحجاج

وناهيك بما يمر في ذهنه من عوامل الغيرة وخصوصا لما يتصور الحجاج معها في خلوة ليس عليهما فيها رقيب

فادركت ليلى عظيم ما في نفس حسن فقالت « نحن سائرون الآن الى خيمة الحجاج وهي الكبيرة القائمة في وسط هذه الخيام فادخل أنا فاجيبه على مهمته بما يحضرني من الكلام ثم اخرج واسير بك الى مكان أعرفه واذهب الى منزل هند بنت النعمان وأرى سمية هناك فاقص عليها خبرك ونضرب موعداً تخرجان به من هذا المعسكر بالتي هي أحسن » فسر حسن بذلك الامل ولو كان بعيداً . وكانا قد وصلا المعسكر والخفر لا يعترضونهما لانهم علموا بذهاب ليلى باذن الحجاج . وما زالا حتى اقبلا على خيمة كبيرة قائمة على بضعة عشر عموداً امامها اناس بالحراب وآخرون بالسيوف أشبه بالخفر عند الروم ـ وكان بنو أمية قد اقتبسوا ذلك منهم ثم توخاه عمالهم ارهابا للناس لان دولتهم انما كانت دولة ارهاب واطماع . وقبل وصولهما الى الباب اناخا الجمال ونزلا فمشت ليلى والناس يوسعون لها وحسن يسير في أثرها حتى وقفت بباب الخيمة فدخل أحد الوقوف يستأذن لها ثم عاد وهو يدعوها فدخلت وظل حسن في جملة الوقوف وهو في شوق شديد لرؤية الحجاج وقد طالما سمع به وبعظم اعماله فوقف بحيث يستطيع رؤيته من باب الخيمة . فاذا هو جالس في صدرها على سجادة ثمينة وقد تربع ووضع السيف على فخذيه تحت مطرف من خز القاه على كتفيه وأداره على جنبه ورآه لما دخلت ليلى رحب بها بصوت أرق مما كان يتوقع أن يكون لان الحجاج كان رقيق الصوت الا اذا استفاض في الخطابة فيرتفع كثيراً [1] وتفرس حسن فيه وهو يخاطب ليلى فاذا هو أخفش [2] العينين مقطب الوجه لا يرى في وجهه قبولا للابتسام أو الضحك . وفي الواقع قلما كان يرى ضاحكا

---

(١) العقد الفريد (٢) البيان والتبيين

الفصل الرابع والستون

الانتظار صعب

وهو ينظر اليه لاحت منه التفاتة الى من في مجلسه فرأى بينهم رجلا لم يقع بصره عليه حتي اضطربت كل جوارحه واستعاذ بالله من رؤيته كيف لا وهو عرفجة فقد رآه جالساً بجانب الحجاج كجلوسه في أهله يقضي ويمضي وله الحول والطول . فلم يتمالك حسن عن الارتعاش لشدة التأثر وخصوصاً لما علم أن عرفجة لم ينل ذلك المنصب الا بتضحية ابنته سمية فهاجت عواطفه حتى حدثته نفسه أن يفتك به وينتقم منه . ولكنه ما لبث ان عاد الى رشده وعلم بما يحيط به من الاخطار اذا انكشف أمره فتجاهل وحول وجهه الى خارج المعسكر لئلا يلحظ أحد منه شيئاً . وخاف أن يراه عرفجة فيعرفه ويدبر له مكيدة أخرى فمشى وهو يتظاهر أنه يسير بغير انتباه حتى بعد عن خيمة الحجاج

وبعد برهة سمع ليلى تناديه فسار في اثرها والجراب معلق في كتفه ولا يشك الذين يرونه سائر بجانبها انه راويتها . وبعد انقطعت مسافة في المعسكر قالت « انظر الى هذه الخيمة بجانب هذه الراية انها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم وستقيم فيها ريثما آتيك أو أبعث اليك »

قال « وسمية .. ؟ ألا أستطيع رؤيتها الآن .. ؟ خذيني معك اجعليني خادماً لك أو تابعاً أو أي شيء وأذني لى أن أرى سمية »

فاشفقت ليلى لتحرقه وقالت له « سر في اثرى حتى ندخل مضرب خيام النساء واجعل انك تحمل لى هذا الجراب حتى نضعه في الخيمة التي نحن سائرون اليها ومتى وصلنا ادبر لك حيلة في مشاهدتها ومخاطبتها »

فرقص قلبه فرحاً ونسي كل خطر فى سبيل شوقه لرؤية حبيبته . وبعد هنيهة وصلا الى خباء له عدة ابواب وحوله خيام أخرى صغيرة فعلم أنه خباء اهل الحجاج فقالت ليلى « امكث تحت هذه النخلة ومتى دعوتك

ادخل » . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فجلس حسن هناك وقلبه يدق وعيناه شائعتان

أما ليلى فانها دخلت الخباء وهو أقسام لكل امرأة قسم على عادة العرب في بناء الاخبية فدخلت القسم الذي فارقت هندا فيه فرأت هنداً متكئة وسمية متكئة الى جانبها لا تتكلمان . فلما رأتا ليلى رحبتا بهاواستقبلتاها فآنست ليلي في وجه هند انقباضا وكانت سمية تعزيها وتخفف عنها فقالت « ما بالي ارى هنداً غضبى »

قالت سمية « من يقترب من هذا الظالم العاتي ولا يكون منقبضاً انه لا يترك وسيلة لا يثقل بها على نسائه وأهل بيته »

وكانت ليلى تعلم ببغض هند للحجاج فلم تستغرب ذلك ولكنها اغتنمت الفرصة واجابت سمية قائلة « اراك تشكين من الحجاج وقساوته وأنت لم تعرفيه الا بالأمس وهو مغرم بك ولم يصدق انه حصل عليك »

فقطعت كلامها وقالت « لم يحصل على شيء ولن يحصل عليهان شاء الله »

فقالت « عجبا لما تقولين وانت في داره وبين يديه ليلا ونهاراً »

فاشارت بعينيها انها تكتم امراً لاتريد أن تبوح بهأمامهند . فاستغربت ليلى قولها وتظاهرت انها تريد مخاطبتها في شأن فدخلت بها الى خيمتها الخاصة فاستقبلتهما أمة الله خادمتها الحبشية وكانت تهيء طعاماً لسمية فلما دخلتا خرجت لاصلاح بعض الشؤون . فلما دخلتا قالت ليلى « رأيتك تتوعدين الحجاج وتتبرئين منه وهو زوجك الشرعى فضلا عما له من السلطان النافذ عليك فكيف تقولين انه لم يحصل على شيء »

وكانت سمية قد جلست على برش من سعف النخل بارض الخيمة وبين يديها وسادة تتشاغل باصلاح ثنياتها وهي تسمع كلام ليلى . فلما فرغت ليلى من سؤالها بدت البغتة على وجه سمية ثم امتقع لون وجهها امتقاعاً شديداً وهي لاتزال تنظر الى الارض وليلى تتدبر ذلك وتستغربه ولا تعلم سبب هذا الانفعال فقالت «ما بالي أرى سمية ساكتة لاتجيبني على سؤالي؟ كيف تقولين انه لم يحصل عليك وانت بين يديه »

الفصل الخامس والستون

السم الزعاف

فرفعت سمية رأسها وقد بدأ التأثر في عينيها وشفتيها وقالت « صدقى ياليلى انه لن يحصل على ولو كتب الكتاب وعقد العقد . ولم يكن ذلك تفضلا منه ولكنه مجبور على ذلك بخلاف سبق لسانه . وأما كونه لن يحصل على فقد أعددت وسيلة أنجو بها منه الى حبيبي . . . » قالت ذلك وشرقت بريقها فاختنق صوتها فارسلت دموعها وهي صامتة لاتشهق ولا تتكلم فازدادت ليلى مشاركة لها في ذلك الامر ولكنها استغربت قولها انها أعدت وسيلة للنجاة الى حبيبها فقالت « وأي وسيلة أعددت ..؟ وأين هو حسن الآن »

فلما سمعت سمية اسم حسن لم تعد تمالك عن البكاء فكان جوابها الشهيق والنحيب وليلى تهم أن تطمئنها عن حسن وتخاف أن يصيبها سوء من البغتة . . فعولت على استطلاع سر الامر فقالت « اذا كنت تحبينني لاتخفي عني سر هذا الامر فقد رأيت مني كل مساعدة ومشاركة وأنا خادمة لك الى آخر نسمة من حياتي . . قولى . . لاتخفى عني شيئاً .. »

فقالت وهي تمسح دموعها « أما سبب كونه لم يحصل على فلأنه أراد أن يطوف بالكعبة في آخر الحجة الماضية فمنعه ابن الزبير من ذلك فاقسم انه لاينزع السلاح عنه ولا يقرب النساء ولا الطيب حتي يقتله » (١)

فتذكرت ليلى انها كانت لاترى الحجاج إلا بسلاحه حيثما كان ليلا ونهاراً وسرت من أجل حسن لعلمها ان ذلك الخبر يشرح صدره ثم أرادت أن تستطلع كيفية نجاتها فقالت « وكيف تقولين انك دبرت وسيلة للنجاة »

فمدت سمية يدها الى جيبها فاستخرجت منه صرة صغيرة حلت عقدتها

(١) ابن الاثير ج ٤

فاذا في داخلها قطعة رق ملفوفة لفا بشكل درج فتبادر الى ذهن ليلى انها كتاب لانهم تعودوا أن يلفوا الكتب على هذه الصورة . ثم رأت سمية تناولت ذلك الرق بين أصابعها وقالت « ان الفرج يأتيني من هذا الدواء .. »

فقالت ليلى « وما ذلك ؟ »

فقالت « هو سم احتفظت به حتى اذا تحققت وقوع الخطر تناولته فيذهب بي الى مكان أرجو أن ألاقي حسناً فيه »

فرأت ليلى أن تبوح لها بالسر فقالت « وما قولك اذا لاقيت حبيبك وأنت حية .. »

فتفرست سمية في وجه ليلى وهي تحسبها تمازحها وقالت « لاتحببي الحياة الى فان لقائي اياه في العالم الآخر خير وأبقى . أما هنا فلا أمل لي بذلك »

قالت « لاتقطعي الامل يا سمية »

فاجابت وهي تحسبها تخفف عنها « لا أبالي قطعت الامل أم لا أقطعه فان مدة عذابي في هذا العالم أصبحت قصيرة ولا بد من انقضاء هذه الحرب فاذا ظل هذا الطاغية حياً كان دوائي في هذه الصرة واذا مات . . ولكن ما الفائدة من بقائي حية وحدي ؟ »

فقطعت ليلى كلامها وقالت والجد في غنة صوتها « اذا بقيت حية فانك لا تكونين وحدك لان حسناً حي »

فلما سمعت سمية ذلك بغتت وعادت الى التفرس في وجه ليلى فرأت الجد بادياً في عينيها فوثبت من مجلسها وقالت « بالله أعيدي ذكره وعلليني ببقائه . . . قولي انه حي فان ذكره يحييني . . ؟ » قالت ذلك واختنق صوتها فبكت ثم قالت « ولكن ما الفائدة من التعلل بالاحلام . . »

فقالت « لسنا في حلم وانما نحن في يقظة وقد آن لك أن ترى حسناً انه في انتظارك على مقربة من هذا الخباء وسأدعوه اليك لتلتقيا » ثم خففت صوتها وقالت « وتتواعدا على وقت تفران به من هذا المعسكر ولا

خوف من مجيء الحجاج الليلة بسبب القسم الذى أقسمه فهو طبعاً لا يأتي خيم نسائه »

الفصل السادس والستون

ضاع ثانية

وكانت سمية تسمع قول ليلي ولا تصدقه ولكنها لم تر بداً من تصديقه وخصوصاً لما سمعت ان حسناً بقرب خبائها فهرولت الى شق فى الخباء ونظرت الى الخارج وكان الليل قد سدل نقابه فلم تر أحداً فنادت أمة الله فأسرعت اليها وقد أنارت السراج ودخلت حتى وضعته على المسرجة فقالت لها سمية « هل رأيت أحداً جالساً حول هذا الخباء »

قالت « كلا يا مولاتي ولكنني رأيت رجلين مرا معاً وخرجا من المعسكر »

فقالت ليلى « هل رأيت على أحدهما جراباً ؟ »

قالت « أظننى رأيت احدهما يحمل جراباً »

فأسرعت ليلى وسمية في أثرها وأطلتا من باب الخباء فلم تريا أحداً فتحولت ليلى نحو المكان الذي أجلسته فيه فلم تر له أثراً فاسقط في يدها واعملت الفكرة في سبب ذهابه ومن هو الرجل الذي سار به فلم تهتد الى حل

أما سمية فخامرها شك في قول ليلى ولكنها تحققت صدقها لما بدا في عينيها من دلائل الاهتمام وما غشي جبينها من أمارات الانقباض فقالت لها « ماذا عسى ان يكون سبب هذا الذهاب . . والى أين ؟ »

قالت ليلى « لايخلو ان يكون ذهابه لامر ذى بال فقد جاء معى وهو لا يصدق انه يحظى برؤيتك ولا أظنه تحول من هذا المكان الا بالرغم عنه . ولعله يعود الليلة فلنترقب رجوعه . ولكن من هو ذلك الرفيق ؟ . فان حسناً غريب في هذا المعسكر وقد جاء اليه متنكراً فكيف عرفوه ؟ »

ثم دخلتا الخباء ومكثت سمية وهى مطرقة واستغرقت في الهواجس

وقد أصاخت بسمعها فاذا هب النسيم ظنت حسناً قادماً فيضطرب قلبها .
وخرجت ليلى الى خباء هند وهي تكتم مافي نفسها لعلها تستطلع شيئاً جديداً

أما سمية فنادت أمة الله وكانت هي أنيستها في وحشتها ومعزيتها في أحزانها وهى وحدها تعرف مكنونات قلبها . فلما نادتها لم تسمع جوابها ولا جاءتها فاعادت الصوت فلم يجبها احد فاستعاذت بالله من تلك الليلة وخرجت الى حيث تتوقع ان تراها فرأت من خلال الظلام شبحين أمة الله احدهما والثانى بلباس الرجال فخفق قلبها لانها توسمت ان يكون الشبح الآخر حبيبها حسناً فلم تعد تصبر عن المناداة فقالت « أمة الله ! »

فقالت « لبيك يامولاتى انى قادمة على عجل » . قالت ذلك وظلت واقفة مع الرجل فاشتغل بال سمية ولم تعد تستطيع صبراً وهمت بالمسير نحوها فرأتهما قادمين نحوها فتقهقرت حتى وقفت بباء الخباء ووسعت حتى يقع نور السراج على القادمين لتتعارف الوجوه . فتقدمت أولا أمة الله وحدها وظل الرجل واقفاً على بضع خطوات من الخباء ولكنها تبينت قيافته فاذا هو بلباس حرس الحجاج فتشاءمت منه ودخلت الخباء مسرعة وأمة الله في أثرها . وكانت أمة الله قد ادركت اضطراب سيدتها من منظر ذلك الرجل فابتدرتها قائلة « لا تخافي يا مولاتي ان الرجل رسول خير »

قالت « ممن »

قالت وقد خفضت صوتها « من حسن »

فبدت البغتة في وجهها وقالت « ليدخل »

الفصل السابع والستون

يا شوقي والحبيب قريب

فخرجت أمة الله وعادت والرجل معها وعليه لباس الحرس ــ ولم يكن لباس الجند قد تميز يومئذ عن ألبسة سائر الناس تميزاً تاماً واما حرس

الامراء فقد كان له لباس خاص لان معاوية اقتبس الحرس من الروم وميزهم بعلامات خاصة . فوقفت سمية لاستقبال الرجل وركبتاها تصطكان لعظم اضطرابها من منظره

أما هو فلما دخل حياها باحترام وقال لها بصوت منخفض « لا يزعجك أمري يا مولاتي ولا يخيفك هذا اللباس فاني خادم لك ولمولاى حسن . . . »

فلما سمعت صوته تفرست في وجهه فانتبهت حالا أنه عبد الله خادم حسن فصاحت فيه « عبد الله ؟ »

قال « نعم يا مولاتي اني خادمك عبد الله »

قالت « وما الذي جاء بك الى هذا المعسكر وأين حسن . . هل هو حي كما يقولون ؟ » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فقال « نعم ياسيدتي انه في قيد الحياة ولم اكن أعرف ذلك الا في هذه الساعة وكنت قد يئست من حياته مثلك ولكن الله انعم على به . . فالحمد لله »

قالت « واين هو »

قال « هو مختبيء على مقربة من هذا المكان حيث لا يراه أحد لانه جاء متنكراً ولم ينتبه له الا أبوك فدس الى الاميران يقبض عليه وقد اطلعت أنا على هذا العزم فأسرعت اليه وأنبأته بالمكيدة وخرجت به الى مخبأ بقرب هذا المعسكر وجئت لانبئك بذلك حتي تتساعد في استنباط حيلة تخرجان بها الى حيث تشاءان وأنا في خدمتكما »

فقالت « سامح الله والدي .. لا لا .. لا سامحه الله على مايسومنا اياه من البلاء لقد أصبحت أكره اسم عرفجة وأكره أن أراه من أجل هذه المعاملة . آه يا ربي ما العمل ما الحيلة . عبد الله قل لى هل حسن فى مأمن ؟ »

قال « نعم يا مولاتي انه فى مكان أمين لا بأس عليه »

فقالت «وكيف ادخلت نفسك في زمرة الحرس وكيف انطلى أمرك على الحجاج وعلى والدي »

قال « ان حكايتي طويلة وخلاصتها اني لما يئست من لقاء مولاي حسن في المدينة وكنت قد عثرت على خرجه وفيه كتاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير والكتاب سري ولا بد من ايصاله الى صاحبه — لم أر خيراً من القدوم الى مكة فاذا كان مولاي حسن قد سبقني اليها لقيته وسلمت اليه الكتاب ليعطيه الى ابن الزبير واذا لم أجده أوصلت الكتاب أنا فركبت من المدينة حتى اذا دنوت من مكة علمت ان رجال الحجاج محيطون بها من كل جانب ولا يستطيع أحد الدخول اليها وخصوصاً أنا ومعي ذلك الكتاب فلاح لي ان احتال في دخول معسكر الحجاج لعلي اتنسم خبراً عن سيدي ودخولي فيهم هين لانني من ثقيف والحجاج من ثقيف وهو كثير الثقة في قبيلته ويعرفني من قبل ولكنني اعلم ان الحجاج رجل شديد داهية فربما اشتبه في أمري فيأمر بقتلي فعزمت على ان اتقرب بذلك الكتاب اليه وانا لا ارى نفعاً منه بعد ضياع مولاي وربما تمكنت باقترابي من الحجاج من استطلاع خبر أو لعلي أوفق الى معرفة أمر مولاي فتظاهرت باني قادم على الحجاج بامر ذي بال يهمه وجئت معسكره وطلبت أن أخلو به سراً فاذن لي فلما عرفته بنفسي عرفني . ثم استخرجت له ذلك الكتاب وأنا عالم أن ليس فيه ذكر لمولاي حسن وانما خطاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير في أمر خطبة أو نحوها فتظاهرت اني عثرت على هذا الكتاب مع رجل قادم من الشام ولما رأيت عليه اسم عبد الله بن الزبير اشتبهت بامره فقتلت حامله وجئت بالكتاب اليه

« فلما سمع الحجاج ذلك مني وهو يعلم أني من قبيلته أحسن الظن بي وقربني منه وجعلني من حرسه كما ترين . وفي مساء ذلك اليوم قدم والدك عرفجة على الحجاج فاطلعه على ذلك وأنا واقف ببابه . فلما اطلع أبوك على الكتاب ناداني فدخلت الفسطاط فقال « من أين أتيت بهذا الكتاب ؟ » فقصصت عليه الخبر كما ذكرته فقال « ان صاحب هذا الكتاب عدو لنا عرفناه في المدينة وحاولنا قتله والظاهر أننا لم ننجح لان الذي ذهب لاغتياله لم يعد الينا فهل قتلته أنت ؟ » فلما سمعت قوله اطمأننت

على حياة مولاى وعولت على اتمام الحيلة فقلت « لا أعلم اذا كان هو الذي قتلته ولكنني قتلت شاباً بلباس كذا » وذكرت له ما يقرب من صفات مولاي فقال « لعلك اصبت مرادي وعلى أى حال فقد فعلت حسناً » وأدناني أبوك منه ومكثت في جملة الحرس وأنا اتفقد الاحوال واستطلع الاخبار حتى جاءنا مولاى في هذا النهار مع ليلى الاخيلية وقد تنكر فعرفته ولم ينتبه لى ولا أنا أردت أن يعرفني لئلا ينكشف أمرنا . فتجاهلت حتى دخلت ليلى على الحجاج وخرجت . وكان والدك مع الحجاج في الفسطاط فلما خرجت ليلى رأيت في وجه والدك الغدر وسمعته يخاطب الحجاج فاصغيت فاذا هو يشير باصبعه الى ليلى ويقول « ان راويتها جاسوس متنكر وأشار بالقبض عليه فعلمت ان والدك عرفه وتحققت أنه إذا ظفر به قتله لا محالة . فاحتلت في الخروج اليه حتى جئته وهو جالس بقرب هذا الخباء وعرفته بنفسي فاخبرني انك هنا وانه جاء من اجلك فذهبت به الى خرابة وراء هذا المعسكر لا يهتدى اليها أحد ووعدته أن آتي اليك وأطلعك على أمره لندبر حيلة في الفرار من السجن »

الفصل الثامن والستون

ليلى وعرفجة

وكان عبد الله يتكلم وسمية تتطاول بعنقها وتصيخ بسمعها وعيناها شاخصتان فيه . فلما جاء على آخر الحديث واطمأن بالها على حبيبها انبسطت نفسها وقالت « بورك فيك يا عبد الله انك نعم الرجل أنت واذا اتيح لنا النجاة على يدك جعلنا لك حظا من سعادتنا والا فلا حول ولا . . »

فقال ان النجاة قريبة ان شاء الله ولكن لا بد من الصبر فاذني لى بالانصراف الآن لاعود الى موقفي لئلا يشتبهوا في أمري فاذا حدث شيء أو احتجت الى في شيء فانى رهين اشارتك واذا حدث عندي شيء جئتك به » قال ذلك وهم بالخروج فاستوقفته وقالت له « الى اين وكيف تترك

حسناً وحده في تلك الخربة ومن أين يأكل وأين ينام »

فقال « تظنين انى تركته ولم أعد اليه ؟ . . . كونى براحة تامة فاني افتقده وادبر له كل ما يحتاج اليه »

فاثنت على شهامته وحالما خرج عادت الى هواجسها وقدسرها وثوقها من بقاء حسن حياً ورغبته فيها وقربه منها وتوسمت فى مساعى عبد الله خيراً . ولكنها تذكرت ليلي فنادت امةالله وكانت قد تبعت عبدالله لتكرر الوصاية بشأن حسن فلما سمعت سيدتها تناديها عادت مسرعة فقالت لها سمية « اين هى ليلى ؟ . . ائتنى بها »

قالت « هي في خباء هند » وخرجت ثم عادت وهى تقول « لم أجد في الخباء أحداً . . »

فاستغربت ذلك وقالت « ألم تسألى الخدم عنهما ؟ »

قالت « سألت الخادمةفقالت لى أن هنداًخرجت عند الغروب للتمشي بين الاخبية ثم جاءت ليلى للسؤال عنها فلما لم تجدها اقتفت أثرها ولم تعودا من ذلك الحين »

فقالت « وأين تذهبان في هذا الليل . . ؟ اخاف أن يكون الحجاج بعث للقبض على ليلى لأنها واطأت حسناً على التنكر » وخافت سمية اذا بالغت في البحث عنهما ان تزداد الشبهة عليها فدخلت خباءها وجلست تفكر بما مر بها في تلك الليلة من الغرائب وكلما تصورت انها نجت بحبيبها وخرجت من معسكر الحجاج يختلج قلبها فرحاً

أما عرفجة فانه عرف حسناً حالما وقع بصره عليه وتجاهل حتى خرجت ليلى فدس الى الحجاج انه عدو كما تقدم . فعهد الحجاج اليه أن يفعل به ماشاء فلما ارفض المجلس خرج عرفجة الى صاحب الحراس واوصاه أن يبعث بضعة عشرمن رجاله بالسلاح يقتفون أثر رفيق الشاعرة ويقبضون عليه حيثما وجدوه . وكان عبد الله قد سبق اليه باسرع من لمح البصر وخرج به الى ذلك المخبأ

أما الحرس فلما لم يعثروا على حسن عادوا الى عرفجة فقال « الى

بليلى فانها تكون في اخبية النساء » فعادوا اليها فرأوها تتمشى مع هند بجوار الاخبية فاشاروا اليها أن تأتي الى فسطاط الحجاج . فلما سمعت ذلك خافت من انكشاف أمرها ولكنها لم تر بداً من الطاعة فسارت مع الحرس حتى أتوا الفسطاط والظلام قد عقد قبابه فلم يدخلوا الفسطاط فظلت هي في أثرهم حتى دخلوا فسطاطاً آخر رأت في صدره عرفجة جالساً فلما رأته استعاذت بالله من شر ذلك المساء ولكنها كانت بريئة لاتبالي بمن تلاقي وحيت فدعاها الى الجلوس وقال لها « أين هو راويتك يا ليلى ؟ . »

فلما سمعت سؤاله أدركت أن أمر حسن انكشف فلم تشأ أن تشرك نفسها في ذنبه فيقعان معاً ولا تعود قادرة على مساعدته فعمدت الى الحيلة فقالت « وأي راوية تعني ؟ »

قال « راويتك الذي يحمل جرابك وقد جئت به اليوم »

قالت « وهل دخلت على الامير ومعي راوية ؟ ... »

قال « لم يدخل معك ولكنه بقي خارجاً ولما مضيت اقتفى اثرك »

قالت « وهل يدل ذلك على انه راويتي وكيف يكون راويتي ولا ادعوه للجلوس معي في حضرة الامير ... »

قال « أراك تتنصلين من تبعته ونحن لا نبغي به شراً »

قالت « لا يهمني مهما بغيت به فقد كنت في هذا المعسكر منذ الامس ولم يكن معي راوية فمن أين اتى هذا الآن .. »

قال « جئت به من مكة »

قالت « اظنك تعني الرجل الذي يحمل الجراب فقد التقيت به عند دخولي المعسكر ورأيته يسير بجانبي فلم انتبه لامره .. ولا اعرفه .. ومع ذلك فاذا كنتم تسيئون الظن بمن يبذل نفسه في خدمتكم فلا حيلة لنا فيكم .. »

فلما رآها غضبت جعل يخفف عنها ويقول « نحن لم نسيء الظن بك يا ليلى وأنت شاعرة الامير ولك عنده المنزلة السامية ولكن هذا الرجل قد خدعنا وهو جاسوس دخل معسكرنا تحت ظلك ونحن نحسبه راويتك »

قالت « هل يخاف الامير من الجواسيس ومن كان مثل أميرنا في الحزم وشدة البطش فلا يخاف الجواسيس وانا اذا علمت بجاسوس في هذا المعسكر يجدر بي ان اطلع الامير عليه لانى ضنينة به »

قال « بورك فيك وارجو أن تكوني عيناً على هذا الرجل اذا رأيته انبئينا بمكانه فقد بعثنا من يقبض عليه فلم يقفوا له على اثر ولعله اذا طلعت الشمس يظهر فاكتمي هذا الآن . . » قال ذلك ونهض فنهضت ليلى وخرجت من عنده وهى مشتغلة الخاطر على حسن ولكنها سرت لنجاته من قبضتهم على انها لم تعلم اين هو فعادت تواً الى سمية وقصت عليها الخبر فاطلعتها سمية على حديث عبد الله فاطمأن بالها

الفصل التاسع والستون

وسيلة الفرار

أما حسن فقد علمت انه اختبأ في خربة بجانب المعسكر وهى تطل على الطريق المؤدي الى مكة فقضى ليلته هناك كأنه على جمر الغضا وافكاره تائهة في ما حل به وعظم عليه ان يخرج من معسكر الحجاج فراراً ولكنه ادرك انه يستحيل عليه النجاة بغير هذه الطريقة ولبث ليله لم يغمض له جفن وهو يعمل فكرته في سبيل لنجاة سمية من الحجاج فاذا نجا بها فقد غلب الحجاج وجنده وخليفته

وكان عبد الله قد وعده ان يعود اليه بالحيلة التي دبرها للفرار فقضى ليله في أمثال هذه الهواجس وفي الصباح صعد على اكمة اشرف منها على معسكر الحجاج لعله يرى رسولا او يستبشر بشارة فرأى بينه وبين المعسكر أرضاً خالية وتبين المكان جيداً . وفيما هو يتطلع رأى رجلا قادماً على هجين من اطراف المعسكر كأنه آت من الصحراء ولم يمض قليل حتى ظهر الرجل بلباس اهل البادية ثم تبين له من ملامحه انه خادمه عبد الله فاستبشر بوصوله

فلما وصل ترجل واشار اليه ان يتربص في الخربة ولا يظهر نفسه على تلك الصورة فقال له حسن « ماوراءك الآن ؟ »

قال « ابشرك أولاان الحجاج لم يتزوج سمية وان كان قد كتب كتابه عليها . . »

قال « وكيف عرفت ذلك . . ؟ »

قال « عرفته عن ثقة . واخبرتني به ليلى الاخيلية وهى التى ساعدتنا في تدبير الحيلة للخروج . . » وذكر له امر القسم الذي أقسمه الحجاج فانشرح صدر حسن بهذه البشارة لانه يكره ان يمسها أحـد فقال « وما الذي دبرتموه فانى أرانى ذليلا بخروجى فراراً على هذه الصورة ويخيل لي ان سمية لاترضى مني هذا الضعف . . . »

قال « والحال بالعكس فانها لما علمت بنجاتك سرت سروراً عظيما لان بقاءك ربما كان سبباً للفتك بك وبها . وما الفائدة من الاصرار على العبث هل كنا نقدر على مقاومة الحجاج وجنده ؟ . . . مالنا ولهذا فقد جئت اليك في تدبير تم رأينا عليه في هذا الصباح وهو أن اترك هذا الجمل عندك وأعود وأنت تتأهب للركوب في العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التى تراها امامك فتلاقينا هناك انا وسيدتي سمية وكل منا على هجين ومعنا المؤونة اللازمة للسفر في الصحراء اياما ومتى بعدنا عن مكة كنا في مأمن . . . »

فسر حسن لهذا التدبير مع علمه بمشقة الوصول اليه لكنه وافقه وقال « انى في انتظاركما على ما وصفت ولكن احذر أن يطلع أحد على ما دبرتموه فتكون الثانية شراً من الاولى فاني في هذه المرة لا أفر من أحد فاذا لقيني جند ومعي سمية لا أفر ولا أرجع بل اناضل عنها حتى اموت بين يديها »

قال « لا يهمك امر تدبير هذه الحيلة فقد اعددنا كل شيء ولا خوف على سمية لان الحجاج لايأتي الى خباء أهله مطلقا في هذه الايام للسبب الذي ذكرته لك »

الفصل السبعون

الوقوع في الفخ

فاطمأن بال حسن وجلس يتناول طعاماً احضره له عبد الله ولم تمض ساعة حتى سمع قعقعة اللجم ووقع حوافر الخيل فصعد الى الاكمة فاذا هو ببضعة وعشرين فارساً قد اكتسوا بالادراع لا يظهر من وجوههم غير الحدق يتقدمهم عبد عرفه لاول وهلة انه قنبر عبد عرفجة . فلما وصلوا الى المكان أشار قنبر بيده الى حسن وقال « هذا هو فامسكوه » فاحاطوا به من كل ناحيـة فلم ير حسن بداً من التجلد فقال لهم ما بالكم ما الذي تطلبونه »

فأجابه قنبر وهو يضحك ضحك الاستهزاء « ان الامير يدعوك الى وليمة العرس »

فاستشاط حسن غضباً من استخفاف ذلك العبد . وقال له « اخسأ يا عبد السوء وما انا سائلك . . »

وما أتم كلامه حتى رأى الفرسان احدقوا به وسيوفهم مسلولة فوضع حسن يده على قبضة سيفه وقد ثارت الحمية في رأسه وقال لهم « لا يغرنكم عددكم ولا تظنوا اني أهاب سيوفكم وخيولكم ولا تحسبوا انكم تأخذونني بالرهبة او بالعنف . فان امراً تدعونني اليه بالحسنى تروني مصغياً اليه وأما بالعنف فلا تنالون مني شعرة قبل ان يقطر حسامي من دمائكم » قال ذلك وقد اخذ الهياج منه مأخذاً عظيما ولم يعد يبالي بالحياة

فتقدم اليه فارس منهم لا يظهر من وجهه غير الحدق من خلال اللثام وقد شهر السيف بيده وقال « نراك تظهر من الضعف قوة وما انت الا جاسوس نذل لا احسبك تحتمل ضربة من هذا السيف »

فلما سمع حسن قوله صعد الدم الى رأسه وعمي بصره وصمت اذناه عما يقول الفارس وصاح فيه « ويلك اتخوفني بسيفك وما أنا خائف من كل

هذه السيوف ولا يخاف السيف الا من يخاف الموت ولست ذلك الرجل فاذا اردت النزال فانزل نتضارب راجلين ولا يصح النزال وانت راكب وأنا راجل . واذا خفت انفرادك فانزلوا جميعاً وانا استعين الله عليكم »

فضحك الفارس بصوت عال سمعه كلهم ثم قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن « لو ان الامير امرنا بقتلك لاريتك القتل كيف يكون ولكنه أمرنا ان نقودك اليه اسيراً . . فامش . . »

قال «لا أسير ماشياً وانتم راكبون فاما أن أركب معكم او تمشوا معي» فلما رأوا هذه الجرأة منه هابوه وحسبوا له حساباً وجعلوا يتسارون فيما بينهم عما يفعلونه . فاشار بعضهم بقتله فقال آخرون ان الامير لم يأمرهم بذلك فقر رأيهم على مسايرته ريثما يبلغون المعسكر وللحجاج فيه رأيه . ويندر ان يساق الى الحجاج متهم وينجو من القتل فانه كان سفاكا للدماء حتى أحصوا الذين قتلهم فى حياته فبلغوا مئة الف وعشرين الفاً ووجدوا في سجونه بعد موته ثلاثة وثلاثين الفاً لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب [1] فرأى الفرسان أن يعاملوا حسناً بالحسنى ويتركوا أمر الايقاع به الى الحجاج فتقدم اليه فارس غير الذى كلمه أولا وقال له «لو كنا مأمورين بقتالك لقاتلناك مشاة أو فرسان ويحكم الله بيننا وبينك ولكننا جئنا لنحملك الى الامير »

قال « قلت لكم انى لا أسير معكم ماشياً وأنتم راكبون » وكان قنبر واقفاً يسمع كلامه وهو يستغرب صبرهم على جرأته فلما سمع قوله تقدم اليه وقال بلهجة العبيد ورطانتهم « امش ياهسن وهل انت أهسن مني ؟ . فها أنا أيضاً ماش »

فلما سمع حسن كلامه لم يتمالك ان جرد سيفه وصاح فيه اذا تكلم الناس فاخرس أنت يا عبد النحس . والا فاني مطير رأسك بحد هذا السيف »

---

(١) العقد الفريد ج ٣

فما كان من قنبر إلا أنه ضحك حتي كشر عن أسنانه فبانت نواجذه ثم قال « اقتلني اقتلني . . وبعدقليل نرى من يقتل منا .. ولكنك لا تلام وأنت زعلان على سمية لانها هرجت من يديك تعال يامسكين وانظرها بين نساء الامير وهي تدهك عليك ومولاى عرفجة يسلم عليك . . »

فلما سمع حسن ذكر سمية وعرفجة ورأى ذلك العبد يحتقره ويهزأ به هاج غضبه واستغرب سكوت سائر الفرسان عن وقاحته ولكنه أمسك نفسه وقال له « لولا خوفي ان يقال لطخت حسامى بدم عبد لئيم لاطرت رأسك عن جذعك ولكنني ارجو أن يكون ذلك نصيب مولاك الخائن . فاخرس ولا تخاطبنى وإلا فلومك على نفسك »

الفصل الحادى والسبعون

على الباغي تدور الدوائر

فلم يزدد قنبر الا وقاحة واستخفافا فتقدم نحو حسن ويده على قبضة سيفه وقال « أمثلي تقول هذا الكلام يا حسن ثم تعرض بذكر مولاي والله اني ضاربك ضربة اعلمك الاذب والحشمة » قال ذلك وهم باستلال السيف فلم يعد حسن يصبر على وقاحته مع سكوت الفرسان فجرد هو حسامه وتلقاه بضربة على عنقه فذهب رأسه يتدرج على تلك الاحجار

فلما رأى الفرسان ذلك صاحوا فيه « لقد حل لنا دمك بعد هذه الجرأة . كيف تتجرأ على قتل هذا الرجل بين أيدينا »

فلم يبال حسن من غوغائهم وأجابهم « أتعدون هذا رجلا ومن يعده رجلا لجدير ان يناله ما ناله ثم انى رأيتكم سكتم عن وقاحته فلم أتمالك عن قتله وقد قلت لكم اني لا أبالى بالموت فلا تخوفونى به » قال ذلك وقد كاد الشرر يتطاير من عينيه وظل واقفاً وسيفه يقطر من دم قنبر وقد اشتفى قلبه بقتله ويئس من الحياة لانه لم يكن يتوقع من هؤلاء الفرسان الا الفتك به فعزم في باطن سره على الدفاع الى آخر نسمة من حياته فاذا مات

فلا أسف على الحياة في الذل . ولكنه مالبث ان رأى الفرسان يتسارون ثم تقدم أحدهم وترجل عن فرسه وقدمه له قائلا « هذا جوادي فاركبه حتى تأتي المعسكر وشأنك والامير . وانا اركب جملك »

فلما سمع صوت الفارس عرف انه خادمه عبد الله فاستأنس به واطمأن باله وأدرك ان ما آنسه من حسن معاملتهم له وصبرهم على اقواله انما كان بواسطته فركب الجواد وساروا جميعاً نحو المعسكر

وكان السبب في الاطلاع على مكان حسن ان عرفجة لما خرجت ليلى من عنده ولم تطلعه على مقره بعث عبده للبحث عنه في المعسكر فقضى طول الليل في البحث وفي الصباح رأى هجاناً قادماً الى المعسكر من ناحية تلك الخربة ولم يعرف الهجان ولكنه انتبه لذلك المخبأ فخرج خلسة فرأى حسناً وجمله وحسن لم ينتبه له . فاسرع الى سيده فانبأه بما رأى فاوعز عرفجة الى الحجاج انه ظفر بالجاسوس وانه يحتاج الى كوكبة من الفرسان ليقبض عليه فاذن له بذلك

وكان عبد الله قد عاد الى موقفه مع الحرس فلما سمع الامر احتال في مرافقة الفرسان لعله يستطيع مساعدة سيده في شيء ولكنه كان خائفاً عليه في أي حال فبذل جهده حتى ابقى عليه مع ما ارتكبه من قتل قنبر وكان قنبر ذا منزلة رفيعة عند الحجاج مراعاة لمولاه ولانه ينفع في مثل هذه المكايد ولكن الجند لم يكونوا يحبونه لفرط استبداده ووقاحته واستبداد العبيد ثقيل على الطباع . فلما قتله حسن فرحوا في باطن سرهم ولو أظهروا الغضب

وبعد ان ارسل عرفجة الفرسان دخل على الحجاج في خيمته وجلسا ينتظران ما يكون وعرفجة يمهد السبل للفتك بحسن فاقنع الحجاج انه جاسوس وانه اذا بقي حياً لا نؤمن غائلته وأهون ما يكون قتله واراحة البلاد منه والحجاج لايحتاج في القتل الى توصية أو تحريض لما علمته من رغبته في سفك الدماء

وآن وقت الغداء ولم يشأ الحجاج الخروج من الفسطاط قبل مجيء

الفرسان ليرى ذلك الجاسوس المهول على مابالغ عرفجة في وصفه فلما جاع لم يعد يصبر عن الطعام فامر ان يؤتى به الى الفسطاط فجاءوه بالمائدة وكان الحجاج يعد من الاكلة المشهورين في الاسلام مثل سليمان بن عبد الملك وميسرة البراش وغيرها حتى قالوا انه اكل ٨٤ رغيفاً مع كل رغيف سمكة في اكلة واحده[١] فجاءوه بالطعام ودعا من في مجلسه للاكل معه فاعتذروا ليس عن شبع ولكنهم امتنعوا تهيباً إلا عرفجة فانه أكل معه ولم يكن يحسن المضغ لفرط قلقه مما دبره لحسن من المكايد . فلما فرغ الحجاج من الطعام رفعوا المائدة وجلسوا والحجاج يمسح لحيته بيده ولا يتكلم وكان عظيم الهيبة حسن الفراسة فاذا سكت لبث الذين في حضرته سكوتاً كأن على رءوسهم الطير

الفصل الثاني والسبعون

المحاكمة

وهم جلوس على تلك الحال دخل الآذن وهو يقول « عاد الفرسان وعما قليل يصلون »

فقال الحجاج « ألم تر الاسير معهم »

قال « لم أر احداً ماشياً »

قال « اخرج وتفرس لعله جاءنا على جواد »

فخرج ثم عاد وهو يقول « أظنه جاء راكباً لاني رأيت معهم رجلا بلباس غريب »

فلم يتمالك عرفجة عن الوقوف بباب الفسطاط وأطل على القادمين ولما وقع نظره على حسن عرفه وكانت أول مرة التقيا فيها بعد تلك المقابلة في المدينة

أما حسن فلما رأى عرفجة ارتعدت فرائصه من الغيظ وود لو أن

(١) المستطرف ج ١

سيفه أصاب عنقه بدلاً من قنبر فيقطع الحية من رأسها . وتفرس عرفجة في الناس فلم ير قنبراً فظنه تأخر في الطريق فدخل الفسطاط وجلس بجانب الحجاج ثم دخل الآذن (١) وأنبأ الحجاج بوصولهم فقال «ادخلوا الرجل لنراه»

فادخلوه عليه وقد نزع سيفه ووقف حارسان من كل جانب في يد كل منهما حربة وفيهم عبد الله . ولا تسل عن هواجس عبد الله في تلك الساعة لما يعلمه من رغبة الحجاج في سفك الدماء . واما حسن فانه وقف بقدم ثابتة كأنه بين يدي بعض الاصدقاء والتفت الى من حوله في ذلك الفسطاط فرأى في صدره الحجاج وعرفجة والى الجانبين رؤساء الاجناد وكلهم سكوت تهيباً من مجلس الحجاج . لانه قلما رؤى ضاحكا واذا ضحك فانه يكشر عن اسنانه ولا تبدو في وجهه ملامح الضحك . وقد تسمع قهقهته فاذا نظرت الى وجهه لا تراه يضحك

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشدة وطأته ورغبته في سفك الدماء. فعمد الى الصبر والثبات حتى الموت فظل واقفاً برهة ولم يخاطبه أحد في شيء والحجاج ينظر اليه ويتفرس فيه ثم قال له «من أنت ؟»

قال «ما أنا من ثقيف ولا من أمية»

قال «وما تعني بذلك . .»

قال «أعني انى لست من قبيلة الامير ولا من قبيلة أمير المؤمنين ومهما كنت بعد ذلك فأنا غريب وللامير رأيه فى . .»

فتصدى عرفجة لخطابه ولم يصبر على الحجاج ريثما يتكلم وقال «أمثل هذا الجواب يخاطب ولى امير المؤمنين . . انها وقاحة ! . .»

فلم يصبر حسن على سماع ذلك من عرفجة فالتفت اليه وقال «بل الوقاحة ان يتصدى مثلك للجواب عن مولانا الامير ويقطع الكلام عليه»

فاراد عرفجة أن يتكلم فرأى الغضب في وجه الحجاج وهو ينـ

(١) الاغانى ج ١٠

بالكلام فسكت فقال الحجاج « لسنا في مقام جدال فاخبرني ما الذي جاء بك الى هذا المعسكر متنكراً »

فتحير حسن في الجواب وخاف أن يصرح بحقيقة غرضه فيهيج غيرته عليه ولا سبيل بعد ذلك للنجاة فلبث ساكتاً فاستبطأ الحجاج جوابه فاعاد السؤال فقال حسن « جئت لامر يهمني ولا يهم سواي ولا علاقة له بالحرب ولا بالسلم . . »

قال الحجاج « نرى أجوبتك مبهمة فافصح »

فلبث حسن ساكتاً فاغتنم عرفجة سكوته وخاطب الحجاج قائلا « ان أجوبته مبهمة لانه يخاف ان يعترف بفعلته وأنه جاسوس من عبد الله بن الزبير على مولانا الامير . بل هو عدو أمير المؤمنين ويتمنى سقوط أمره ويسعى في ذلك جهده . واذا رأيته ينكر ذلك فاطلب اليه أن يلعن الكاذبين . . »

فالتفت الحجاج الى حسن كأنه يستطلع رأيه في ما قاله عرفجة فقال حسن « حاشا لله أن اكون كما يقول »

فقال الحجاج « اذا كان الامر كذلك فالعن الكاذبين على بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد » (١)

فارتبك حسن في أمره لانه لا يعتقد كذب هؤلاء ولا يريد أن يلعنهم وخصوصاً على بن أبي طالب . واذا لم يلعنهم فيتخذ عرفجة ذلك حجة عليه فقال « لا أرى علاقة بين صدق نيتي في خدمة أمير المؤمنين عبد الملك وبين لعن هؤلاء . . »

فصاح عرفجة للحال « أرأيت يا مولاي أنه خائن غادر يكذب على الامير كذباً صريحاً . . ؟ أما قلت لك أنه جاسوس والجاسوس يستوجب القتل أقتله يا مولاي وأرح نفسك منه .. » قال ذلك وأعضاؤه كلها ترتعش ولحيته تنتفض في وجهه مع صغرها وعيناه ترتعشان كأنهما قد فت فيهما حصرم تدلان دلالة صريحة على خبثه وخيانته

(١) العقد الفريد ج ٣

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا فراسة ونظر فأدرك ان تمنع حسن عن اللعن لا يدل على جاسوسيته ولكنه أعاد السؤال عليه وقال « لقد أطلنا بالنا عليك حتى حيرتنا جسارتك . سألناك عن نسبك فلم تجبنا وهذا ذنب وحده يكفي لاتهامك . ثم سألناك عن غرضك في طروق هذا المعسكر متنكراً فأجبت جواباً مبهما وكلفناك لعن الكاذبين فأبيت فهل تتوقع بعد ذلك صبرنا على بقائك ؟ . . »

الفصل الثالث والسبعون

افتضاح الامر

فلما سمع حسن كلام الحجاج تحقق الخطر المحدق به وخاف أن تنفذ حيلة عرفجة فيه فلبث ساكتاً وهو يفكر فى ماذا يفعل فاغتنم عرفجة هذه الفرصة الثانية وخاطبه قائلا « أجب الامير . . قل ألست جاسوساً . . . ياخائن جئت لتدبر المكايد على أمير المؤمنين ثم تدعي انك من أهل النزاهة وتتظاهر بالصدق ثم التفت الى الحجاج وقال « اني أعجب لصبر مولاى على وقاحة هذا الخائن وكيف لم يأمر بقطع رأسه . . »

فلما تحقق حسن بلوغ الامر غايته وخاف أن تنفذ حيلة عرفجة فيه فيأمر الحجاج بقتله ولا يستغرق إلا بضع دقائق عول على الايقاع بعرفجة فالتفت اليه وخاطبه بقلب جسور وقال « أتدعونى خائنا وما الخائن إلا انت . ؟ »

فوثب عرفجة من مجلسه وأظهر الغضب وقال «كيف تتجاسر على هذه الوقاحة في حضرة الامير وهو أعلم الناس بصدق طاعتي واخلاصي . والله لو أذن لى الامير لقطعت رأسك بيدي . . لاني اعلم الناس بخيانتك ويعلمها أيضا غلامي قنبر ثم صاح « قنبر » فلم يجبه أحد فكرر النداء فاجابه حسن « لن يجيبك قنبر لانه نال جزاءه.. » فالتفت عرفجة الى الحرس وأمارات الاستفهام في وجهه وقبل ان يسألهم أشار احدهم بيده « ان حسن قتله »

فاجفل عرفجة وحملق عينيه وصاح فيه « قتلت غلامي وانت واقف لا تخاف قصاص الامير .. » ثم التفت الى الحجاج وقال « أتراه لم يستوجب القتل بعد وهو قاتل عمداً . . ؟ »

فابتدره حسن قائلا « قتلته لخيانته وسوف يصيبك نصيبه بامر مولانا متى ثبتت خيانتك »

فقال عرفجة « أتتهمني بالخيانة وخيانتك ظاهرة للعيان وقد أضفت اليها جريمة القتل . . . »

فلما رآهما الحجاج يتجادلان ويحاول كل منهما اثبات الخيانة في الآخر رأى من الحزم والدهاء أن يصبر على الجدال وان كان ذلك مخالفا لما تعوده جلاسه

أما حسن فلما رأى الحجاج مصغياً التفت الى من حوله من الامراء وقال « اشهدكم على أن دم الخائن مهدور أياً كان . . . »

فقال عرفجة « ما الخائن الا انت . . »

فعند ذلك تجلد حسن حتى ملك نفسه ونظر الى عرفجة وقال له بصوت هادىء « من الخائن منا ياعرفجة ؟ »

قال « انت »

قال « انا الخائن وأنت الامين الصادق في خدمة أمير المؤمنين . .. »

قال « وهل من شك في ذلك ؟ . »

قال « وما قولك بالكرسي . . ؟ »

فلما سمع عرفجة لفظ الكرسي ارتعدت فرائصه وبدت البغتة في عينيه ولكنه تجاهل ولجأ الى المغالطة وقال وهو يضحك ويظهر الاستخفاف « كرسي .. اسمعوا ماذا يقول لاشك انه يهذي »

قال « أنسيت الكرسي ولهيب ناره لايزال يلفح وجهك .. أعرفت أي كرسي أعني يا عرفجة ؟ . »

فتحقق عرفجة اطلاع حسن على حريق الكرسي ولكنه استغرب ذلك وأنكره وعاد الى المحاولة فقال « مابالك تهذي يا رجل وأي كرسي

تعني .. » قال ذلك والحجاج ينظر في عينيه وقد تبين له وقوعه في ورطة فظل صامتاً

فقال حسن « ألم تفهم أي كرسي ؟ . . . كرسي المختار بن أبي عبيد الذي كافتموني لعنه الآن ... »

قال « وما شأنه وما علاقة المختار في ماتقول »

قال حسن وقد رفع صوته « ألا تعرف علاقته بك . . ؟ اذا كنت لاتعرف تلك العلاقة فاسأل محمد بن الحنفية عنها والرجل قريب من هذا المكان اسأله أو اسأل من شئت . واذا أنكرت استنطقنا رماد الكرسي . هل يكفي ذلك ؟ »

الفصل الرابع والسبعون

التخلص

فلم ير عرفجة بعد ذلك التصريح الا أن يطعن في أقوال حسن كلها ويبالغ في التجاهل فقال وهو يضحك « أتظن مثل هذه المفتريات تنطلى على مولانا الامير وهل تظنه يصغى لكلام مختلق لا معنى له ولا أصل . . ؟ ولكن الامير اطال باله عليك فطمعت لان الحلم فى اللئام رذيلة . فما كان أجدره ان يخرسك بكلمة يقطع بها رأسك »

قال « للامير أن يفعل بى ما يشاء ولكن ذلك لا يبطل كونك خائناً قد ارتكبت في سبيل خيانتك القتل والنفاق . وقد انكرت الكرسي وامره وأهل المدينة يعرفون تكتمك بضعة اعوام ومحافظتك على محفة لا يعرف احد مافيها . ولم يكن فيها الا كرسي المختار الذى زعم انه لعلي بن أبي طالب وحارب بني أمية من ورائه فلما مات حفظت هذا الكرسى لتجعل نفسك خليفته في مناصبة بني امية الحرب لاستخراج الخلافة منهم الى محمد بن الحنفية الذي كان المختار يدعو له »

فقطع عرفجة كلامه وقال « ان هذا محض اختلاق »

فقال حسن « ان ابن الحنفية شاهد على ذلك ومهما قلنا في استحقاقه الخلافة او عدم استحقاقه فلا يشك احد بصدقه واذا استبعدتم شعب علي في المسجد بمكة من شهد حريق الكرسي معى وشهد الاهانة التى لحقت بهذا النزيه الصادق لما تقدم الى محمد بن الحنفية أن يؤذن له بالدعوة باسمه وخلع طاعة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان . . »

ولم يتم حسن كلامه حتى ضج الفسطاط بالناس وترجح عند الحجاج صدق كلام حسن لانه كان مع تقريب عرفجة منه لا يجهل خبثه ونفاقه لان الحجاج كان من ذوى الفراسة الصادقة وانما كان يقربه منه لانه يحتاج الى أمثاله لبعض الاغراض . فلما رأى ترجيح هذه التهمة الفظيعة عليه صمم على قتله ولكنه أجل ذلك ليرى ما يكون . . . »

أما عرفجة فلما غلبته الحجة عمد الى المواربة فقال وهو يظهر التعقل والهدوء « يظهر لى ان مولاي الامير سكت عما سمعه من هذا الرجل كأنه مال الى تصديقه . . »

فقال الحجاج « وهل تحسبه اختلق ذلك كله اختلاقاً ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال الحجاج « لا يعقل انه يفعل ذلك ويستشهد أناساً معروفين . . وهب انه اختلق ذلك فما الذي يدعوه الى هذا الاختلاق . . »

فضحك عرفجة ثم أظهر الاهتمام وقال « يدعوه الى ذلك أمر أفظع من هذه الخيانة لو ذكرته بين يديك لم تصبر عن صلبه . . »

فقال « وما ذلك . . »

قال « أضن بعرض الامير ان يذكر في مثل هـذا المقام فاذا أذن مولاي بخلوة ذكرت له السبب وأنا ضامن انه يقتنع ويرى برأيي . . »

فقطب الحجاج حاجبيه وأشار بيده فخرج كل من في الفسطاط من الامراء والحراس وفي جملتهم حسن وبقى الحجاج وعرفجة فقط . فلما خرج حسن رأى في وجوه الامراء استحساناً لما سمعوه منه وكلهم ناقمون على عرفجة لفظاظته وسوء سريرته واذا أظهروا له الود في وجهه

فانما يظهرونه خوفاً من الحجاج لما يعلمونه من قرابته منه . وفاتهم ان الحجاج نفسه لم يكن يثق به وانه كان يداهنه لعله ينفعه في امر

فلما خلوا أخذ عرفجة يقص عليه حديث حسن مع سمية وانه (أي عرفجة) نظراً لما آنسه في بنته من الجمال والعقل أرادها للحجاج منذ بضعة أعوام وكان يبذل مافي وسعه لتهيئتها لخدمته . فجاء هذا الشاب وخدعها بحبه وهي فتاة لا تدرك أمور الدنيا فانخدعت بظاهره حتى انه أراد سرقتها والفرار بها وكادت تفر معه لولم يطلع هو على هذه الدسيسة فسعى في قتله بمساعدة طارق بن عمرو عامل المدينة — الى أن قال « وهذا طارق بين يدى مولاي اسأله وهو ينبئك بصدق قولى فالظاهر ان الرجل الذى أنفذناه لقتله لم يظفر به فبقى في قيد الحياة ولما علم بأن سمية زفت الى الامير جاء متنكراً ليخدعها مرة ثانية ويغريها فرأيته انا ساعة مجيئه مع ليلى بالامس وبعثت من يتعقبه فلم يجدوه ولكننى علمت انه سار الى جهة اخبية النساء وقد شق على ان اصرح بذلك لمولاى الامير لئلا اكدره فقلت ان الرجل جاسوس وهو بالحقيقة لا يخلو من الجاسوسية لانه هو صاحب الكتاب الذي جاء به ذلك الثقفي وكنت ظننته قتل صاحبه فاذا هو قتل رجلا آخر . وخلاصة الامر ان الرجل علم اننا اطلعنا على أمره ففر الى الخرائب المجاورة حتى كشف لنا سره عبدى قنبر (رحمه الله) فارسلنا معه الفرسان للقبض عليه . ويؤيد صدق قولى انك لما سألته عن غرضه من المجيء الى هنا لم يستطع جواباً . . .»

فرأى الحجاج كلام عرفجة معقولا ولكنه رأى التهمة الموجهة اليه معقولة أيضاً فلم ير خيراً من الصبر ليجلى له الحق وعزم في باطن سره ان يقتل الاثنين فامر بسجن حسن ومتى احتاج اليه في تحقيق التهمة على عرفجة استحضره . وتظاهر لعرفجة انه اقتنع بسوء قصد حسن وطيب خاطره وصرفه

الفصل الخامس والسبعون

السم

ذهب حسن الى محبسه في خيمة افردوها له في طرف المعسكر وببابها خفيران بالحراب ولما وصل اليها رآهم قد اعدوا له الاغلال فاغلوا رجليه وشدوا وثاقه فعظم ذلك عليه وأيقن بقرب الخطر . ولما خلا بنفسه جعل يفكر في ما مر به وراجع ما بينه وبين عرفجة من الجدال فرأى انه صرح بالتهمة لكنه لم يثق ان الحجاج اقتنع بجناية عرفجة وخصوصاً بعد ان علم الحجاج ان حسن يسابقه على سمية فان الغيرة وحدها تكفي لتعامي الحجاج عن كل ذنوب عرفجة واضافتها الى ذنوب حسن

قضى حسن في ذلك بقية ذلك اليوم وجاءوه بالطعام فلم يتناول منه شيئاً . قضى ليلته ساهراً وخيال سمية أمام عينيه وذكرها فى فيه وأعمل فكرته في حيلة يحملها بها ويطير من ذلك المعسكر فلم يهتد الى حيلة

وفيما هو متوسد على حصير من سعف النخل وقد أثقلته الاغلال سمع وقع أقدام خفيفة في الخيمة فانتبه فسمع صوتاً يناديه « لا تخف يا مولاى اني خادمك عبد الله »

فحاول حسن الجلوس فساعده عبد الله وجلس يقول « ما وراءك ؟ »

قال « ما ورائي الا الخير ان شاء الله »

قال « وما الذي جاء بك الى هنا »

قال « احتلت على الخفيرين حتى استبدلت أحدهما بنفسي لما لى من النفوذ لأني من حرس الحجاج ولبثت خارجاً حتى اتت نوبتي في السهر عليك ونام رفيقي فدخلت لأسألك عما تريد »

قال « لا أريد شيئاً . . . أما الفرار بنفسي لا ابغيه ولو عرض على ماقبلته وأما مع سمية فاقنع نفسى بقبوله ـ لأنى أكره الفرار وأأبى أن ارتكبه مرة أخرى »

فقال عبد الله « ما الحيلة يامولاي اذا وقع الحر بين أيدي الطغام وقد غلبوا عليه بعددهم وقواتهم ؟ أيسلم نفسه لهم أم يستحل الخروج من بينهم بأى وسيلة كانت ؟ »

قال « أتريد ان افر من هذا المعسكر وحدي واترك سمية في بيت الحجاج . هل تراني أهوى البقاء لاجل حياتي وحدي ؟ »

فابتدره عبد الله وقال « كلا يا مولاى لا أعني أن تخرج وحدك بل أعني البحث عن وسيلة تخرجان بها أنت وسمية معاً . . ولا عار في الفرار من بين يدي وحش كاسر لا يعرف الحق ولا يراعى العدل »

فظل حسن ساكتاً وسكوته دليل على القبول فلما رآه عبدالله ساكتاً استأنف الكلام فقال « وسأذهب غداً الى خباء النساء استطلع طلع الامر وأرى ما يتم الاتفاق عليه وأعود اليك . . اما الآن فاقلع عما انت فيه من القنوط وكل واشرب حتى يأتي الله بالفرج . . » ثم ودعه وخرج وقد أحس حسن بارتياح واعجب بغيرة عبد الله وصدق مودته ومكث في اليوم التالى ينتظر رجوعه بما تم عليه رأى سمية

وكانت سمية قد واعدت عبد الله على الخروج معه في مساء الامس ثم سمعت بالقبض على حسن والرجوع به الى المعسكر ثم بلغها أنه سجن ومالبثت ان رأت الجند قد احدقوا بخبائها ومعهم السلاح فايقنت ان الحجاج اطلع على سر الامر وعلم الغرض من قدوم حسن الى معسكره فتحققت وقوعها في خطر الموت ولم تر فرجاً الا بمخاطبة أمة الله فاستدعتها اليها وكانت هي التي أخبرتها بسجنه وكانت اشد قلقاً منها على حياة مولاتها ولكنها أظهرت التجلد وجاءتها وهي تتظاهر بعدم المبالاة فقالت لهاسمية « ما رأيك بهذا الجند المحدق بنا كأنا يحدقون بالقتلة واصحاب الجرائم الكبرى ؟ »

قالت « وما الذي يفعلونه ؟ . »

قالت « تسأليني عما يفعلونه . . . وقد سجنوني وسجنوه ولا شك ان ذلك العاتي قد اطلع على ما بيني وبين حسن فما الذي نرجوه منه غير الفتك بنا . . »

قالت « لا أظنه يفتك بك . . . »

فقطعت كلامها وقالت « تظنينه يستبقيني لمأربه الدنيء . ! وما أنا مبقية على نفسي . . اين السم الذي حفظته لى ؟ . . لقد آن وقته . . » وكانت أمة الله قد أخذته لتحفظه عندها لحين الحاجة

قالت « لا أظن وقته أزف يا مولاتي وحسن لايزال في قيد الحياة ومن يدري مايأتى به الغد »

قالت « تتوقعين لحسن بقاء وقد وقع في قبضةهذا الظالم وهو مناظره على عروسه ؟ . . اعوذ بالله من ظلمه ··· آه ياليتني ظللت على يأسى الماضي ولم اعلم ببقاء حسن حياً فقد كنت أحسبه مات ولا بد لهذا الظالم من قتله أما الآن فكيف ابغى الحياة في بيت رجل قتل حبيبي .. »

فقطعت امة الله كلامها وقالت « لاتقولى قتله لانه لم يقتله وعساه ان لايقتله فان الله قادر على انقاذه . . . »

قالت « نعم ان الله قادر على كل شيء وأما حسن فانه في حكم المقتول الآن » قالت ذلك وخنقتها العبرات فسكتت

فاحتارت امة الله فى ما تعزيها وهي واثقة من قرب مقتل حسن ولا تلوم سيدتها اذا انتحرت ولم ترض البقاء في بيت قاتله فظلت ساكتة فاستأنفت سمية الكلام فقالت « أين السم اعطيني اياه .. »

فتغير وجه أمة الله وتناثرت الدموع من عينيها وقالت دعي السم لم يأت وقته

قالت اعطيني اياه وأعاهدك انى لا اتناوله الا بعد ان اقطع الامل من بقاء حبيبي ومنتهى املى حسن . . وشرقت بدموعها واطلقت لنفسها عنان البكاء فبكت أمة الله معها ثم رأت هذه ان لاتبيح لها الاسترسال في الحزن على هذه الصورة فكظمت ما في نفسها وقالت اتعديننى انك لاتتناولين السم الا بعد وقوع الخطر حقيقة » فعاهدتها على ذلك فخرجت ثم عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام . فتناولته منهاوقبلته وهي تقول

« انت هو منقذي من احزاني واتعابي . . أنت وحدك معيني على قهر هذا العاتي وانت وحدك ستحول بيني وبينه »

وكان الحجاج قد امر باخراج سائر النساء من الخباء الا سمية وخادمتها وأمر الحرس ان يحدقوا به وهم في غفلة عن سبب ذلك فكانت سمية تصيخ بسمعها من جدران الخباء لما يتحدث به اولئك . وسمعتهم يتحدثون بما اظهره حسن من الشهامة وعزة النفس وما ظهر في كلام عرفجة من التلاعب والغدر . وكانت سمية اذا سمعت ذلك رقص قلبها فرحاً ولكنها لاتلبث ان تعود الى هواجسها

اما عبد الله فلما جاء المداولة مع سمية في الفرار رأى الحرس محدقاً بخبائها على هذه الصورة فعاد ولم يرها وأخبر حسناً بما كان فزاد الامر عرقلة عنده ولم ير خيراً من الصبر لما يأتي به القضاء وعبد الله يعزيه ويسليه ويتجسس احوال سمية ويتنسم اخبارها . فيعلم انها باقية في الخباء

الفصل السادس والسبعون

دعوة مستعجلة

قضى حسن اياماً في ذلك وأصبح ذات يوم وقد رأى في منامه بلالا خادمه وكان قد تركه في مكة وقد قال له « اذا استبطأتني فاطلبني في معسكر الحجاج » فلاح لحسن أن يكون قد جاء المعسكر ولم يعلم بمكانه . فلما دخل عبد الله عليه في الليل ذكر له هذا الامر ووصف له بلالا وقيافته فقال عبد الله « رأيت في هذا المعسكر عبداً أظنه هو الذي تعنيه ويظهر انه يفتش عن ضائع ولم ينتبه له احد لان الحجاج وحاشيته وسائر الامراء يتأهبون للهجوم على ابن الزبير دفعة واحدة ولولا ذلك لكشف عرفجة أمره واتهمه بالجاسوسية . . »

فقال حسن « يهمني امر هذا العبد استقدمه الى على عجل » فخرج عبد الله فرأى بلالا فاغتنم اشتغال الناس بالتأهب وجاء به الى السجن

بحجة انه يحمل له طعاما وادعى انه لايأمن دخوله عليه وحده فدخل هو معه فقال بلال « اني ابحث عنك منذ بضعة ايام حتي يئست من لقائك وكدت ارجع خائباً فالحمد لله اني رأيتك ولو في السجن . . . »

فقال حسن « وما خبرك »

قال « جئت اليك في مهمة مستعجلة وأخشى أن يكون قد فات اوانها »

قال « وما هي »

قال « استدعاني ابن صفوان الى منزل عبد الله بن الزبير في مكة وسألني عنك فاخبرته انك لم تعد بعد . فقال ان امير المؤمنين (ابن الزبير) يحب ان يراك لامر ذى بال خاطبته انت بشأنه منذ بضعة وعشرين يوما ويبث اليك شيئاً لايقدر ان يعهده الى سواك . فجئت على عجل وقد قضيت ثلاثة ايام في البحث عنك حتى جاءني عبد الله كما رأيت . . »

فقال حسن « ابن الزبير يطلب أن يرانى في مكة ؟ »

فقال « نعم يامولاي وقد الح على كثيراً وقال انه يريد أن يسر اليك أمراً يهمك كما يهمه وان الوقت ضيق »

فاطرق حسن واعمل فكرته فتبين له ان ابن الزبير يريده لكلام يتعلق باخته رملة وخالد بن يزيد وتذكر انه انما جاء الحجاز من أجل هذا الامر وقد عهد خالد ذلك اليه وانفذه بشأنه فرأى من الواجب عليه ان يجيب الدعوة حالا . فالتفت الى عبد الله وقال « عرضت على منذ ايام الخروج من هذا المعسكر فهل في امكانك اليوم ان تطلقني »

قال ذلك « هين على فى اي وقت شئت وانى افديك بروحى »

قال « لا أبغى الفرار وانما ابغى الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ثم اعود في الصباح الى محبسي »

فاعجب عبد الله بعزة نفسه وقال له « افعل ما بدا لك فاني فاعل ما تريد »

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فقال عبد الله « تمهل قليلا

فاعطيك ثوبي فتلبسه وتتزيا بزيي وانا البس ثوبك وامكث في هذا السجن مكانك ريثما تعود وتخرج أنت كانك من حرس الحجاج واظهر بانك ذاهب بمهمة الى ابن الزبير فلا يعترضك أحد واذا رأيت ان تبقى هنا وانا احتال في اللحاق بك فعلت »

فادرك حسن ماينوي عبد الله تضحيته في سبيل نجاته فقال له « بورك فيك من صديق صادق ولكنني اخاف ان اصاب بسوء فلا اعود فتقع انت تحت طائلة العقاب »

قال « اذا اصابك سوء فلا ابغى انا البقاء وفضلا عن ذلك فان الناس سيصبحون مهاجين ولا اظنهم ينتبهون لما حل بسجينهم ولا يطالبنى أحد بك وربما اطلقت نفسى من السجن ولا بأس علي . . »

فقطع حسن كلامه وقال « أما الرجوع فلا بد لى منه . . لا بد لى من الاستهلاك في سبيل سمية . . » قال ذلك وصمت بغتة كأن فكراً جديداً طرق ذهنه ولبث برهة لا يتكلم ثم قال « لا بد لى من السعي في الانتقام من ابيها الخائن . . » ثم التفت الى بلال وقال له « أتذكر ما رأيناه خلسة من خيمة صاحبك سعيد في فسطاط محمد بن الحنفية »

قال « اظنك تريد حكاية عرفجة والكرسي »

قال « اياها اعني هل تستطيع الحصول على كتاب من خط محمد المذكور الى الحجاج يشهد له فيه ان عرفجة جاء ومعه الكرسي وعرض نفسه ليطلب له البيعة من اهل العراق ليخلعوا بيعة عبد الملك بن مروان . . ؟ »

قال بلال « ذلك على هين بالنظر لما لى من الدالة على سعيد ولما اعلمه من دالة سعيد على محمد »

قال « اذهب اذا الى الشعب تواً وأتنى بذلك الكتاب عاجلا . سر من أقرب الطرق واجعل رجوعك الى هذا المعسكر لأني ذاهب الى مكة لمقابلة ابن الزبير ثم أعود الى أغلالى وأرى ما يأتي به القدر »

فخرج بلال وسار في مهمته . وأما عبد الله فانه خرج الى المعسكر وقد

اشتغل الناس بالاستعداد وزميله واقف بباب الخيمة ويود لو أنه يلحق بالمحاربين ليصيب بعض الغنيمة . فلما رأى عبدالله خارجاً سأله اذا كان ينوي البقاء في خفره او الذهاب للقتال فقال «اذا شئت انت اللحاق بالجند فاذهب وأنا أبقى هنا حارساً لهذا السجين » فسر الرجل وتحول . ولما غربت الشمس دخل عبدالله على حسن فألبسه ثيابه وسلمه الحربة وصرفه وجلس هو مكانه . فخرج حسن والتمس طريق مكة لا يلتفت اليه أحد لاشتغال الجند في التأهب للهجوم على مكة فسارع خطواته ليدرك مكة باكراً فينبيء عبد الله بعزم الحجاج لعله يجد سبيلا للدفاع

الفصل السابع والسبعون

مفاوضة

دخل مكة ولم يعترضه أحد ولا رأى في أسواقها أحداً حتى اشرف على المسجد فوجد الناس قد تزاحموا فيه وفي ما جاوره من المنازل فعلم انهم يتوقعون شراً ولم يفتهم ما نواه الحجاج . فسار تواً الى منزل عبد الله بن الزبير فرأى الناس يتزاحمون عند بابه فسأل عن ابن صفوان فقيل له انه في خلوة مع اميرالمؤمنين فوقف مع الواقفين حتى مضى معظم الليل فشق الناس ودخل يلتمس الحجرة التي فيها عبد الله فلقيه الخدم فسألوه عن شأنه فقال انه يريد أمير المؤمنين لامر ذي بال فخرج اليه ابن صفوان وحالما عرفه رحب به وقرأ حسن الانقباض على وجهه فقال له « اين اميرالمؤمنين ؟ »

قال « تركته يصلي الفجر »

قال « جئت اليه عملا باشارته »

قال « طلب ان يراك لامر يريد ان يسره اليك . . . وسوف ادخلك عليه » قال ذلك وعاد الى الحجرة ومكث حسن في انتظار عودته في فناء البيت وهو يتوقع ان يكون غيابه طويلا لعلمه بطول صلاة ابن الزبير مذ رآه يصلي في المسجد من عهد قريب

وبعد هنيهة عاد ابن صفوان وأشار الى حسن فتبعه ودخل فرأى عبدالله واقفاً في الغرفة وقد تقلد الحسام ولبس الدرع تحت جبة خز وتحتها سراويل ومنطقة وقد فاحت منه رائحة المسك وآنس في وجهه امتقاعاً لم يتبينه لضعف نور المصباح فاسرع حسن الى تقبيل يده فامسكه عبد الله عن ذلك ورحب به وأشار الى ابن صفوان فخرج فاقفل عبد الله الباب ولم يبق في الحجرة غيره وحسن . فاستغرب حسن اهتمامه وتكتمه ولبث واقفاً ينتظر ما يبدو منه وقد تأدب في موقفه . فلما أقفل عبد الله الباب تنحى الى وسادة على طنفسة بجانب الحجرة وأشار الى حسن فتبعه فاجلسه الى جانبه ووضع عبد الله السيف مستعرضاً على ركبتيه وأسند ذراعيه عليهما فوقه وحسن جالس شبه القرفصاء وهو صامت يراعي ما يبدو من حركات جليسه . ظل عبد الله برهة مطرقاً وهو يلاعب لحيته بين أنامله ولا يتكلم ثم التفت الى حسن وقال له « لا اظنك حصلت على كتاب من خالد »

قال « كلا يا مولاي ان الرسول لم يعد بعد »

قال « ولا أظنني اراه ولو عاد من الغد »

قال وهو لم يدرك قصده « كيف لا وهو طوع امير المؤمنين حالما يجيء »

قال « لا بأس اذالم أره فاني على يقين من رغبة خالد في اختي وقد استخرت الله بشأنه فاذا هو خير أولئك الاقوام . فاتقدم اليك اذا لقيته ان توصيه باختي خيراً وتقول له : ان مصاهرته لآل الزبير جاءت متأخرة ولو عجل بها بضعة اعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بهذا الامر عما لا ينطبق على كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ولما بلغ الى هنا ظهر الهياج في عينيه وخشن صوته فاتم كلامه قائلا « كيف يسود العتاة الظلمة وكيف يتغلب قوادهم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة . فيغلبون رجالا يعبدون الله ويعملون بكتابه »

فادرك حسن من خلال كلامه انه يئس من الفوز فاراد ان يستطلع عزمه في الصبر او التسليم او الحرب فقال له « لايخفى على مولاي ان النصر

من عند الله يؤتيه من يشاء ولا غرابة في غلب أهل الدنيا على اهل التقى ــ فقد غلب معاوية على الامام علي صهر الرسول وابن عمه وقد فتك ابن زياد بالحسين وغيره . ذلك لان الدنيا شيء والآخرة شيء آخر وقدا نقضى العصر الذي ساد فيه الحق ــ عصر الخلفاء الراشدين عصر الدين . ذلك هو عصر التقوى واهله من الصحابة يعرفون الحق ويرضخون له . وما الحكم الآن إلا حكم دنيا فلا يتولاه غير أهل الدهاء والسياسة و . . » ولما بلغ الى هنا بلع ريقه وبدا في وجهه انه اراد التصريح بشيء ثم توقف خوفاً أو حياء . فنظر عبد الله اليه نظرة من يتوقع اتمام الكلام فاتم حسن كلامه قائلا « ولا اخفى على مولاى ان آل مروان وآل ابى سفيان قبلهم لم يخلص لهم الملك دون بني هاشم وغيرهم إلا بما توخوه من الدهاء والسياسة وما بذلوه من المال لدعاتهم وانصارهم » فلما ذكر المال بدا في وجه عبد الله الانقباض وظهر فيه النفور رغم ارادته فسكت حسن . فقال عبد الله « لا تذكرنى بالمال وامره فقد كنت شحيحاً به لانه مال بيت الله ولعلي لو بذلته للاحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالامر دونى . ولكني لا التمس الدنيا بالباطل ولا ابتياع الانصار بالمال » فاغتنم حسن الفرصة وذكر له ما ارتكبه من الخطأ حتى خرجت الخلافة من يده فقال « ومع ذلك لو اصغيت للحصين بن نمير يوم وفاة يزيد لما صار الامر الى بني مروان بل كان انتقل من آل ابي سفيان الى آل العوام . . . »

فقطع عبد الله كلامه وقال « سمعتك تذكر هذا الامر غير مرة وسمعته من سواك والكل يحسبون ابن الزبير لو اطاع الحصين ورافقه الى دمشق لبايعه بنو امية . وانا احسب ذلك بعيداً ولا آمن ان اسلم نفسي لاناس يشق علينا غلبهم في عقر دارنا فكيف في بيتهم وبين احزابهم . ومع ذلك فقد قضي الامر — بعثت اليك لاوصيك باختي خيراً فاوص بها خالداً عني وقل له يقول لك عبد الله دع امر الخلافة من ذهنك فانها شاقة على أهل الدين في هذا الزمان واشتغل بما انت مشتغل به من العلم والكيمياء فان النظر فيها لذيذ . ولا اخفي عنك انى عولت على الاستسلام الى القضاء بعد ان نبذني

الاهل والاصدقاء خوفاً من الموت ولو طلبت الدنيا لما امتنع على الحصول عليها ولكنني اطلب الآخرة واعتقد اني دعوت الناس الى الحق فلم يصغوا فتركتهم وشأنهم . وقد انبأني الجواسيس ان الحجاج وقومه عزموا على مهاجمتنا في الغد فسألقاهم في هذا المسجد فاذا تجاسروا عليه فبالكعبة والله يفعل ما يشاء » قال ذلك وغص بريقه ووقف وهو يتشاغل باصلاح بند حسامه فوقف حسن معه وقال عبد الله « تعال معي الى أمي لاخبرها بما تم عليه الامر بشأن رملة »

الفصل الثامن والسبعون

قدوة الامهات

فمشى حسن في اثره وقد لاح الفجر فدخلا حجرة رأى حسن في صدرها امرأة عجوزاً عرف انها اسماء ذات النطاقين والدة عبدالله وهي بنت ابي بكر الصديق واخت عائشة زوج النبي وقد كف بصرها وبدا الهرم في وجهها فاقبل عبد الله اليها وحياها وهم بيدها فقبلها فقبلته وتنشقت ريحه وتنهدت ثم قالت « ماوراءك يابني . ? اني اشم منك رائحة الحنوط »

قال « اني اتحنط كل يوم استعداداً للموت واما الآن فقد جئتك بحسن وكنت ذكرت لك قدومه من عند خالد بن يزيد لطلب اختي رملة فاستقدمته واخبرته بما رضيت به من هذا الامر وانا اعلم أن خالداً يستحقها فاذا جاءك ولم أكن فهو ينوب عني في ذلك »

فرفعت رأسها وهي تجيل عينيها المظلمتين كأنها تحاول ان تنظر الى ابنها او تبحث عن موقفه بين يديها ولكنها لم تكن ترى غير الظلام . ونظر حسن الى وجهها وقد تغطى جانباه بالنقاب فرأى دمعتين تقطرتا من جانبي انفها بغير ان يبدو للبكاء اثر في وجهها . فلم يستغرب صبرها وتجلدها لما سمعه من ثبات جأشها وقوة قلبها . ثم سمعها تقول « سأفعل كما تقول وسكتت وكأن في نفسها شيئاً تكتمه ثم قالت « في اي ساعة من الليل نحن ? »

قال عبد الله « نحن في الصباح » وما اتم كلامه حتى سمعوا وقع حجارة المنجنيق على الكعبة اكثر مما يعهدونه من قبل. فتحقق حسن هجوم اهل الشام وايقن بوقوع الخطر العظيم فنظر الى عبد الله فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان القنوط في وجهه وقد التفت الى امه وقال « والآن يا اماه ؟ فقد ألح اعداؤنا بالمجانيق وقد علمت انهم سيهجمون علينا هجوماً نهائياً ليس بعده هجوم اما ان نظفر او يظفروا وقد آليت ان افعل أمراً أستشيرك به فبماذا تشيرين ؟ »

فنظر حسن الى اسماء وتفرس في وجهها فاذا هي لاتزال تجيل بعينيها وقد اسرعت حركتهما كأنها تتلهف لرؤية ابنها وليس في عينيها اثر للدمع وقد امسكت النقاب وازاحته عن فمها فبان تجعد شفتيها تجعداً طولياً على موازاة مواقف الاسنان وقالت وشفتاها ترتجفان من الشيخوخة لا من الخوف « انت اعلم بنفسك يابني — فان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه اصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بني امية. وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت اهلكت نفسك ومن قتل معك. وان قلت — كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت — فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين. لم خلودك في الدنيا ؟ . القتل احسن ؟ »

فقال « يا اماه اخاف ان قتلني اهل الشام ان يمثلوا بي ويصلبوني »

قالت « يابني ان الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله »

فقبل رأسها وقال «هذا رأيي والذي خرجت به دائباً الى يومي هذا. ما ركنت الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها . وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله وان تستحل حرماته . ولكني أحببت ان اعلم رأيك فقد زدتني بصيرة . فانظري يا اماه فاني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الامر الى الله . فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر ولا عمل بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في امان ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل انكرته ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي : اللهم

لا اقول هذا تزكية لنفسى ولكنني أقوله تعزية لامي حتى تسلو عني »

فقالت وقد بان الجد في جبينها « ارجو ان يكون عزائي فيك جميلا ـ ان تقدمتني احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك . اخرج حتى انظر الى ما يصير اليك امرك »

فقال « جزاك الله خيراً أفلا تدعى الدعاء لى »

قالت « لا ادعه لك ابداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق »

ثم تحول عبد الله ليودع اخته رملة في الحجرة الثانية وظل حسن واقفاً في انتظار عودته فسمع اسماء تتأوه وقد رفعت بصرها نحو السماء وقالت « اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة وبره بابيه وبي . اللهم قد سلمته لامرك فيه ورضيت بما قضيت فاثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين » فاستغرب حسن صبرها ومتانة اعتقادها . ثم عاد عبد الله اليها وهم بتقبيل يدها وهو بعيد عنها فقالت له « هذا وداع فلا تبعد »

فقال « جئت مودعاً لاني ارى هذا آخر أيامى من الدنيا »

فلما سمع حسن قوله اقشعر بدنه ونظر الى وجه اسماء فاذا هو لم يتغير . فرأى من ثباتها فوق ماكان يسمعه عنها وعكس ماكان يتوقعه من والدة في مثل هذه الحال ثم مالبث ان سمعها تقول له « امض على بصيرتك وادن مني حتى اودعك » فدنا منها وعانقها فعانقته واحاطت يديها بخصره وقبلته فوقعت يدها على الدرع فنفرت وصاحت فيه « ماهذا صنيع من يريد ما تريد » فقال عبد الله وقد بدا الخجل في وجهه « ما لبسته الا لاشد به متنك » فقالت « انه لا يشد متني . البس ثيابك مشمرة » فمد يده الى الدرع ونزعها ودرج كميه وشد أسفل قميصه وجبته تحت اثناء السراويل وادخل أسفلها تحت المنطقة وخرج[1] فخرج حسن وقد ادرك ان عبد الله انما خرج مستقتلا

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل التاسع والسبعون

مقتل ابن الزبير

خرج حسن فى أثره وقد ثارت الحمية في رأسه وعزم على الحرب معه فشعر عبد الله بذلك فالتفت اليه وقال « استحلفك الله وبالرسول ان لا تعرض نفسك للقتال من أجلنا إذ ليس لك شيء في هذا الامر »

فشق ذلك الاستحلاف على حسن لانه لم يكن يصبر على رؤية القتال ولا يقاتل وهو مع ذلك على يقين من فوز جند بني امية لكثرتهم واتحادهم ولكنه ظل سائراً فى أثر عبد الله حتى خرج من المنزل فرأى الناس ينتظرونه وفيهم بقية أهله وقد تدرعوا وتسلحوا وتهيأوا للقتال وقد تغطت أبدانهم بالدروع فقال لهم « اكشفوا وجوهكم حتى انظراليكم » فكشفوها فقال « يا آل الزبير لو طبتم بى نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا في الله . فلا يفزعكم وقع السيوف فان ألم الدواء للجراح أشدمن ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم غضوا أبصاركم من البارقة ويشغل كل امريء قرنه ولا تسألوا عني فمن كان سائلا عني فاني في الرعيل الاول ــ احملوا على بركة الله »

وأما حسن فاحتار في امره بعد ان استحلفه عبد الله ان لا يقاتل وخاف من الجهة الاخرى ان يراه الحجاج او بعض رجاله يقاتل فيثبت عندهم انه عدو فلا تفلح معهم حيلة بعد ذلك فى الحصول على سمية وخصوصاً اذا عادوا بعد تلك المعركة ظافرين . فاختار الدخول الى المسجد والوقوف في بعض الاطراف ريثما تنقضي الواقعة. فصبر حتى مر رجال عبد الله نحو الحجون ثم التفت فرأى أعلام بني امية قد ملأت مكة وهم كثيرون فاسرع الى المسجد الحرام فلم يستطع الدخول لان الحجاج كان قد وضع أناساً في بابه يمنعون الناس من دخوله فاسرع الى المنزل بجوار المسجد ودخله وأطل من كوة فيه فرأى ابن الزبير يناضل مناضلة الاسود مرة فى

هذه الناحية ومرة في تلك كأنه أسد في اجمة وابن صفوان بجانبه يدافع عنه ثم سمع عبد الله يقول « ويلمه فتحاً لو كان له رجال » فقال له ابن صفوان « أي والله والف » فتحمس حسن حتى كاد يقذف بنفسه الى المعركة . ثم لاحت منه التفاتة فرأى الحجاج ترجل وأقبل يسوق الناس لمقاتلة ابن الزبير لانه رآهم لا يقوون على الوقوف بين يديه وأسرع بجماعة من رجاله الى حامل علم الزبير وكان واقفاً بباب شيبة من أبواب المسجد فجاء ابن الزبير لحماية العلم فانكشفوا عنه وقد دخلوا المسجد وصار القتال فيه . فمضى ابن الزبير ليصلي بجانب المقام فاغتنم الحجاج ورجاله فرصة صلاته وهاجموا صاحب العلم فقتلوه وأخذوا العلم فتفرق الرجال وعاد ابن الزبير للقتال بلا فائدة وقاتل حتى قتل هو وابن صفوان وغيرهما ثم رأى حسن رجلا أسرع الى جثة عبد الله وحز رأسه وحمله الى الحجاج فلما رأى الحجاج الرأس سجد واكرم صاحب البشارة . ثم امر ان يحمل رأسا ابن الزبير وابن صفوان الى المدينة وان تصلب جثة الاول في الحجون فصلبوها اياماً(١)

أما حسن فلما رأى ماحل بقوم ابن الزبير وتحقق انتصار بني أمية وسمية عندهم رأى ان يعود الى معسكر الحجاج لعله يغتنم غياب الجند فينجو بها والا فيعود الى محبسه فاختلس الطرق حتى خرج من مكان لا يراه فيه احد ولم يلتفت يمنة ويسرة . وكان وهو سائر يفكر في ما حل بابن الزبير فقال في نفسه « لقد خلا الجو لعبد الملك بن مروان واصبحت الخلافة لا ينازعه فيها منازع » وكان حسن كلما دنا من معسكر الحجاج تمثلت له النجاة بسمية هينة فمشي وهو لا يزال بلباس الحرس والحربة بيمينه فلا يشك الذي يراه عن بعد انه من حرس الحجاج فلما دخل المعسكر لم ير فيه الا نفراً قليلا من الحامية . فالتمس خباء النساء وقلبه يخفق لما يتنازعه من عوامل الرجاء والخوف والحياء والشوق . فبين هو يرجو السعادة بفرار سمية فانه يعد الفرار عاراً ولكنه هونه على نفسه لانه لا يرى غير الفرار سبيلا الى نجاته وإلا فانه سيكون سبباً لتعاسة سمية أو قتلها فمشى بين الخيام وكل من

(١) ابن الاثير وغيره

يراه يحسبه قادما بمهمة مستعجلة . ثم رأى الافضل أن يذهب الى السجن ليرى ماتم لعبد الله هناك فاذا وجده حل وثاقه واستعان به على الفرار . فلما دنا من الخيمة رآها خالية فوقف برهة يفكر في امره ثم استعجل الى الخباء لئلا تفوت الفرصة وهو بين العجلة والتردد . وبينما هو يمشي سمع صوت الابواق فالتفت فرأى جماعة من الفرسان عائدين من مكة فاسرع في مشيته ليبتعد عنهم وهم وراءه والخباء أمامه . وكانت الشمس قد مالت نحو الغروب فلما أطل على الخباء لم ير حوله أحداً فهرول وهو يخاف أن تحول بغتة سمية دون ما يبغيه من سرعة الخروج بها لانها لم تره منذ خروجه من المدينة ولا هو رآها ولكنه تجلد ومشى وهو يود ان يعدو عدواً لولا مايخاف أن يجر العدو اليه من الشبهات

الفصل الثمانون

مقابلة مهولة

ولما وصل الخباء قصر خطاه ريثما يتنسم الاخبار ويستطلع الاحوال وهو لا يعرف مدخل الخباء ولا مخرجه ولا يدري اذاكان عند سمية أحد من النساء أو الخدم أو الغرباء . وفيما هو يدور حول الخباء سمع خفق نعال فيه فاصاخ بسمعه فرأى شبحاً خارجا فتفرس فيه فاذا هو أمة الله ولم يكن يعرفها ولكنه كان يعرف انها عندها فاشتبه بها . أما هي فكانت قد رأته في دار عرفجة بالمدينة والنساء المحتجبات يرين الرجال ولا يرونهن فلما رأته والحربة في يمينه استعاذت بالله لئلا يكون قادما من عند الحجاج ثم ما لبثت ان تفرست به حتى عرفته فدنت منه وقالت « حسن . . ؟ »

قال « نعم حسن . اين مولاتك ؟ »

قالت « هي في هذا الخباء في حالة يرثى لها . . »

قال « لماذا ؟ . . »

قالت « حزناً عليك وخوفاً من ذلك الظالم لانه فرغ من الحرب

وانحل من عهوده ان لايقرب النساء »

فلما سمع قولها وفهم فحواه اقشعر بدنه وهم بالدخول الى الخباء ولكنه خاف ان تضر البغتة بسمية فقال « ادخلي وانبئيها بقدومي للفرار معاً فلتتشدد ولنخرج في ظلام هذا الليل حالا .. »

فهرعت امة الله ولم يصبر حسن إلا قليلا حتى دخل في اثرها فوجد سمية جالسة وهي تفرك عينيها باناملها وتنظر الى امة الله وتقول « اصحيح ماتقولين ؟ حسن هنا ! . . حسن جاء . . . أم انت تمزحين أم انا في حلم . . . »

فلما وقع بصره عليها رآها قد تغيرت من الضعف وقد امتقع لونها . ولما سمعها تسأل امة الله أجابها هو « لا بل انت في يقظة ياحبيبتي انت فى يقظة . . انا حسن جئت لانقاذك هلم بنا واتركى العواطف وادفعى الخفقان واحفظى لواعج الاشواق حتى نبعد عن هذا المعسكر . . هلم بنا حالا .. ان الوقت قصير والخطر قريب . . . »

فوقفت وركبتاها تصطكان وهي لاتزال تحسب نفسها في حلم ولكنها عملت باشارته وتركت كل شيء في الخيمة الا عباءة التفت بها ولبست نعالها وقالت وهي لاتدرى أتضحك أم تبكى . اتفرح ام تحزن « ما احسن هذا اللقاء .. هلم بنا »

وكانت امة الله تشتغل بحمل بعض الطعام وهي أكثر انتباها وصحواً منهما لخلو قلبها مما يتوقد فى قلبيهما . فسمعت وقع حوافر الخيل عن بعد فاسرعت اليهما وهي تقول « لقد جاء الفرسان . . . واظنهم الحرس الذين كانوا حول الخباء بالامس »

فلما سمعت سمية ذلك التفتت الى حسن وقالت وصوتها يرتجف «حسن . حسن . . لاتخرج فانهم اذا رأوك خارجاً اشتدت شبهتهم فيك .. لا تخرج . واذا كانوا انما جاءوا لاذيتك فلنمت معاً ونعم الموتة هي . . »

فثارت الحمية في حسن وهان عليه لقاء الالوف والاستهلاك في الدفاع عنها فقال لها « لاعاش من يمسك بسوء وأنا حي . . »

ثم سمعوا وقع الحوافر يتقارب والليل قد سدل نقابه وبدأ الظلام يتكاثف وسمية ممسكة بيد حسن ولسان حالها يقول « امانعيش معاً أو نموت معاً » ولا تسل عن خفقان القلوب لما اصاب الحبيبين من فواعل الغرام على أثر ذلك اللقاء الفجائي وما مازج ذلك الانفعال من بواعث الخوف والاضطراب فاختلط خفقان الشوق بخفقان الخوف وخفقان البغتة وقد امتقع لونهما وتصبب العرق من وجهيهما وارتعدت فرائصهما وحسن يشعر مع ذلك الضعف انه اشد بطشاً من الاسد وانه لا يبالى بمن يلقاهم وهو بين يدي سمية ولو كانوا ألوفا . وسمية قد انساها ذلك اللقاء كل خوف على نفسها وانما كان همها ان لا يصاب حسن بسوء فامسكت به وهي لا تدري أتحرضه على الفرار بنفسه ولا صبر لها على فراقه بعد هذا اللقاء ام تفر هي معه وفي فرارها خطر عليه أم تستبقيه في الخباء معها وفى بقائه تهمة كبرى وودت لو انها تخبئه في قلبها او في عينيها لتحرسه من كيد الكائدين

مرت هذه الهواجس بهما في لحظة وغلب عليهما التربص ليريا ما يبدو من الفرسان فجلسا وقد اسكتهما الهوى والخوف حتى وصل الفرسان واحدقوا بالخباء ولم يتكلم احد منهم ولا تعرض احدهم بشيء فترجح عند حسن ان قدومهم لا لشبهة أو تهمة جديدة وانما عادوا لخفارة الخباء كما كانوا بالامس فسكن روعه وروع سمية واخذا بالكلام والاستفهام والتشاكي والترجى والتأمل . قضيا برهة تزيد قيمتها عندهما على قيمة الحياة كلها فلا غرو اذ نسيا الحجاج وفرسانه وحسبا انهما في مكان غير ذلك المكان او خيل لهما ان أولئك الفرسان ملائكة من السماء جاءوا لحراستهما

الفصل الحادى والثمانون

رسول في الهواء

ولكنهما ما عتما وهما في ذلك الهدو ان سمعا طنين سهم مرسل في الفضاء وكأنه أصاب عمود الخباء من الخارج . وكانت امة الله مشغولة ببعض

الشؤون في طرف الخباء بالقرب من موقع السهم فلما سمعت وقع السهم خرجت وأطلت رأسها من الخباء فلم تر غير الفرسان في مواقفهم كالعادة . فمدت يدها الى السهم واستخرجته من العمود ودخلت به الى حسن فتناوله فاذا في محل الريش رق ملفوف فدنا من المصباح وفتح الرق فاذافيه كتابة بخط عبد الله خادمه فقرأها ونصها « اطلع عرفجة على مقركما فوشى بكما وارسل الفرسان للقبض عليكما فتجلدا والله مع الصابرين »

فلما قرأ حسن البطاقة أيقن بوقوع الامر الخطير ولم ير بداً من تهيئة أسباب الاطمئنان لسمية وكانت هي قد قرأت البطاقة معه فخافت خوفاً شديداً ولبثت تتوقع مايبدو من حسن . أما هو فابتدرها قائلا « لا بد لى من الذهاب الى الحجاج بنفسي لانني لا اظنه ارسل الناس في اثري الا لزعمه انني فررت من محبسي بالامس وبالحقيقة انى لم افر ومهما يكن من الامر فلا بد من مواجهة الحجاج والاطلاع على ما يكون . . . »

فقطعت كلامه قائلة « أتذهب الى الحجاج ولا تدري ما يكون منه .؟» أعوذ بالله من شر هذا الرجل . . ماذا يكون منه غير القتل والعياذ بالله . . ! وخصوصاً انت وقد علم انك عندى . ويلاه كل ذلك بسببي . ياليتني مت منذ اعوام ولم أكن سبباً لهذا الاذى . . دعنى اذهب عوضا عنك وليقتلني فاذهب فداء عنك لاني مقتولة في أي حال . . »

فوضع يده على كتفها وكلاهما يرتجفان وقال «لاارى الامر يقتضي كل ذلك ولا انت كنت السبب في قتلي اذا قتلت . . . »

فقطعت كلامه وقالت « لاتقل قتلت »

قال « عسى ان لا اقتل بل ابقى في قيد الحياة ـ وقد كنت استطيع الفرار بنفسي من بين أيدى هؤلاء الفرسان ولكننى لاابغي الحياة من اجلى وأخاف اذا خرجت معي أن تقعى بين ايدى أحدهم فتهانين والاهانة شر من القتل . أما ذهابى الى الحجاج بنفسي فانه احفظ لشرفي وشرفك وما يأتي به القدر لا مناص منه . هذا ابن الزبير كان الى صباح هذا اليوم يسمونه امير المؤمنين فقتلوه وصلبوه وحملوا رأسه الى المدينة وقد استقبل

الموت باسماً وأمه تشجعه على استقباله فلا توهني عزائمي ولا تخوفيني بملاقاة الحجاج ولو كان شعلة من جهنم . ولكنني ابغي اذا قدر لي الموت ان تذكري حسنا وانه كان يحبك ويهواك وانه ذهب شهيداً في سبيل ذلك الهوى . . » قال ذلك واختنق صوته

فقطعت كلامه ودموعها تتساقط على خديها وكانت مطرقة فرفعت عينيها ومدت يدها الى جيبها واستخرجت لفافة السم وقالت « كن في راحة واعلم اني اعددت ما يلحقني بك اذا لاسمح الله اصبت بسوء هذا هو السم الشافي من العذاب . وهب انك لم تصب بشيء فان هذا السم قد اعددته للنجاة من هذا الرجل الظالم في أول يوم يريد أن يكون لي زوجا حقيقياً »

فاعجب حسن بشدة تعلقها به وقال « بالحقيقة ان مثل هذه الشهامة لا تكافأ بأقل من الروح ولكن عسى ان ينقلب الامر ويصفو لنا الزمان »

ثم رفع يده عن كتفها وقال « استودعك الله ياسمية وموعدنا الغد ان شاء الله » قال ذلك وخرج ولم ينتظر جوابها لئلا تحاول ان تثنيه عن عزمه بدموعها . فلما صار خارج الخباء صاح باعلى صوته « اين هو عريف هذه الكوكبة ؟ »

فتقدم اليه فارس منهم وقال « وماذا تريد منه ؟ »

قال « اريد ان يهديني الى فسطاط الامير لاني ذاهب اليه »

فقال « لم يأذن لنا الامير بالرجوع اليه وانما امرنا ان نخفر هذا الخباء بمن فيه حتى يأتي هو ولعله آت الساعة »

فادرك حسن ان ذلك تدبير عرفجة لانه يريد ان يرى الحجاج حسناً وسمية معاً ليثير غيرته ويسرع في قتله فعول حسن ان يضيع تلك العزيمة فقال « ولكنني في حاجة كبرى الى رؤية الامير الساعة »

قال الفارس « لا يمكنك الخروج من هذا المكان »

قال « لا بد من خروجي » قال ذلك وعزم على العدو فاذا تخلص بين الخيل يخفيه الظلام فيذهب تواً الى خيمة الحجاج ويحاول الطعن في أعمال عرفجة

فاجابه الفارس « الافضل لك ان تمكث هنا ..؟»

قال « واذا لم امكث . . »

قال « لا اقول لك اننا نقتلك لاننا مأمورون باستبقائك حياً ريثما يجيء »

فظن حسن ان الحجاج يريد استبقاءه ليبحث عن صحة التهمة التي وجهها الى عرفجة من قبل الكرسي فتشدد وقال « اقول لكم لا بد من ذهابي الساعة الى الامير والا خذوني الى السجن امكث فيه الى الصباح » قال ذلك ومشى فتجمهروا حوله ليمنعوه واذا بفارس مقبل من بعيد ووراءه بضعة فرسان فلما رآهم حراس الخباء تهامسوا فيما بينهم وترجلوا ففهم حسن من تهامسهم ان القادمين الحجاج وحاشيته فظل واقفاً ينتظر ما يكون ولكنه لم يتمالك عن التأثر عند رؤية ذلك الرجل العاتي

وكان الحجاج لايزال بلباسه الذي حارب به ابن الزبير وقد كسته الادراع هو وجواده وعليها بقع الدماء . فلما اقبل قال للفرسان « ماذا تفعلون هنا ؟ »

فتقدم عريفهم وقال « نخفر هذا الخباء لنمنع من فيه من الخروج »

قال « ومن امركم بذلك ؟ »

قال « امرنا به عرفجة عن أمر مولانا الامير »

فاطرق الحجاج وقد ادرك ان عرفجة لا يهتم إلا بحسن لما بينهما من المنافسة وكل يريد الايقاع بالآخر ولم يكن الحجاج يعلم بمجيء حسن الى خباء سمية ولا بما امر به عرفجة وانما جاء الى خباء نسائه تلك الليلة لانه حل من يمينه بمقتل ابن الزبير في ذلك النهار فرأى الفرسان هناك . فلما علم بما فعله عرفجة سأل العريف عما وجد فقال وهو يشير الى حسن

« وجدنا هذا الرجل خارجاً من الخباء يريد الذهاب الى مولانا »

فنظر الحجاج الى حسن فعرفه فتحققت عنده تهمة عرفجة له بمجيئه الى سمية وعظم عليه أن يراه خارجاً من خباء نسائه وهم ان يأمر بقتله حالا لكنه تذكر التهمة التي وجهها الى عرفجة فرأى أن يصبر عليه الى الغد وبعد ان يثبت التهمة على عرفجة يقتلهما جميعاً شر قتلة

وكان عرفجة قد أمر الجند بحراسة الخباء واستبقاء حسن فيه املمه ان الحجاج يأتي الاخبية تلك الليلة فيرى حسناً عند سمية فيتحقق قول عرفجة ويأمر بقتله حالا لشدة الغضب والغيرة فلا يبقى سبيل لاثبات التهمة عليه . ولكن الحجاج كان مع عتوه وظلمه ذا دهاء وحكمة فكظم غيظه ريثما يتحقق الامر فقال « خذوه الى السجن وموعدنا الغد . . »

فسر حسن لذلك التأجيل ولكنه مشى مع الخفر وهو يلتفت الى الوراء ليتحقق ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية فلما توارت الخيمة عن بصره تلفت قلبه الى من فيها

الفصل الثانى والثمانون

المحاكمة

قضى حسن تلك الليلة مخفوراً وفي الصباح ساقوه الى فسطاط الامير باكراً وقد أمر الحجاج ان لايحضر المجلس أحد غير عرفجة وحسن . فدخل حسن ووقف في وسط الفسطاط وظل عرفجة جالساً بجانب الحجاج كأنه من خاصته وحسن المجرم وكان الحجاج اذا نظر الى حسن كاد يتميز غيظاً ولكنه صبر نفسه حتى يثبت التهمة على عرفجة فقال له « عهدناك في الامس مسجوناً فما الذى اخرجك من السجن »

قال حسن « خرجت منه لامر ضروري ثم عدت ولو كان قصدى الفرار ما رجعت »

فقطع عرفجة كلامه وهو يضحك « ذهبت لامر ضرورى . . ؟ أما

ذهبت الى عدونا وكنت في منزله طول ليل أمس وتقول انك رجعت ولكن الى أين الى الحبس أم الى الخباء . . . »

فالتفت الحجاج الى عرفجة لفتة ظهر الغضب فيها وأدرك عرفجة منها تغير الحجاج عليه فاراد تخفيف غضبه فقال « لا اجهل اني تعديت الحد بتكلمي في حضرة الامير ولكنني لم أستطع الصبر على نفاق هذا الغلام وخداعه فهو يوهمنا انه ليس من الاعداء ولا من الجواسيس ثم يفر من السجن ليلا ويحمل اخبارنا الى عدونا ثم يقول انه رجع والامير ادرى بمكان رجوعه . . . »

ففهم الحجاج ان عرفجة يعرض بذلك المكان ليثير غضبه ولا يصبر على التحقيق فصبر نفسه والتفت الى حسن وقال « لا يهمنا السبب الذي خرجت من اجله الى ابن الزبير فانك متهم عندنا في أي حال . وأما سبب دخولك خباء نسائنا فسنبحث عنه ولكنك اتهمت صديقنا عرفجة بالامس فهل تستطيع اثبات تلك التهمة ؟ . . . »

فلما سمع عرفجة عود الحجاج الى تهمته خفق قلبه وخاف عاقبة تملق الحجاج له بذكر الصداقة ولكنه تظاهر بالاستخفاف وجلس كمن يصغى لما سيختلقه الخصم أما حسن فقال « أما كونه خائناً لدولة بني امية فامر لا شك فيه وقد رأيته بأم عيني واقفاً بين يدي محمد بن الحنفية في الشعب ومعه الكرسي الذى كان المختار بن أبى عبيد يسميه كرسي علي ويدعو الناس الى بيعة ابن الحنفية به وسمعته يحرض محمداً المذكور على امداده بالمال للخروج على بنى أمية في العراق ويدعو الناس الى بيعته لانه في زعمه اولى من بنى أمية بهذا الامر . . . ذلك كله رأيته بعيني وسمعته بأذني . . . »

وكان الحجاج مصغياً لما يسمعه وعيناه شاخصتان في حسن يتفرس في حركاته وسكناته ليستطلع مقدار ما في كلامه من الاخلاص فرأى الاخلاص ظاهراً في كل كلمة . فقال له « ثم ماذا ؟ »

قال « أما ابن الحنفية فانه استخف بطلبه وردعه عن القيام بهذا الامر

لان وقته فات وتأكداً لذلك أمر بالكرسي فاحرق بين يديه واخرج هذا الرجل من عنده مهاناً »

فلما رأى عرفجة صراحة كلام حسن حتى كاد الحجاج يصدقه لم ير سبيلا الى دفع تلك التهمة إلا بالخداع والمغالطة فوقف ووجه خطابه الى الحجاج وقال « اذا كان لكلام هذا الغلام أقل تأثير في اذن مولاي فليأمر بقتلي حالا لان ظل هذه الشبهة يستوجب القتل فكيف بما يقول هذا المنافق ؟ . . . انه امر مستحيل ولكنه كبر التهمة ليخفف بها ذنبه الذى لم يرتكبه أحد قبله . . »

فقال حسن « أما ذنبي فلا انكره وسأبسطه لمولاى وله بعد ذلك مايشاء وأما أنت . . . »

فاراد عرفجة أن يشغل الحجاج بذنب حسن عن ذنبه فقال « ان ذنبك لايحتمل الانكار لانه ظاهر للعيان . واما اتهامك اياي بالمروق من دعوة بني مروان فاختلاق غريب لم نسمع بمثله . واغرب ما فيه انك لم تستطع اقامة أي دليل عليه ويستحيل ذلك عليك لان دعواك محض اختلاق » . قال ذلك وجلس جلوس رجل فاز على خصمه بالحجة والبرهان

فلم يعبأ الحجاج بتلك الشقشقة فالتفت الى حسن وقال « لا تصح دعوى بلا بينة فما هي بينتك على ماتقول »

قال « وأى بينة ترجو أن تقوم على ذلك وقد كانت المخابرة بينه وبين ابن الحنفية سراً . . . ولم يكن معهما ثالث »

فصاح عرفجة « اسمع يا مولاي تقلب هذا المنافق وتناقض اقواله فاذا كان هذا الامر حصل سراً في خيمة مقفلة فما الذى اطلعه على ذلك السر ؟.. أرأيت مقدار تنطعه وجهله كيف انه لم يحسن سبك الاكذوبة » .

فدخل الحجاج شك في قول حسن فقال « صدق عرفجة . . زعمت انك عرفت مادار بينهما وسردته كانك سمعته من شفاههما وقلت انك رأيت وسمعت فكيف ذلك ؟ فاذا كنت انما تقول جزافاً فاقتصر ولا تطل أجلك ساعة اخرى »

فلما رأى حسن انخداع الحجاج بكلام عرفجة تجلد واظهر التعقل وقال « نعم كان الكلام في فسطاط مقفل . . ولكنني سمعت ورأيت خلسة . . . »

فقال عرفجة « انت تقول انك سمعت ورأيت وقد بدا من تلون أقوالك ونفاقك انك لم تسمع ولم تر ولعلنا اذا الححنا بطلب الشهود منك أتيتنا بخادمك واقمته شاهداً وانا لا اقبل غير شهادة محمد بن الحنفية نفسه لانك انت تقول أنه لم يكن معنا ثالث . . »

فقال الحجاج « انه طلب عادل لا مندوحة لك منه »

ثم تذكر حسن أنه ارسل بلالا في تلك المهمة ولايدرى اذا كان يتأتى له النجاح فيها فقال « ان الامير أدرى مني بما يحول دون الوصول الى مثل هذه الشهادة . فاما ان نستقدم ابن الحنفية الى هنا او نذهب اليه او نستكتبه وكل من هذه شاق »

فقطع عرفجة كلامه وقال « لا أقبل الا شهادة ابن الحنفية نفسه »

فقال الحجاج « ذلك هين فاننا نسأل ابن الحنفية ونعمل بشهادته وهو مصدق عندنا ولو لم يكن على دعوتنا »

قال ذلك وتحرك عن وسادته كانه يريد استئناف المهمة في البحث والتفت الى حسن وقال « بقى علينا النظر في تهمتك ولكنها ليست تهمة نطلب اثباتها وانما نحن نسألك عما دعاك الى هذه الوقاحة »

الفصل الثالث والثمانون

وقوع ونجاة

وكان حسن قد هم باخبار الحجاج انه أرسل من يأتي بشهادة ابن الحنفية فلما سمع مباغتته بهذه العبارة وجه قواه الى البحث في الموضوع واراد أن يجيب فاعترضه عرفجة قائلا « انا اقص عليك الخبر من اوله الى آخره لانه يخجل أن يقصه هو . . . »

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة فقال ورفع صوته «بماذا اخجل من قصتي . أأخجل لأني انقذتك من الموت أنت وأهل بيتك أم اخجل لانك خدعتني بوعدك ثم نكثت غير مرة ؟ . . انى لم اعمل عملا اخجل من ذكره » ثم وجه كلامه الى الحجاج وقص عليه اصل الحكاية باختصار منذ انقذه في العراق ووعده بابنته ثم لما جاء الى المدينة فوعده ثانية ثم اخلف وبعث من يقتله . فلما وصل الى هنا كان الحجاج مصغياً الى الحديث بفارغ الصبر . فقطع عرفجة كلام حسن قائلا « قال اني سعيت في قتله ولم يقل لماذا ـ سعيت في قتله لاني رأيت معه كتاباً الى عبد الله بن الزبير الذى فر اليه بالامس كما رأيت فخابرت طارق بن عمرو عامل المدينة بشأنه فاعتبره جاسوساً فبعث من يقتله . . وهب انى كنت اوعدته بابنتي ثم خطبها مولانا الامير فكيف استطيع غير الطاعة . هل يتوقع ان ارفض طلب المولى واصغى الى قوله ؟ والعجب كل العجب انه بعد ما علم انها زفت الى الامير لايزال يرجو الحصول عليها واغرب من ذلك انه طرق هذا المعسكر متنكراً وهم باغرائها للذهاب معه . فاوقعه الله بين ايدينا وسجناه ففر الى عدونا ثم اغتنم اشتغال الامير وجنده في الحرب وعادلي اغراء تلك الفتاة وقد شاهده الامير بنفسه خارجاً من خباء سمية فاذا كان الامير يرى الصبر عليه حلماً فاني لا اصبر على هذه الخيانة . خيانة العرض — وما جزاء من أراد باهلك سوءا ؟ »

فوقع كلام عرفجة على قلب الحجاج وقوع النار على يابس العشب وقد كان الى تلك الساعة يصبر نفسه ويتجلد فهبت فيه الغيرة أى هبوب على انه التفت الى حسن وقال « هل تنكر انك تحب سمية »

قال « كلا »

قال « وتقول ذلك بين يدى وانت تعلم انها من نسائى ؟ . . »

فظل حسن ساكتاً فقال له الحجاج « وهل هي تحبك ؟ . . »

فادرك حسن انه اذا صرح بحبها له جر عليها الموت كما جره على نفسه فاراد الرفق بها فقال « لا ادرى . . »

فصاح عرفجة « انها لاتحبه ولكنها بسيطة القلب فربما استطاع ان يخدعها بكلام الجهال . كيف لا وهي تفاخر كل نساء المدينة بما نالته من الحظوة لدى أمير جند عبد الملك وفاتح الحجاز وحامى ذمار بني أمية . . »

فاستاء حسن من ذلك التدليس القبيح ولم يسعه الا توبيخ عرفجة فقال له بصوت ملؤه الرزانة والتعقل « لا انكر ان سمية نالت احسن نصيب تترجاه نساء المسلمين اليوم بعد امير المؤمنين ولكنك يا عرفجة لم تزف ابنتك الى الامير الارغبة في المال ولو مهرك هذا المال زنجي لزففتها اليه »

فصاح عرفجة « ياللوقاحة أتقول ذلك في حضرة الامير وتذكر عروسه بين يديه على هذه الصورة ؟ . . . » ثم التفت الى الحجاج وقال « لقد كفاك يامولاى صبراً على رجل لم يحترم عرضاً ولا نسباً »

فالتفت حسن اليه وقال « ايجوز لمثلك ان يحرض الامير على القتل وأنت أشد تعرضاً للقصاص مني . . . انك ملاق حتفك عاجلا جزاء خيانتك للدولة التي تدعي انك تدافع عنها . وأما أنا فاذا قتلت فاني أذهب شهيد الامانة والحب الصحيح . . »

فالتفت عرفجة الى الحجاج وقال « اسمع يامولاي انه لا يزال يذكر الحب »

فقال حسن « وهل الحب عار ؟ . . نعم اني أحب سمية حباً شديداً واكره أباها كرها شديداً ولا ابالى ان اصرح بذلك وقد ابيح دمى فاقتلونى . . ولكن اعلم يا عرفجة انك مقتول عما قليل لان شهادة ابن الحنفية آتية فى الطريق ان لم تكن قد وصلت الآن » قال ذلك وتحول نحو باب الفسطاط ونظر من شق فيه لعله يرى بلالا في جملة الواقفين فرآه لا يزال قادماً وقد علاه الغبار . فخفق قلبه وعاد الى الحجاج وقال « اذا أذن مولاى لرسولى ان يدخل ويسلم اليه ما جاء به من ابن الحنفية تبين له الصدق »

فقال « واي رسول . . ؟ »

قال « رسول كنت انفذته قبل الامس الى الشعب ليسعى في هذه

الشهادة لانه كان معي يوم حريق الكرسي وأراه الآن عائداً فامر بادخاله لنرى ما الذي جاء به . . »

فنادى الحجاج « يا غلام » فدخل احد غلمانه من الحرس فقال له « ترى رجلا قادماً برسالة ادخله علينا »

فعاد الغلام وادخل بلالا . فاقبل بلال وبيده عقدة من القصب الغليظ سلمها الى الحجاج مختومة فقرأ الختم من الخارج فاذا هو ختم ابن الحنفية ففضه واستخرج من العقدة لفافة من الرق فتحها وقرأها وعرفجة جالس وقد بانت البغتة على سحنته ورقصت لحيته في صدره ولكنه عمد الى الاستخفاف والمغالطة فصار ينظر الى الحجاج ويبتسم كأنه واثق ان الكتاب انما يتضمن براءته . أما الحجاج فلما فرغ من قراءة الكتاب التفت الى عرفجة وقال له « لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والخديعة صدق هذا الشاب بما قاله عنك وهذا خط محمد بن الحنفية وختمه يثبتان ذلك حرفياً ... »(١)

فهم عرفجة ان يتكلم فانتهره الحجاج ونظر اليه نظرة الحنق والغضب وقال « لا تتكلم ولا تدافع فقد كفانا ما سمعناه من خاطك . . » ثم صفق فجاءه الغلام فقال « الي بالجلاد » فخرج وعاد برجل عليه قميص من جلد وعلى رأسه عمامة مستطيلة وبيده سيف حاد أعدوه لقطع الرقاب . وكم قطع به رقاباً . فاشار الحجاج بسبابته الى عرفجة وحسن وقال « ائتني برأسيهما » فاراد عرفجة أن يدافع عن نفسه فلم يسمع له فصاح « كيف تأمر بقتلي ولم تتحقق تهمتي ؟ . . ان هذه الرسالة مزورة » وأخذ في الصياح حتى سمع صوته كل من في المعسكر فغضب الحجاج وصاح في الجلاد « هات رأس هذا أولا » وأشار الى عرفجة

فجذبه الجلاد من طوقه بعنف كأنه كان ناقماً عليه . وبالحقيقة ان

(١) كان ابن الحنفية على الحياد في أثناء الحرب بين الحجاج وابن الزبير لانه يود هلاكهما جميعاً وكان كل منهما قد دعاه الى المبايعة فابى وقد أضمر أن يبايع الغالب فلما ظفر الحجاج بايع لعبد الملك

المعسكر برمته كان يشكو من تصرفه وسوء نيته . ولم تكن قرابته من الامير لتكسبه قلباً من قلوبهم — وربما اكتسب الملك رؤوس رجاله بالارهاب أو الاطماع واما قلوبهم فلا يكتسبها الا بصدق انعطافه نحوهم واخلاصه لهم — لان القلب لايجذبه الا القلب

فجره الجلاد حتى اركعه في ذلك الفناء ونزع عمامته عن رأسه . فركع عرفجة وهو يلتفت الى الحجاج والحجاج معرض عنه ولم يكن الا كلمح البصر حتى طار رأسه من بين كتفيه والناس ينظرون وفي جملتهم حسن . وكان ذلك المنظر أشد تأثيراً عليه من الجميع لشعوره بقرب اجله

الفصل الرابع والثمانون

البريد

فلما قتل عرفجة دخل الجلاد على الحجاج والسيف يقطر دماً ووقف ينتظر امره فلم يتكلف الحجاج الا الاشارة ان « خذه »

فامسك الجلاد في طوق حسن واراد جره الى الخارج . فقال حسن للحجاج « أتقتلني بعد ان رأيت صدقي واخلاصي ؟ »

فصاح فيه الحجاج صيحة الغضب وقد احمرت عيناه وتجلى الغدر فيهما وقال « اتسألني عن قتلك وأنت مستحق الصلب منذ أيام ؟ . ولكنني صبرت حتى تحققت خيانة ذلك الغادر على يدك . أما انت فذنبك لا يجوز النظر فيه وهذا يكفي » قال ذلك وحول وجهه

فقال حسن « فاذا لم يكن بد من قتلي فاقتلوني داخل هذه الخيمة وليس على مشهد من الناس »

فقال « اتشترط علينا في كيفية اخراج هذه الروح النجسة ؟ . اقتله يا جلاد والا قتلتك »

فعاد الجلاد الى حسن فامسكه وشده فقال حسن « لا تجذبني فان الموت أهون ما ألقاه وانا واثق ببراءتي ... » قال ذلك ومشى نحو الباب

وفيما هما يهمان بالخروج سمعا قعقعة وصوتاً يقول « البريد البريد من امير المؤمنين » فعلم الناس ان البريد قادم من عبد الملك بن مروان وكان من عادتهم اذا جاء البريد لا يمنعونه ولا يؤخرون حامله لحظة سواء كان قادماً من الخليفة أو اليه . فلما سمع الحجاج صوت البريد قال « ادخلوه »

ولم يتم كلامه حتى دخل عليه رجل كهل قد انهكه التعب وتعفرت ثيابه وترامى عند قدمي الحجاج وسلم اليه كتاباً مختوماً ولم يعد يستطيع الوقوف لكثرة التعب . وكان حسن مشغولا بنفسه عن كل تلك المشاهد ولكنه استغرب وقوع الرجل فنظر اليه وتفرس فيه فاذا هو صديقه ابو سليمان فتذكر انه كان قد ارسله الى خالد بن يزيد في الشام بشأن رملة ولا بد أن يكون قد عاد بجواب خالد الى ابن الزبير فعزم على الاستئذان من الحجاج بكلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله ليكلفه بلاغ خالد رضاء ابن الزبير وان رملة في انتظاره لتزف اليه فيكون قد اتم مهمته قبل موته

أما الحجاج فتناول الكتاب ونظر الى الختم على ظاهره فاذا هو ختم الخليفة عبد الملك فقبله ووقف له تعظيما للخلافة ثم نظر الى الرجل الذي حمله فاذا هو ليس صاحب البريد فقال له « من أين لك هذا الكتاب هل انت من عمال البريد ؟ »

قال « لست منهم ولكنهم حملوني على دواب البريد للاسراع في ابلاغ هذه الرسالة الى مولاى » قال ذلك وهو يلهث وصوته يتقطع ويتلجلج من التعب والخوف

ففض الحجاج ختم الكتاب وفتحه وجعل يتلوه ويعيد قراءته ويتثاءب ويحك شفتيه بأصبعه ويلعب بشعر لحيته وقد ظهر التأثر فى عينيه . ثم جعل ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل في ختمه ويقلبه بين يديه وأبو سليمان لا يزال مستلقياً يلهث من التعب وينظر الى وجه حسن كأنه لم يعرفه وحسن ينظر في وجهه وكلهم سكوت ينتظرون ما يبدو من الحجاج بعد تلاوة ذلك الكتاب

أما الحجاج فبعد ان أعاد قراءة الكتاب مراراً أشار الى الجلاد فانصرف ولم يبق في الخيمة إلا هو وحسن وأبو سليمان فالتفت الى حسن وقال « هذا كتاب من أمير المؤمنين جاءني بما كنت تبغيه انت . ووالله لولا حرمة الخليفة لم يكن في الارض من ينجيك من القتل »

فلما سمع حسن ذلك ابرقت أسرته ولكنه لم يطمئن تماماً لانه لم يفهم صريحا فحوى هذا الكتاب فاطرق وظل ساكتاً

فنادى الحجاج « ياغلام » فدخل غلامه فقال له « ادع الكاتب » فخرج ثم عاد بالكاتب فدفع اليه الكتاب وقال « اتل هذا علينا » فتلاه وهذا نصه:

« من امير المؤمنين عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف أمير جندنا في الحجاز . أما بعد فقد بلغني أنك خطبت ابنة عرفجة المنافق وهي مخطوبة لحسن فاخذتها وحرمته منها والرجل ينتمي الينا وتهمنا رعايته فاذا أتاك كتابي احمل الفتاة الى خطيبها وامهره بما يقوم بالنفقة . ووالله لرجوعك عن الحجاز ولم تفتحه لاهون على من ارتكابك هذا الامر مع رجل من صنائعنا وخاصتنا — وثقتي أنك فاعل ما أقول والسلام »

فما فرغ الكاتب من تلاوة الكتاب حتى رقص قلب حسن طرباً وقد حسب نفسه في حلم وربما خيل له انه قتل وأن هذه خيالات تمر في ذهن المقتول بعد موته فجعل يتحقق وجدانه وينظر الى ما حوله . وهو في تلك الاحلام سمع الحجاج يقول « لم نتل الكتاب الا لتعلم أننا انما تجاوزنا عنك عملا بامر أمير المؤمنين . . » والتفت الى غلامه وقال « اعطه الف دينار . . وسمية طالق منذ الآن . . وامض به الى خباء النساء وانبيء أهله أننا طلقنا سمية وأزوجنا حسناً بها فلتذهب معه آمنة . وليخرجوا من هذا المعسكر قبل غروب هذا اليوم » قال ذلك ووقف فخرج حسن والغلام وكان ابو سليمان قد استراح ووقف مع الواقفين فلما خرجوا خرج معهم وهو يهم أن يخاطب حسناً وحسن يهم أن يخاطبه

الفصل الخامس والثمانون

مصيبة أخرى

وقبل أن يتكامل خروجهم رأوا فارساً يسوق جواده نحو فسطاط الحجاج والبغتة ظاهرة على وجهه حتى اذا وصل الفسطاط ترجل ودخل بدون أن يستأذن وهو يقول « ان مصيبة حلت في خباء النساء »

فلما سمع حسن الصوت علم انه صوت عريف الحرس وخاف أن يكون نحسه لا يزال سائداً فتكون المصيبة حلت في سمية . فأصغى فسمع الرجل يقول ان مولاتنا سمية سقطت لاحراك بها كأنها تجرعت سماأو أصابها الموت بغتة »

فلما سمع حسن ذلك صعد الدم الى وجهه وأحس كأن صخرا سقط على أم رأسه فكاد يفقده رشده وشغل عن مخاطبة ابي سليمان في كيفية الحصول على ذلك الكتاب ولم يتمالك عن العدو نحو خباء سمية ولم يكن ابو سليمان أقل بغتة منه لانه بعد أن بذل وسعه في خدمة حسن ووسط خالداً لدى عبد الملك حتى استكتبه ذلك الكتاب الى الحجاج ثم أجهد نفسه في سرعة السفر حتى تجاوز خطوات البريد وجاء بالكتاب في آخر لحظة وسره نجاحه بانقاذ حسن ونجاة سمية له — بعد أن وفق في كل ذلك جاء ذلك الخبر صدمة قوية أطارت صوابه فسار في أثر حسن نحو الخباء وسار في أثرهما بلال وغلام الحجاج

أما سمية فكانت قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه تلك الليلة وما أمرهم به من حبس حسن الى الصباح وقد أيقنت أن الحجاج لا يبقى عليه ولكنها تعللت بالممكن البعيد وصبرت نفسها الى ما يكون في الغد فقضت تلك الليلة وهي تفكر في مصير حسن وأصبحت وقد أعدت السم لحين الحاجة وجلست وراء الخباء تسمع ما يتبلغه الخفر من حديث ذلك اليوم وكان الخفر شديدى الرغبة في الاستطلاع ـ شأن الناس فى مثل

هذه الحال فكانوا يرسلون النفر بعد النفر لينقل اليهم أخبار تلك المحاكمة حتى جاء أحدهم بمقتل عرفجة فدق قلبها أسفاً على والدها وخوفاً على حبيبها وكانت أمة الله قد يئست من تخفيف المصيبة عنها ولم تعد تستطيع مخاطبتها فتركتها وشأنها

وبعد قليل جاءهم مخبر آخر أن الحجاج قتل حسن داخل خيمته . فهمت سمية الى السم والتقمته حالا فرأتها أمة الله وهي تفعل ذلك فاسرعت لمنعها فلم تدركها الا وقد ابتلعته فصاحت وولولت فجاء عريف الخفر ليسأل عما جرى فأعلمته أن مولاتها تجرعت السم فنظر اليها فاذا هي قد امتقع لونها والقت رأسها على جدار الخباء ثم توسدت ولم تبد حراكا فاسرع على جواده الى الحجاج كما تقدم وهو لم يصدق انها تجرعت السم

أما حسن فقد كان يعدو نحو الخباء وهو لا يرى طريقه ولا يبالى بمن يراه من الناس ولا بما في سبيله من الاحجار او الحبال أو الاوتاد وربما عثر بها فنهض وعاد الى العدو لا يلتفت يمنة ولا يسرة — حتى أشرف على الخباء فصاح وهو لا يعى مايقول « سمية سمية .. أنا حى . . . سمية . . . ياحبيبتى . . »

ولما وصل الى الخباء اراد الفرسان اعتراضه فاخبرهم الغلام بأمر الحجاج فتركوه فاطل من الباب فرأى فيه نسوة حول سمية وهي مستلقية كأنها جثة بلا روح وقد أطبقت عيناها وامتقع لونها وانحل شعرها وابيضت شفتاها فلم يتمالك حسن لما رآها في تلك الحال ان صاح وهجم نحوها وفي يده خنجره فتفرقت النساء عنها فقال وهو يجس يدها « حبيبتى . . روحي . . منيتى . . ماذا أصابك . . ا تجرعت السم يأساً من حياتى ؟ . . انى حي ياسمية . . . سمية اما ان تحي مثلى أو اموت مثلك . . »

وفيما هو يفعل ذلك ويهم أن يطعن نفسه بالخنجر أحس بيد أمسكته وسمع صوتاً يناديه « تمهل ياحسن ان سمية حية لا بأس عليها » فالتفت فرأى ليلى الاخيلية وبيدها كوب ماء جاءت به لترش سمية . فقال حسن « ماذا تقولين كيف تحيا وقد تجرعت السم وهو كاف لقتل أشد الرجال »

قالت « ان الذي تجرعته ليس سماً لاتخف . . »

قال« تعلليني بالاوهام انها ميتة وقد ماتت لاجلي أفلا أموت لاجلها؟»

قال ذلك ورفع يده والخنجر فيه فصاحت فيه ليلى « تمهل ياجاهل ان سمية حية ولم تتجرع السم ولكنها في غيبوبة »

قالت ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به من بعيد فحركت سمية رأسها ثم حركت شفتيها وقالت « حسن . . . حسن . . . قتلوك قتلهم الله اني ذاهبة اليك »

فلما سمع صوتها جثا عند رأسها وقال لها « سمية . . . . سمية . . . أنا حسن . . . أنا حي ياحبيبتي وقد انقذني الله . . . سمية افتحي عينيك وانظريني »

ففتحت عينيها وتلفتت وهي تقول « ماهذه الاحلام ! أين حسن ؟ ولما وقع بصرها على حسن شخصت فيه لحظة ثم قالت « حسن . . . حسن ؟ . . . »

فاجابها « نعم . . نعم . . أنا حسن »

فجاشت للحال والقت نفسها عليه واخذت في البكاء وهو يقول لها «لا تبكي يا سمية انني في خير »

فقالت له ليلى « دعها تبكي فتنفس كربتها وتصحو من سكرتها . . »

فسكت واما سمية فكانت تبكي وتشهق ثم ترفع رأسها وتنظر الى وجه حسن وتصيح « حسن حبيبي . هل انا في يقظة ام في منام ؟ . . »

فاجلسها الى جانبه وهو يقول لها « انظري الى ها اني حي وهذه صديقتنا ليلى . . واطمئنك أن أسباب تعاستنا قد زالت . . »

فقطعت كلامه قائلة « والحجاج . . . الحجاج . . كيف تزول أسباب التعاسة وهو باق » وبكت

قال « قد جاءه أمر الخليفة بذلك فطلقك وأنعم علينا بالمال على أن نخرج اليوم من هذا المعسكر » فحدقت بنظرها فيه كأنها تتحقق مايقول . فاذا هو يقول الجد وأقسم لها بحبها انه يقول الجد

الفصل السادس والثمانون

حسن الختام

فسكن روعها والتفتت الى من حولها فرأت ليلي وهند وأمة الله فلم تصدق أنها شفيت فقالت « يظهر ان السم تأخر فعله »

فقالت ليلى « انك لم تتجرعى إلا دقيق الذرة . وأما السم الذي ظننت انك تجرعته فهو معي » قالت ذلك واستخرجت من جيبها ورقة فتحتها وفيها السم وقالت « ألا تذكرين الليلة التى بت فيها عندك وأنت تتوعدين نفسك بالسم ؟ . فقد استغفلتك وابدلت السم بدقيق الذرة الناشفة لانى خفت مثل هذه العجلة فاحمد الله على نجاتك »

فهمت سمية بليلى وقبلتها وقالت « جزاك الله خيراً » فقال حسن « بل هى مفضلة على . . » ثم قص عليهم مادار بينه وبين الحجاج بالاختصار حتى أتى على ذكر أبى سليمان وكيف جاءهم في ابان الضيق وانه كان السبب في نجاته من الموت كما كانت ليلى سبباً في نجاة سمية منه . وكان أبو سليمان لايزال خارجاً فناداه حسن فدخل وهو يقول « هل يدخل عبد الله ؟ »

قال حسن « أي عبد الله ؟ »

قال « خادمك »

قال « فليدخل . اني اعده صديقى »

ثم دخل عبد الله وهو يقول « لاتظننى تخلفت عن خدمة مولاي ولكنني اصبحت بعد اخراجك من السجن تحت غضب عرفجة فلم أعد استطيع الظهور ولكننى كنت متخفياً أتنسم الاخبار . فلما تحققت نجاتك على هذه الصورة جئت لأكون في خدمتك . . »

وكانت سمية قدصحت وتحققت انها فازت بحبيبها وانها نجت من والدها

فثبتت بصرها في حسن وبصره فيها واكتفيا بتفاهم اللواحظ ثم قال حسن « والى أين تودين الذهاب وأين تقيم ؟ »

فاجابه أبو سليمان على الفور « تقيمان عندنا في المدينة . . »

فقال حسن « لقد اذكرتني أمر رملة هل أتيت بالكتاب من خالد الى ابن الزبير في طلب رملة . وكيف حصلت على هذا الامر من عبد الملك ؟ »

فقص عليه خبر سميه في ذلك الامر على يد خالد ثم قال « وأما ابن الزبير فقد جئته بالكتاب ولكنه وأسفاه عليه قتل ولا ندري ما تم باهله »

فقال « أهله لا يزالون في مأمن بمكة وقد صرح لي بقبوله بالزواج »

وقص عليه مختصر الامر ثم قال « وبعد عودتنا الى المدينة سأبعث عبد الله الى خالد بالخبر ليبعث أحداً يحمل رملة اليه . . »

ثم التفت الى ليلى وقال لها « ولا أنسى تعبك أيتها الصديقة في سبيل هذا الامر ويكفي انك كنت سببا لبقاء سمية كما كان العم أبو سليمان سبباً لبقائي »

فقالت ليلى « لا فضل لي في ذلك وقد فعلته وأنا مدفوعة بدافع قهري لأني جربت هذا العناء وعرفت شقاء المحبين وجهادهم ولا أظن أحداً من هؤلاء أدرك من حالكما ما أدركته أنا لأني وقعت في نحو هذا البلاء ولكنني لم أفز كما فزتما » قالت ذلك وشرقت بريقها

فادرك حسن انها تشير الى حالتها مع توبة فشكر الله وسكت عن جوابها لئلا يثير عواطفها

ثم وقف أبو سليمان وقال « كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم وكل شيء يجري بقضاء من الله سبحانه وتعالى .. هلم بنا الآن نستعد للرحيل وها عبد الله وبلال يعدان الاحمال ونحن نستعد معهما للرحيل »

فلما تحققت سمية قرب سفرها التفتت الى هند بنت النعمان زوج الحجاج وقالت « أرجو أن يوفقك الله الى سبيل تنجين به كما نجوت انا .. »

فتلألأت الدموع في عيني هند ولم تجب

وفي أصيل ذلك اليوم شدوا الاحمال وساروا جميعاً نحو المدينة الا ليلى فانها التمست وجهة أخرى . ولما وصلوا المدينة ساروا تواً الى بيت عرفجة وقد أصبح بما فيه ارثاً شرعياً لسمية . وكذلك كل ما كان يملكه عرفجة من العقار صار اليها . وفي يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم وقد سر بنجاح مهمتهم . واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفالا حضرته سكينة بنت الحسين وغيرها من سكان المدينة وأكثرهم كانوا يكرهون عرفجة وغنى فيه طويس وعزة الميلاء وأجاد أشعب الطاع في المجون حتى كادت تتمزق خواصر الناس من الضحك وبعد الفراغ من العرس سار عبد الله الى خالد في دمشق ومعه كتاب حسن بتفصيل ما وقع له من جهة رملة وبلغه جواب ابن الزبير فجاء خالد وتزوج رملة بنت الزبير كما هو مدون في التاريخ

﴿ تمت الرواية ﴾



